نسخة منسقة
مجلة الابتسامة
بروليتاريا
www.ibtesama.com
رواية
عبد الرحمن خضاري
مجلة الابتسامة
الدار المصرية اللبنانية

فريق العمل بقسم تحميل كتب مجانية

شكرا لمن قام بسحب الكتاب
و جزاه الله خيرا

إهـــــداء

إلى كل إنسان حر

حر بعقله.... حر بفكره

«إن أجمل الأشياء تلك التي يقترحها الجنون

ويكتبها العقل»

أندريه جيد

تيه الحاضر

تلك الأخطاء الصغيرة التي لا يدرك مرتكبوها أنهم يغيرون بها مجرى التاريخ... يعيدون رسم خريطة المستقبل... وأنّى لهم أن يعرفوا والحاضر بالنسبة لهم هو خط النهاية المتباعد باستمرار.

أصوات طلقات الرصاص التي أفزعت سكون الأجواء وظلام الليل في ليلة غاب فيها القمر نبأت عن مولد لحظة من تلك اللحظات.

طلقات رصاص أعقبتها صرخة انطلقت من أحد شابين يركضان هربًا من خطر قبل أن ينكفىء ذلك الشاب على وجهه متألمًا وقد أمسك بساقه المصابة فانحنى عليه الشاب الآخر قائلًا بجزع:

- انهض يا عالي سيلحقون بنا.

ثم مد يده معاونًا «عالي» الذي تحامل على نفسه كاتمًا آلامه وصرخاته واستند على كتف صديقه محاولًا السير.

تحرك الاثنان ببطء الإصابة وشحوب وجه «عالي» وقد تعالى لهاث صديقه مع الحمل الزائد والمجهود المضاعف.

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

سلكا أحد الشوارع الجانبية الضيقة في محاولة باهتة لتضليل الخطر قبل أن يزداد أنين«عالي» وتنعدم قدرته على المواصلة فأراحه صديقه إلى جدار متهالك يستر أرضًا خاوية وارتكن إلى جواره ملتقطًا أنفاسه.

نظر إلى«عالي» فهاله شحوبه الشديد قبل أن يستدرك نفسه ويحاول بلا فائدة مسح قطرات العرق اللزجة التي التصقت بوجه رفيق كفاحه.

- ستكون بخير لا تقلق.. هيا الآن قبل أن يلحقوا بنا.

جزَّ «عالي» على أسنانه غضبًا قائلًا:

- الحمير... الحمير الخونة.

- سننتقم منهم أعدك بذلك.. هيا بنا الآن.

قالها صديقه وهو يتلفت حوله قلقًا وقد تناهى إلى مسامعه صيحات ودبيب جيش من الرجال أعماهم الجنون.

التفت«عالي» بوهن إلى صديقه وقد غزا الضعف جسده كله قائلًا برفق:

- لطالما كنت خير صديق لي... عاهدتني إخلاصًا ولازمتني كفاحًا.. أنا أثق بقدرتك على استئناف ما بدأناه.. أعلم أنك لن يرتاح لك جفن حتى تحصد خير ما زرعناه.

انتفض صديقه فزعًا وقد أدرك مغزى الكلمات:

- لا وقت لمثل هذا الكلام.. انهض الآن.. انهض أو أحملك على...

قاطعه«عالي» قائلًا:

- تعبت يا صديقي.. لم تعد بي قدرة على المواصلة.. حياتك أهم من حياتي الآن.

- لا تقل هذا.. أنت«عالي».. أنت الرمز...

ظهر رجال الخطر عند بداية الشارع وصوبوا أسلحتهم نحوهم فصرخ«عالي» بقوة مفاجئة:

- اهرب الآن.. اهرب أو نموت سويًا ويضيع كل ما تعبنا من أجله هباءًا.

ألقى صديقه عليه نظرة مودعة وقد اختنقت الدموع في مقلتيه ثم انطلق فجأة راكضًا بسرعته المعهودة مما أربك الرجال الذين ظنوا به الاستسلام فانطلقت رصاصاتهم العشوائية تلاحقه في الظلام حتى اختفى.

انقسم الرجال إلى قسمين.. قسم استكمل المطاردة والآخر اقترب من«عالي» مسلطًا الكشافات على وجه أنهكه الألم قبل أن يجري أحد الرجال اتصالًا هاتفيًا وقد انتصبت قامته باحترام:

- تمام يا ريس.. قبضنا على«عالي»

أنصت قليلًا لصوت محدثه قبل أن يهز رأسه نافيًا قائلًا:

- لا.. العبد هرب ولكننا مازلنا نلاحقه.

أنصت مرة أخرى لما بدا غضبًا من طرف محدثه قبل أن يقول:

- تمام يا ريس.

ثم أنهى المحادثة ونظر بظفر إلى«عالي» شبه الميت قائلًا ببطء:

- انتهت أسطورتك أيها الرمز.

* * *

- استرح يا افندم... دقائق ويقابلك الباشا.

- لا بأس بذلك.

قالها«ياسر الكاتب» ردًا على الجملة الروتينية التي نطق بها«سمير الصول» الذي وقف بمدخل الغرفة ممسكًا بمقبض بابها ومفسحًا طريق الدخول لياسر.

خطا ياسر داخل الغرفة.. تحرك نحو المقاعد الوثيرة في ركن الغرفة.. انتقى أحدها وجلس عليه وهو يجول بعينيه في المكان... غرفة شاسعة بمساحة نصف طابق من المبنى الضخم الخاص بإدارة الأمن.. شعر بنار الحقد تلتهم باطنه، فهو وبعد عشرين عامًا من الكتابة الاحترافية لم يحظ بأكثر من مكتب صغير يشغل نصف مساحة الغرفة المجاورة لغرفة نومه في شقته الكئيبة... بينما يجلس هذا الأحمق المتعجرف منخفض الذكاء الذي سيقابله بعد قليل على مكتب ضخم لا يغطيه الا الزجاج وبعض الملفات في غرفة بمساحة شقة عملاقة تكتظ بالأثاث الوثير والسجاد الفاخر وجدار زجاجي يطل على جزء كبير من العاصمة.

هـذا طبيعـي.. فنحن فـي مجتمعـات تسـتمد فخرها الشـخصي من علاقاتهـا الأمنية.. بينما ينـدر أن تجد أحدهم مثلًا يتفاخـر بكونه صديقًا لطبيب أو مهندس.

مجتمعـات اسـتقر فـي وجدانها منذ عشـرات السـنين أن المسـتوى الأمنـي هو الأعلى والأكثر سـيطرة في الهرم الوظيفـي المتدرج.. لذلك يهـرع العبيـد الجدد لسـد كل الثغرات في جـدار الوظائـف الأمنية مهما بلغـت حقارة المهنة، بينما توشـك أنقـاض جدران العلـم والأدب على التلاشـي فـلا ينضم إلى قافلتيهمـا البطيئتين إلا كل مضطـر أو عاجز عن اللحاق بالركب الأمني السريع.

لا يهـم... أنا«ياسـر الكاتـب».. الكاتـب الأول والأشـهر فـي دولـة حيـارى .. ومهمـا فعلـوا لزيادة أحجـام مكاتبهـم فإن ذلك لـن يزيد من أحجام عقولهم التافهة.

- شعوب فارغة تعشق المظاهر الكاذبة.

قالهـا بضيق متأفف قبـل أن يلاحظ ذرات التراب التـي تلوث حذاءه الأسود الذي كان لامعًا هذا الصباح فيشتد ضيقه.

يخـرج منديلًا من جيبـه وينحني لينظف الحذاء بينما اسـتأنفت عيناه تجولهما في المكان.. تسلقتا الحائط المقابل للمكتب حتى استقرتا على الإطار الضخم الذي يحتضن صورة رئيس الدولة.

تركزت عيناه على نظرة الاحتقار المسلطة من عينيه مع ابتسامة تعالي الآلهة المرسومة على وجهه.. توقف عن تلميع حذائه وركز في الصورة قليلًا قبل أن تعلو شفتيه ابتسامة ساخرة.

أمسك المنديل الملوث بين إصبعيه ورمقه بنظرة خبث شديد.. وقبل أن يقدم على أي فعل فُتحَ الباب فجأة ودخل «أحمد اللواء» بخطى سريعة واثقة فهب الآخر واقفًا بسرعة ودس المنديل في جيبه بحركة غير ملحوظة.. ثم اتجه نحو أحمد مادًا يده أمامه وراسمًا على وجهه ابتسامة عريضة:

- سعادة الباشا... كيف حالك؟

هش وجه أحمد وصافح ياسر بقوة قائلًا:

- غير معقول... ياسر الكاتب بنفسه في زيارتنا.. هذه والله بشرى أسعد بتلقيها في هذا الصباح الجميل.. تفضل.. استرح.. استرح.

جلس ياسر وقد ظهرت على وجهه علامات الدهشة الجلية متعجبًا من كمية الترحاب التي استقبله بها سيادة اللواء صاحب المنصب الخطير الذي ألقى كلماته ثم استعاد وجهه بروده التلقائي ودار حول مكتبه ليجلس على كرسيه الأضخم منه والذي لا تشغل مؤخرته منه إلا نصفه أو أقل ثم قال بلهجة عملية:

- أخبرني إذن.. أي ريح طيبة ألقت بك إلينا..

تنحنح الآخر بحرج قبل أن يقول:

- حسنًا.. في الواقع..

قاطعه اللواء قائلًا فجأة:

- أخبرني ماذا تشرب أولًا؟.

صمت ياسر لحظة متضايقًا من مقاطعته وبعثرة أفكاره المرتبة بهذا الشكل المفاجيء قبل أن يغمغم قائلًا:

- قليل من القهوة السادة.

يرفع الآخر سماعة الهاتف الراقد أمامه على المكتب ثم يقول بصوت آمر:

- اثنان قهوة سكر زيادة.

أوشك ياسر على تعديل جملة اللواء لكنه آثر الصمت في اللحظة الأخيرة.

أعاد أحمد سماعة الهاتف إلى موضعها ثم التفت إلى ياسر قائلًا:

- عودة إلى كلامنا.. ماذا كنت تقول؟.

- إحم... هو طلب صغير من سيادتك أثق في قدرتك على تحقيقه.. أنت تعلم مدى صعوبة الاتصال بيننا وبين دولة نوصير خصوصًا بعد تلك الأحداث الأخيرة.. وقد تناهى إلى علمي ظهور مذكرات مفصلة كتبها أحد الشباب الذين بدأوا الانتفاضة ولكنني لم أتمكن من التواصل معه... فإن تمكنت سيادتك من الحصول على نسخة من تلك المذكرات

بالإضافة للتقارير الأمنية عن تلك الفترة تكون قد قدمت لي معروفًا كبيرًا.

تراجع أحمد في كرسيه الضخم وشبك يديه أسفل ذقنه وظهرت على وجهه معالم التفكير قبل أن يغمغم:

- طبعًا أنت تريد هذه الوثائق لتؤلف عنها كتابًا.

- بالضبط.

قالها ياسر بشبه ازدراء للغباء الواضح على الرجل الذي نهض من مقعده ورسم بجسمه شكل الشخص المهم عندما يُطلب منه حل إحدى القضايا القومية العاجلة وذلك بأن قام بعقد يديه خلف ظهره وأحنى رأسه للأمام قليلًا وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا قبل أن يقول:

- طبعًا لا أحد يقلل من شأن هؤلاء الأبطال في دولة نوصير... لكن.. هذا الشعب.... .

وأشار بيديه عبر الحائط الزجاجي وهو يقولها مستأنفًا:

- هذا الشعب لن يميز ويفرق بين الظروف المختلفة في دولة نوصير والتي أدت لحدوث تلك الانتفاضة وبين ظروفنا نحن هنا... ونشر مثل تلك التسجيلات في كتاب من تأليفك قد يشجع الناس على العصيان ومحاولة تقليد شعب نوصير.

ثم التفت إلى ياسر وابتسم ابتسامة واسعة قائلًا:

- وصدقني.. لا أريد إلقاء القبض عليك بتهمة التحريض على قلب نظام الحكم.

تصاعدت عصارة اليأس لتمرر قلب ياسر وهو يقول:

- وهل هناك حل؟

أولاه اللواء ظهره بثقة المسيطر على الموقف ونظر عبر الجدار الزجاجي مرة أخرى قائلًا:

- لا توجد مشكلة بلا حل.. أو على الأقل لم توجد واحدة حتى الآن.. بالطبع هناك حل...

قال ياسر بلهفة متناسيًا كبرياءه:

- وما هو؟

التفت أحمد إليه قائلًا بشبه سخرية:

- سأعطيك التقارير الأمنية وتسجيلات ذلك الفتى لكنك في المقابل ستكتب كتابك بطريقة محايدة توضح الفروق بيننا كدولة حيارى وبين دولة نوصير.... بين عدل نظامنا وظلم نظامهم.... بمعنى أنك لن تكتب شيئًا خطيرًا أو محرضًا من مذكرات الفتى.

قال ياسر بدهشة:

- لكن إن كنت لا تريدني أن أقتبس معلومات مهمة أو محرضة من مذكراته فلم ستعطيني إياها؟!.

- لكي تفهم حقيقة ما جرى وترى الحدث من كل الزوايا.

قال ياسر بحنق:

- وإن رفضت ما تقول؟

- أنت حر في اختيارك القبول أو الرفض... لكن لا تنسَ أن الرئاسة والقيادات الأمنية غاضبون منك بسبب ما كتبته عن ظلم الحكم وسياسة الإحتلال الداخلي وهجومك الشرس في كتابك الأخير.. طبعًا أنت أنكرت كافة الاتهامات لأنك كتبت الكتاب بطريقة رمزية ساخرة وغير مباشرة مما أعطاك نوعًا من الحماية الظاهرية.

شدد اللواء على نطق الكلمتين الأخيرتين فوصلت الرسالة المستترة إلى ياسر على الفور.

أكمل أحمد كلامه قائلًا:

- طبعًا أنا دافعت عنك كثيرًا في هذا الصدد لمعرفتنا القديمة ببعضنا... لكن هذا لا يمنع أنهم مازالوا حانقين عليك وعلى طريقتك المستفزة.

احتد ياسر قائلًا:

- وأنا مازلت أنكر كافة تلك الاتهامات.

نظر له أحمد نظرة مطولة مدققة كأنما يستشف صدق كلماته قبل أن يتنهد قائلًا:

- على كل حال... ما هو ردك؟

صمت ياسر وثبت عينيه على الأرض مفكرًا.. إنه بحاجة ماسة لهذا العمل... بعد كل تلك السنوات من الكتابة والتأليف المستمر وصل أخيرًا إلى تلك النقطة البائسة التي تنضب عندها الأفكار وتنهار سدود الحبكة والقوة التأليفية... ثم جاءت هذه الأحداث كروح شافية استقرت بداخله لتعالج يأسه واكتئابه المتصاعد... إنه بحاجة لكتابة هذا العمل ليختتم به حياته الكتابية الحافلة... كما أنه بحاجة لتحسين موقف الرئاسة منه ورفع أذاها عنه.

رفع ياسر بصره عن الأرض وثبته على سطح مكتب اللواء لاعنًا في سره الحاجة والطموح قائلًا بصوت خفيض:

- حسنًا

ابتسم اللواء ابتسامته السمجة قائلًا:

- خيرًا فعلت صدقني... اعتبر الأمر بإحضار ما طلبت قد صدر... ستصلك تلك التسجيلات والتقارير في أقرب وقت... و...

قطع حديثهما طرق على الباب.. دخل«سمير الصول» حاملًا صينية صغيرة عليها قدحان من القهوة يرتعش سطحاهما بقوة مع ارتعاشة القدحين والصينية كلها المصاحبة لارتعاشة يد الصول..

- لا داعي للقهوة... «ياسر الكاتب» على وشك الانصراف على كل حال.

حلت ملامح عدم الفهم على وجه الصول بينما نظر ياسر إلى أحمد بدهشة بالغة.

خرج الصول في صمت بينما ظل ياسر محدقًا في وجه أحمد محاولًا استشفاف سبب رد فعله هذا... ثم كالعادة آثر الصمت وتجاهل الموقف برمته وقام محييًا أحمد ببرود واستدار نحو الباب منصرفًا.

ولكنه وقبل أن يبلغ الباب غلبه فضوله وصرعته حيرته فالتفت مرة أخرى إلى«أحمد اللواء» قائلًا:

- ولكن... إن كنت بعد كل هذا لم تأذن للصول بإدخال قدح من القهوة يستهلك شربه عشر دقائق على أقصى تقدير... فلم سألتني منذ البداية عما أريد أن أشربه؟!.

لم يتحرَّ«أحمد» ردًا وإن علت وجهه ابتسامة باردة لا تشي بأية إجابة قبل أن يسلط نظره إلى الأوراق على مكتبه متجاهلًا وجود الآخر.

تسمر«ياسر الكاتب» مكانه للحظات متلمسًا حدود الإهانة ثم استدار بهدوء وفتح الباب وخرج مباشرة دون أن ينبس بأدنى كلمة وهو يلعن في سره تلك«البجاحة» الأمنية...

أخذ يفكر قليلًا محاولًا إيجاد تفسير مقبول لما حدث للتو.

ربما لم يكن الغرض من السؤال معرفة ما يريد أن يشربه... وانما كان لمقاطعة كلامه بصوره مفاجئة وتشتيت ما أعده مسبقًا من جمل مهذبة

ومرتبـة.. وبذلك يقفز إلى قلب الموضوع مباشـرة بلا تعقيدات لفظية أو مقدمات تملقية....

... ربما هذا الأحمق ليس بدرجة الغباء التي تصورها في البداية...

... ربما!.....

* * *

«هل لحياتنا قيمة؟»

كلما سألت أحدهم هذا السؤال رد عليك بابتسامة حكيمة، وبالتأكيد على أن الحياة جميلة وأنها طريق ينبغي لنا أن نسلكه حتى نهايته وأنه من المفترض ألا تسأل مثل هذا السؤال لأن الحياة هدية من الله ولا يليق بنا أن نرفض هداياه ونعمه.

يبتسـم في وجهك ملقيًا تلك الإجابة ويضع على وجهه كل مساحيق الحكمـة الممكنة ويبدو سـعيدًا بتلقينـك هذا الـكلام المنحوت الجاهز المحفـوظ مسـبقًا عديـم القيمة والأدلـة ليظهر لك عمـق حكمته ومدى سذاجتك.

بالتأكيد ليس لحياتنا قيمة... أو... ليس لحياتي أنا قيمة.

تتمثـل قيمـة حياتك فـي ما تفعلـه بها... مـا حققته فيهـا... علامتك الدائمـة المحفورة على جدار الحياة.. علامة حية تصرخ في أذن من يمر بها معترفة بوجود شـخص قبله قد مر على هذا المكان.... شـخص فعل كذا وكذا.

لذلك لا تتردد في الرد على مدعي الحكمة صارخًا في وجهه أن يكف عن الهراء وألا يردد كلامًا محفوظًا.... تأمره بأن يبتعد عن سياسة الكسل وفخر العاجز... تخبره بأن يتوقف عن توقع ميعاد وصول الحدث المختار الذي سيغير حياته... لأنه لن يأتي.

كانت هذه الخواطر البركانية تتفجر في رأس «خالد المحامي» وتغلي دماءه بحمم الأسئلة الملتهبة عديمة الإجابات.

كان يكره الصمت.. لأنه يوقظ شياطين الأسئلة ويخرجها من مكامنها لتعيث فسادًا في رأسه.. تقوده بخطى سريعة في طريق اليأس المطلق الذي لطالما حاول النجاة من براثنه فلم يستطع... تنشب به أنيابها وتتسلى بتمزيق لحمه... تتلذذ برؤيته كارهًا للحياة ومن فيها وما فيها.... تصل به إلى درجة يتمنى معها لو استطاع أن يتوسل إلى ملك الموت كي يقبض روحه... يوشك على الانتحار لولا رواسب دينية متعلقة بروحه تعوقه عن تنفيذ ما يريد.

كان يكره الصمت ولكنه كان مجبرًا عليه في تلك اللحظة.

فإلى من يتحدث؟!...

إلى هؤلاء المجاذيب مشعثي الشعر الذين يترنحون في طواف متعثر حول ضريح رخامي... أم إلى زوجته المجنونة التي جاءت تتمسح بدموعها في جدار الضريح تاركة للسانها حرية بعثرة الكلمات الباكية والدعوات الحارة!.

يتردد نظره بينهم وبين تلك اللوحة المذهبة الضخمة التي احتلت أحد جوانب الضريح مكتوبا عليها بالخط العثماني كلمة«السيد».

يمل وقفته فينادي زوجته بصوت عالٍ يجعل رؤوس المجاذيب تلتفت نحوه بعيون محمرة ممتلئة بالوعيد.

- ماذا تريد؟

تقبل عليه بزيها الغريب الجامع بين الأحمر والأبيض والأسود والذي ترتديه عند زيارتها للضريح.

- هيا بنا.. فلنذهب من هذا المكان.

يقولها بحنق فتحدق فيه بدهشة وتصمت للحظات قبل أن تقول برجاء:

- خمس دقائق أخرى فقط.

- ما فائدة ما تقومين به على أي حال... «السيد» ليس وليًا من أولياء الله الصالحين.

- «السيد» هو من حررنا... هو من أخرجنا من غياهب جب الظلم.

يصيح بسخط:

- ليس هو من فعل هذا... هو مجرد رمز بالٍ... شبح شخص كان في يوم من الأيام الملك الحقيقي لهذا البلد... إن كنتم تريدون توجيه الشكر لشخص ما... اشكروا من أطلق الشرارة.. اشكروا«عالي»... ولو أني أعتقد أنه لا يستحق شكرًا.

- ماذا؟!.... كيف تجرؤ على قول مثل هذا الكلام؟.

- أجل لا يستحق شكرًا... ففي ظل الفوضى التي نعاصرها الآن.. أصبحت أتمنى لو لم يحدث ما حدث.

تصاعدت نوبة غضبه فجأة وأشار إلى الضريح صارخًا:

- ما يحدث هنا مستحيل... لقد جننتم تمامًا.. اعتدتم على العبودية.. تشربت بها أجسادكم وعقولكم حتى أصبح من المستحيل بالنسبة لكم أن تعيشوا وتنجوا بلا أيقونة مقدسة.. بلا سيد.

كان صراخه قد وصل إلى درجة من العلو جعلت رؤوس كل المجاذيب تلتفت إليه... يحدقون به بغضب مستعر... يكشرون عن أنياب الثورة... توقف طوافهم المحموم حول الضريح.. وتجمد المشهد كله.

استجمع خالد شجاعته وصاح:

- أليس لنيل الحرية كانت الانتفاضة.. أليس لكسر قيود العبودية صرعنا الوحوش.. ألم يكن شعارنا«من الآن فصاعدًا.. لسنا عبيدا».

- اخرس.

صرخ بها أحد المجاذيب بعلو صوته فبدأ جمع المجاذيب بترديدها وراءه كالمنومين... بصوت منخفض في البداية لم يلبث أن تصاعد تدريجيًا حتى وصل حد الصراخ الهذياني.

اخرس...

اخرس...

ارتد«خالـد المحامـي» ببـطء وحـذر إلى الخلـف مذهـولًا مما يرى ومتخوفًا ومتوقعًا الأسوأ..

نظـر لزوجته فوجد بعينيها نفـس النظرة الاتهاميـة المخبولة ثم فجأة انتابتها حمى الصرخة فبدأت بترديدها معهم ببطء..

اخرس...

اخرس...

- أفيقوا من غفلتكم... أفيقوا.

اخرس..

اخرس..

انحنى عدد منهم وامتدت أياديهم إلى الحجارة المتناثرة على الأرض وشرعوا في إلقائها عليه

صرخ خالد متألمًا عندما أصابه حجر مدبب ألقته عليه زوجته!.

تراجـع بظهره أكثر فأكثـر وهو يبتعد عن طريق الحجـارة الغاضبة ثم صرخ بغضب:

- تنبذون من يتكلم بالمنطق؟... عليكم اللعنة.. جميعكم.

قالها ثم أطلق لساقيه العنان فارًا من غضب المجاذيب وسيول أحجارهم المتساقطة التي تتبعت أثره بينما هو يضغط على ذراعه النازفة من أثر الحجر الذي قذفته به زوجته ويقول من بين أسنانه:

- عليكم اللعنة.. أنتم عبيد..

لطالما كنتم وستظلون..

... عبيدًا.

* * *

الخضوع

كَتَب: وليد الصحفي

انظر حولك في كل مكان تطأه قدماك... اجعل عينيك تغطيان بحركتهما كافة درجات الدائرة المحيطة بك.

نظرت جيدًا؟!.

أجل... هي تلك الوجوه الكالحة هي ما أعني.. هي تلك العيون الجائعة هي ما أريدك أن تراه... هم أناسك من ترى.. أهلك.. أصدقاؤك.. معارفك.. أشخاص لا تعرفهم لكنهم يشاركونك الجنسية اللعينة...

هل رأيت ما أرى باستمرار منذ أن وعت عيناي بلادهم من حولي...

أجل... بلادهم هم وليست بلادنا... أعطتهم خيرها وميزتهم عنا.. إذن هي بلادهم.. هي أرضهم.

أرضهم التي ربطونا بها إلى الأبد والويل لمن يفكر في الرحيل.

انظر حولك مرة أخرى يا صديقي..

انظر إلى الخضوع المحفور على الوجوه... انظر إلى الهمّ والغمّ والابتسامة الميتة.. انظر إلى الاكتئاب.. انظر إلى الفقر.. والاستسلام

للمصير البائس.. انظر إلى الهائمين على وجوههم في ذهول... فلا هم استمتعوا بنعمة الجنون كاملة ولا استقر عقلهم على التفكير في الحياة والأمل في مستقبل.

انظر حولك ولا تستغرب اكفهرار وجه والديك.. لا تستغرب ذلك الدرع اللامع الذي يلبسه أخوك...

ولا تستغرب أيًا مما يحدث حولك...

فهذا هو الطبيعي عندنا...

مرحبًا بك في دولة نوصير....

وأهلًا بك في الحياة أيها الطفل الصغير...

حياة من العبودية!!...

(مقال من جريدة قديمة تشربت أوراقها بزيت القلي)

* * *

«في أرض العبيد... لا اسم لك... ولا هوية... أنت لا شيء... نكرة... أنت فرد من المجموع... أنت ترس ضئيل القيمة في آلة ضخمة تصنع قماش علم الوطن... ليبيعه الآخرون».

وليد الصحفي

* * *

«أخيرًا... جاءت اللحظة التي انتظرتها طيلة حياتي»

ردد «كبير الحمير» هذه العبارة في سره مرارًا وابتسامته تتسع تدريجيًا كلما أعاد ترتيب ما ينتويه وتأكد من إحكامه وتخيله قيد التنفيذ.

تفقد هندامه في المرآة المجاورة لباب القاعة ثم فتح الباب وخطا داخل القاعة فأقبل عليه مستشارو الحمير من كل صوب ينحنون أمامه ويقبلون يده بتزلف ملتمسين رضاه.

اتخذ مكانه خلف المنصة العملاقة في أول القاعة وجلس إلى يمينه«المستشار الأول» وإلى يساره«مسئول الاتصال».

- اتخذوا أماكنكم.

قالها «كبير الحمير» بصوته الهادىء الآمر فانفرط عقد «مستشاري الحمير» وتبعثروا ليملأوا المقاعد المصفوفة أمام المنصة.. ثم ساد الهدوء في انتظار كلمة «كبير الحمير».

«من المؤكد أنكم تتساءلون عن سر هذا الاجتماع المفاجىء وبهذه الدرجة من السرية».

سرت همهمات خفيفة بين الحضور قطعها صوته قائلًا بهدوء فجَّر صمتًا لا نهائيًا:

- جمعتكم لأخبركم أنه قد حان الوقت.

حبس الجميع أنفاسهم توترًا وإثارة وترقبًا لمزيد من التوضيح فنهض«كبير الحمير» من مكانه وتحرك ليقف أمام المنصة فاتحًا ذراعيه أمامه كأنه يحتضن الهواء وقال:

- إخواني... لقد انتظرنا عقودًا كاملة من أجل هذه اللحظة.... اللحظة التي نثبت فيها جدارتنا واستحقاقنا لما هو أفضل... بعد كل تلك السنوات التي استهلكتها طائفة الوحوش من أعمارنا وأعمار آبائنا في حكم نوصير .. حان دورنا لنمسك بزمام الأمور.. كانوا دولة باطل ونحن سنكون دولة الحق».

تعالت صيحات الحماس والتشجيع من المستشارين وصفق بعضهم بيديه طربًا وشرد بعضهم متخيلًا تحول الحلم إلى حقيقة.

- ستثبت للعالم أجمع أننا الأفضل بلا منازع... وأنهم أخطأوا عندما استهزأوا بنا وباسم طائفتنا طيلة هذه السنوات.

راقب «كبير الحمير» فوضى التشجيع القائمة أمامه وتذكر أيام كان في مثل حماسهم.. تلك الأيام التي كان فيها أصغر مستشار للحمير عرفته الطائفة على مر تاريخها وكان والده يقف موضعه الآن ويخطب بصوته الجهوري متوعدًا لمن يقف ضدهم وداعيًا لإنشاء دولة الحمير المستقلة.

«رحمك الله يا أبي.. كنت متحمسًا ومتعصبًا لأفكارك إلى أقصى حد فسببت لنا بتسرعك الهزيمة والعار وعرفنا بسببك مرارة السجن وأهوال التعذيب المستمر.. ما كان لك أن تضع يدك في يد طائفة الوحوش أبدًا.. ألم تكن تعلم أنهم أسياد الخسة والخيانة.. لمَ وافقت على هذا الاسم المبتذل المهين الذي منحوه لك ولطائفتك مقابل أن يسمحوا لك بالتواجد بصفة رسمية... «كبير الحمير» و«طائفة الحمير»... ألم تكن تعلم أنهم يستهزئون بك وبنا.. لمَ وافقت على الانحناء والخضوع

رغم أنها كانت فكرتك منذ البداية أن تنشـق عن طوائف العبيد وتنشـىء مجتمعنا الخاص. رحمك الله يا أبي... كلا.. بل لعنك الله يا أبي.. أنت من كسوت وجهي بهذا العار.. أنت من شوهتني هكذا..».

كانت يد «كبير الحمير» تمتد إلى وجهه ليتحسسه بخوفه المعتاد كلما تجول هذا الخاطر الأخير برأسه.. ولكن قبل أن تصل يده إلى وجهه قطع اتصـال خواطره صوت«المستشـار الأول» قادمًا مـن مكانه على المنصة قائلًا:

- ولكن.. لم هذا القرار المفاجىء بالسيطرة على حكم الدولة.. ماذا عن طوائف العبيد العليا والوسـطى والدنيا.. ألم نتفق معهم على تقسـيم الحكم بيننا بالتساوي.

التفت إليه «كبير الحمير» قائلًا بغضب:

- العبيد العليا فاسـدون ومعظمهم كانوا شـركاء لطائفة الوحوش لذا فهـم خونة ولا حق لهـم في الحكم.. أما العبيد الوسـطى والدنيا فهم إما جهلة أو حمقى متسرعون.. لا يتسمون بوحدة الصف التي تميزنا.. وإنما هم دائمو التفرق متعددو التحزب والانتماءات.. وإن تركنا لهم ولو جزءا بسيطا من إدارة الدولة سنغرق جميعًا.. ويتدمر حلمنا.

قام«المستشار الأول» قائلًا بتحدٍّ:

- ولكـن هـذا ليس مـا اتفقنا عليه معهـم وأنا لن أخلف وعـدًا قطعته أبـدًا... ربما تكـون هذه وجهة نظـرك عنهم ولكن لا تنسَ أنهـم بالتأكيد لديهم وجهة نظر مشابهة عنا.. وأنا لن أشارك في هذه المهزلة.

- أيها الأحمق.

صرخ بها«كبير الحمير» فجأة وأخرج مسدسًا صغيرًا من جيبه وأطلق الرصاص على المستشار الأول فسقط صريعًا من فوره أمام ذهول كل من في القاعة.

وضع«كبير الحمير» سلاحه في جيبه واستعاد هدوءه فجأة والتفت مرة أخرى للمستشارين قائلًا وكأن شيئًا لم يكن:

- نعود إلى ما كنا نتحدث عنه.

لم ينبس أحد ببنت شفة وظلت أنظارهم جميعًا معلقة بالجثة تالفة الرأس التي افترشت أرض القاعة وسط بركة من الدماء فصرخ بهم«كبير الحمير":

- أيها الحمقى ألا تفهمون... لقد خان عهدنا.. لقد كسر الوعد المقدس بفعل كل ما في صالح الطائفة.. إنه خائن منبوذ منذ اللحظة التي فكر فيها بمخالفتنا... والآن عودة إلى ما كنا نقوله قبل هذه الترهات.. لقد أعددت خطة عبقرية سنناقشها الآن بالتفصيل.

نجح كلامه في صرف انتباههم عن الجثة وجذبهم إليه مرة أخرى فأخرجوا أوراقهم وأقلامهم واستعدوا للعمل بينما شرد عقل«كبير الحمير» في أحلام مستقبلية لا حدود لها...

«أجل يا أبي.. سأثبت لك وللجميع أنني لست فاشلًا ولا معتوهًا كما كنت تظن بي... ابنك يا أبي سيصبح «سيد العالم».. سترى يا أبي أن الوحيد الذي سيخلد اسمك هو ابنك الأصغر الذي لطالما قللت من قدراته وكفاءة أحكامه وحسن تصريفه للأمور... سترى يا أبي.. أنا من سيحقق حلمك.. أنا من سينشىء الدولة.. دولتنا المستقلة.. أنا من سينفذ مشروعك ويتخلص من هذا الاسم اللعنة الذي ألحقته بنا وهذا الوجه اللعنة الذي كنت أنت سببًا فيه».

بدأ «كبير الحمير» يناقش المستشارين في خطته.. بينما بركة الدماء الغارقة فيها جثة المستشار الأول تلمع بالأحمر المجنون... وتنعكس عليها أضواء المكان...

... وتتسع.

* * *

"في أرض العبيد... الخسة هواء نتنفسه.. والوضاعة رضاعة نتلقاها منذ الصغر.. والجحيم مقدر للجميع».

وليد الصحفي

* * *

لافتات مشرعة في كل مكان...

«نريد المساواة»

على جدران المبنى العتيق التابع لإدارة الزراعة من قسم لوازم الحياة.

«أعطونا حقوقنا أو الخراب للجميع».

«يا لصوص، أوقفوا النهب والاستغلال».

على العوارض الحديدية والحواجز المنصوبة أمام المبنى... على الصوان المقام حول مدخل المبنى... على جدران المقهى الذي يبعد عشرين مترًا عن المبنى والذي وقف عند مدخله صاحبه «حسن القهوجي» سعيدًا بالرزق الذي سقط عليه من السماء ومتمنيًا استمرار هذا الاعتصام لفترة أطول والذي يشكل من قاموا به مصدرًا للخير الوفير بالنسبة له... إذ ترد إليه طلباتهم من الشاي والقهوة والسحلب والينسون طوال اليوم حتى إن عدد الأكواب بالمقهى لم يعد يكفي الطلبات المتزايدة فبدأ يأخذ من أكواب البيت ومن «نيش» زوجته التي وقفت تلطم وتصرخ عند مدخل البيت طالبة منع هذا المجنون من سرقة ودائعها العزيزة... هذا قبل أن يسقط المجنون بكفه الثقيلة على وجهها بقوة فصمتت باكية وراضخة لهذا الذل الذي لا مفر منه.

تأمل حسن المشهد من حوله راضيًا ثم رفع يديه إلى السماء قائلًا بصوت خشن ذبحته السجائر والبيرة الرخيصة:

- يارب دِمْها علينا نعمة يارب واحفظها من الزوال!.

ثم تناول صينيته النحاسية القذرة من تحت إبطه ومسحها بمنديله الأقذر منها واستدار داخلًا المقهى صائحًا بصوت منغم:

- ارزق ياللي بترزق.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

- حجر معسل هنا.

- تؤمر ياسعادة الباشا «سعيد المحاسب».

قالها بفرح ثم نظر بضيق إلى الشابين الجالسين في ركن المقهى منذ أكثر من الساعة ولم يطلبا إلا كوبين من الشاي حتى الآن يتعمدان شربهما ببطء شديد... تعمد إطالة النظر إليهما ليشعرهما بمراقبته لهما.. ثم انصرف إلى عمله بعد أن أحس بأن الرسالة قد وصلت إليهما.

في نفس الوقت وبالقرب من صوان الاعتصام على رصيف صغير ملتصق بحائط المبنى جلس شابان مجاوران لبعضهما.. أحدهما يحتسي الشاي باستمتاع شديد والآخر يحدق بدهشة في قضيب السكة الحديد الذي يظهر من بين شقوق أسفلت الطريق مما يبين الإهمال والتعجل في رصف الطريق وتغطية هذا الخط القديم للسكك الحديدية.

- لم أنت شارد هكذا؟

- هه... لا شيء.

- متى تنتهي جلستنا السخيفة هذه.

- عندما تتحقق مطالبنا ينتهي الاعتصام.

- اللعنة على الاعتصام... الإدارة المؤقتة للدولة لا تستجيب وقد أرسلوا لنا عدة إنذارات بالفعل.... آخرها منذ يومين.. أرسلته إدارة الأمن تحذرنا من أنه مالم ننهِ اعتصامنا ونعود إلى أعمالنا فإنهم سيتدخلون لفضه بالقوة.

- أغبياء... لن يقدروا على فعل أي شيء... معنا الرجال ومعنا السلاح... دعهم يقتربوا.

- يا صديقي «طه العامل»... القوة لن تحل شيئًا... أنت تعلم أنهم يفوقوننا قوة وعددًا... فلنحقن الدماء ونقلل من شروطنا حتى يوافقوا عليها.

- لن يوافقوا حتى لو قلصنا حجم المطالب لاعتقادهم بأننا بدأنا في التفكك والانهيار المعنوي وسيتركوننا لنقلص حجمها مرة أخرى وهكذا حتى.... .

أنهى كلامه صوت أبواق سيارات الشرطة التي ظهرت من العدم فجأة وتوقفت بصرير حاد على بعد عدة أمتار من المبنى.

أسرع الرجال وتجمعوا وتمترسوا خلف الحواجز والعوارض المنصوبة أمام المبنى وهم يرفعون لافتات الاعتصام والمطالبة بالحقوق.

سمعوا صوتًا جهوريًا يأتي من ناحية سيارات الشرطة التي خرج منها رجالها وتمترسوا خلفها:

- سوف نطلق النار كل خمس دقائق حتى تقرروا الاستسلام.

- لن نستسلم أبدًا.

صاح بها «طه العامل» وأخرج باقي الرجال أسلحتهم وبدأت أول موجة من إطلاق النار المتبادل.

سقط على الفور رجلان من رجال الشرطة صرعى برصاص الاعتصام فصرخ طه بانتشاء قوي فقال له صديقه الذي اتخذ موقعه بجانبه وأخذ يطلق الرصاص مثله:

- متى تنتهي هذه المهزلة ياصديقي؟.

صاح طه وقد تشبع بروح الدم:

- عندما نقتلهم جميعًا ونأخذ حقوقنا ياصديقي.

مضت فترة ولم يسمع رد صديقه فالتفت إليه ليجده ملطخًا بدمائه راقدًا على ظهره وقد تركت روحه جسده.

صرخ طه برعب شديد وانحنى على صديقه تاركًا سلاحه يسقط من يده قائلًا بصوت جزع:

- لاااااا... لا ياصديقي لا تمت... لا تتركني ولم نُنْهِ نضالنا بعد... لم نربح القضية بعد.. لا تمت هكذا.. أرجوك.

أخذ ينتحب بقوة على صدر جثة صديقه وجسده يهتز بشدة.

«اللعنة عليك لا تمت».

«اللعنة عليكم جميعًا».

توقف عن البكاء فجأة مع توقف إطلاق النيران في نفس اللحظة كأنهما على اتفاق.

نهـض «طه العامـل» من مكانه ومسـح عن يـده دم صديقـه وأراد أن يخطب في جمهور المعتصمين.

نظـر حوله فلم يجد كرسـيًا أو علـوًّا يرتقي به فـوق رؤوس من حوله فمد رجله ووقف فوق جثة صديقه!!.

بدأ يتكلم صائحًا في من حوله:

- أهلي وأصدقائي... انظروا إلى مدى الظلم الذي يحيط بنا ويحاصرنا ويخنقنـا... كل مـا طلبناه هو بعض من حقوقنا البسـيطة المنهوبة... وقد كان هذا هو ردهم علينا... هذا هو عدلهم... مزيد من الظلم لنا... انظروا هنا.. لقد قتلوا صديقكم.

قالها وهو يشير بيده تحت قدميه!. واستأنف قائلًا:

- قتلـوا صديقكـم الـذي كان يحلـم معكم باليـوم الـذي نحظى فيه بحقوقنا كاملة بلا نقصان... يحلم باليوم الذي نكسـب فيه احترامنا حتى لو اسـتمر هذا الاعتصام إلى آخر يوم في عمره... وها قد مات صديقكم دفاعًا عن القضية... قتلوه هؤلاء الخونة هناك... ارقد بسلام أيها الشهيد.. فلسوف ننتقم لك....... هل ستنتقمون له؟!

ارتفع صوتهم جهورًا:

- أجل.

- هل ستقاتلون من أجل قضيته؟.

- أجل.

- هل ستكرمونه في مماته وتحصلون على حقوقنا كاملة؟

- أجل.

- فلننتقم من هؤلاء القتلة.

ارتفعت صيحات التشجيع والحماس من كل جانب ورفع الناس أسلحتهم في الهواء وقد نفخت الحماسة في أرواحهم شجاعة مضاعفة.

«سننتقم لك ياشهيد».

تمترسوا خلف الحواجز مرة أخرى.

«سنقتل كل الخونة».

جهزوا أسلحتهم للإطلاق.

«سنحصل على حقوقنا».

وبدأ إطلاق الرصاص.. واستمرت المذبحة.

أجل...

سننتقم لك... ياشهيد!!.

* * *

«في أرض العبيد.... . أنت رقم».

وليد الصحفي

* * *

ضباب الماضي

أما من نهاية لهذا العذاب؟.

أما من حد لهذا الخضوع المذل؟.

مـا الذي تبقى لي كي أخسـره في هـذه الدنيا... حتـى كرامتي فقدتها عندما وافقت على شروطهم اللعينة.

لماذا تبقيني في هذه الدنيا ياربي؟..

أمـا حانت سـاعتي بعـد... أم مازال فـي الدنيا من أذى لـم يلحق بي ومهانة لم تنل مني فأبقيتني انتظارًا لقدومها...

كانـت دوامـات الخواطر تدور أمـام عيني «ياسـر الكاتب» في كوب الشـاي الذي وقف يعده في مطبخ منزلـه الصغير... رفع الكوب إلى فمه وارتشف منه القليل متلذذًا بالمذاق.

حمـل الكـوب بيد وباليد الأخرى حمل كتابًا عـن تاريخ دولة نوصير كان يقرأه وخرج من المطبخ بخطوات وئيدة متزنة.

طرقات مفاجئة على باب الشـقة أربكته وأخلت بتوازن يده فلسـعتها قطرات الشاي الساخنة التي هربت من الكوب.

وضع الكوب جانبًا بسرعة وهو يلعن أطفال الجيران المشاغبين الذين لا يكتفون من متعة تعذيبه وأهلهم الحمقى الذين يرفضون الإصغاء إلى شكواه تطبيقًا لقاعدة «ابني يعمل اللي هوَّ عايزه ومحدش يكلمه».

ازدادت قوة الطرقات وصاحبها رنين لجرس الباب الذي لا تطوله أيدي الصغار فأدرك أنها ليست فقرة في برنامج تعذيبه فلعنهم مرة أخرى لأنهم جعلوه يتجاهل الطارق كل تلك المدة.

أسرع يفتح الباب للطارق نافد الصبر ووقف مشدومًا أمام ذلك الجندي الحانق الذي ناوله طردًا متوسط الحجم وهو يغمغم بجملة واحدة

«لا تنس الاتفاق».

ثم استدار منصرفًا دون أن يضيف حرفًا آخر وبلا انتظار لأي رد فعل من قبل ياسر المتعجب!.

هكذا.... «لا تنس الاتفاق» ثم لا شيء بعدها... هل قاموا بتلقينك إياها أيها الأحمق!.

ثم صفع الباب غاضبًا.

عاد متلهفًا إلى كوب الشاي وشرب منه بنهم محاولًا تهدئة أعصابه الثائرة.

الآن هو على أعتاب مجد جديد وينبغي عليه أن يتسلح ببرود الأعصاب والمزاج الرائق لكي يستطيع تحقيق ذلك الإنجاز.

وكعادته قبل كل كتاب يكتبه ينسى أنه قد كتب الكثير قبلها ويعود إلى لحظاته الأولى في عالم الكتابة... خوفه الأول... إحباط ثم إحباط آخر... تشجيعه لنفسه... إخفاق... خمول... ثم.. عمل جديد يخرج إلى النور ينسيه كل تعبه ويمحو إرهاقه ويمسح عنه عرق الجهد المبذول ويستبدله بألق الفخر.

لكم يحب تلك اللحظة التي يكتب فيها آخر كلمة في الكتاب.

أفرغ نفسه من خواطره وتنفس بعمق قبل أن يلاحظ أنه كان قد فتح الباب للجندي مرتديًا فانلته الداخلية البيضاء المترهلة وبنطال «بيجامته» الواسع المهترىء وهو زيه المفضل في المنزل لما يوفره من راحة تامة واسترخاء لأعضاء الجسد.

ابتسم هازئًا كعادته في مواجهة كل ما يحرجه.... . لا يهم.

دخل غرفة المكتب وجال بعينيه فيها متكدرًا من الفوضى والغبار الذي يغطي الأرضية وسطح المكتب نفسه.

اتجه بعينيه إلى مكتبته الضخمة حيث ترقد ثروته الفكرية وتوقف بنظره عند منتصف المكتبة تمامًا... عند ذلك الرف العملاق المكدس بمؤلفاته على مر السنين.

وقف برهة يتأمل المشهد مستمتعًا... في كل بيت في كل دولة يوجد على الأقل شخص واحد يقرأ له... يطلع على عرقه الفكري ونزيف روحه من الكلمات.

أبعد عينيه بصعوبة عن ذلك الرف واتجه بخطى متحمسة نحو مكتبه قائلًا:

- حان وقت إضافة طفل جديد إليكم ياصغاري.

جلس على المقعد المريح المقابل لمكتبه وفض الطرد بلهفة متزايدة.. أمسك بأول ملف قابله.. كان مكتوبًا عليه بالخط العريض:

«تحقيقات وتقارير أمنية».

ألقى به جانبًا في إهمال وأخرج الكنز الذي كان يسعى إليه جاهدًا.

ملف صغير لا يتجاوز عدد صفحاته المائة وخمسين صفحة ومكتوب على الغلاف الخارجي له بخط سيء للغاية جملة.

«كيف ولماذا كانت الانتفاضة».

ثم تحتها بمسافة كبيرة كان توقيع الفتى الصغير «وليد الصحفي».

مسح الغبار المتراكم على المكتب بيده ثم نفض يده من الأتربة بمسحها في بنطاله ووضع الملف على المكتب برفق.

«بين يدي الآن تقارير مفصلة عما حدث في دولة نوصير أو أرض العبيد سابقًا ... تقارير لم يحلم أحد في دولة حيارى كلها بامتلاكها».

نظر إلى الإطار الصغير الأنيق الموضوع على سطح المكتب والذي تستقر بداخله صورة زوجته وهمس بصوت حنون:

- تمني لي التوفيق ياحبيبتي.

فتح الملف الراقد أمامه ونظر فيه لدقائق قبل أن يدرك أنه لا يرى حرفًا واحدًا من خلال غشاوة الدموع التي غطت عينيه.

رفع رأسه عن الملف ونظر مرة أخرى إلى صورة زوجته وتحولت الغشاوة إلى قطرات تجمعت عند أركان عينيه لتنساب بهدوء على خديه.

مد يده وأمسك بالإطار الذي يضم الصورة... مسح عن زجاجه ذرات الغبار التي كان نادرًا ما يجعلها تتجمع على صورة زوجته.. ثم قرب الإطار من فمه وقبّل الصورة قبلة أودع فيها ما استطاع إيداعه مما يعتمل في نفسه من أسى وما يسحق مشاعره من حزن ويزيد عمق الصدع الذي يلتهم نصف روحه.

«رحلتِ قبل أوانك ياعزيزتي.. لكم أفتقدك.. كنت قبل وجودك في حياتي أستهزىء بالحب وأسخر ممن يسلمون له مقاليدهم... ثم جئتِ أنتِ لتلقي بنظرياتي من نافذة الطابق العاشر حيث نسكن... جئتِ أنتِ لتثبتي لي أن الإنسان مالم يحب فقد معنى وجوده وهلكت روحه.

يشرد ياسر بخواطره بعيدًا عن أرض الواقع.. يغرق في بحر الذكريات.

يتذكر بداياته في عالم الكتابة... حين كان يتخذ من الرقة والدعة درعًا يحاول به إعاقة القارىء عن انتقاده... يحاول إشعاره بالذنب مسبقًا إن فكر في إحباطه أو تفتيت مجهوده.

ثـم كانـت هي من علمتـه كيف يثق بنفسـه... علمتـه أن تلك الدروع زائفة وأن الانتقاد ضريبة المجاهرة بالرأي... علمته ألا يخاف.

جرفتـه في تيار حبها بآرائها السـديدة وعقليتهـا الراجحة التي لطالما احترمها... ثم كان ما حدث.

أخذوها منه هؤلاء الملاعين....

عنـد تلك النقطـة بدأ يشـعر باقتراب مد غضبـه فوضع الإطـار جانبًا وتنفس بعمق ليسيطر على نفسه.

«حسبي الله ونعم الوكيل... أستغفر الله العظيم».

قالها محاولًا استعادة هدوئه النفسي...

.. حاول أن يمسك بخيط الذكريات السعيدة مجددًا ففشل....

تنهد يائسًا ومسح عينيه...

فتح الملف مرة أخرى...

... وبدأ في القراءة..

* * *

- أريد أن أترك أكبر إرث أدبي ممكن قبل أن أموت.

تضحك من تفكيره وتقول:

- الأدباء لا يموتون ياحبيبي... الأدباء أساطير.. والأساطير لا تموت.

يبتسم ويعانق دفئها قائلًا:

- وماذا عن أحبائهم؟.

تقفز عليه وتقبّله قائلة:

- أحباؤهم يعيشون بداخلهم... لذا فهم خالدون بطريقة أو أخرى.

* * *

أرض العبيد

تأليف

ياسر الكاتب

مقدمة المؤلف

أرض العبيد.....

.... ذلك الكيان الغامض القريب البعيد.

الاسم الرسمي له هو «دولة نوصير» وهي تعد إحدى أقدم الدول على الإطلاق وأشهرها ومنها انتشرت فكرة العبودية لتغطي على كل ما يجاورها فشرعوا في تقليدها بطرق نادرًا ما طرأ عليها تغيير أو تسرب إليها فكر جديد.

كنت قد انتهيت من قراءة مقدمة وبضع ورقات من ملف يحتوي كافة التفاصيل عن التغيرات التي عصفت بأرض العبيد في الآونة الأخيرة... قررت أن أنام ثم أشرع في كتابة هذا الكتاب في اليوم التالي..

.... لكني لم أستطع.

جرفتني حماسة الكتابة ونبتت أفكارها برأسي بسرعة مفاجئة حرمت عليّ إغلاق جفني رغم إرهاقي الشديد.

لا أدري لم تقفز الأفكار الجديدة إلى ذهني فجأة عندما أشرع في النوم... فكأنها تتعمد بسادية شريرة أن تخرجني من دفء فراشي الحنون

وتجرني جرًا إلى مكتبي وقلمي وأوراقي حتى أبدأ بتدوينها فترضى وتستكين... فكأنها طفلة صغيرة عابثة تسحب والدها المحب من يده ليجوب الشوارع في منتصف ليل الشتاء ليشتري لها بعض المثلجات!.

... تلك هي لعنة الكتابة... فمنذ أن أصابتني منذ زمن بعيد وأنا لم أعرف للنوم المريح طريقًا وللعقل الهادىء وصفة ناجحة.

عند انتهائي من قراءة مقدمة تلك المذكرات وإدراكي جزءا من الحقيقة كنت كمن أصابه برق يوم عاصف أودى بعقله وشحن خلايا مخه بالذهول المطبق... والخوف!.

شلتني كمية المفاجآت التي طالعتها في تلك الأوراق وسمرتني مكاني محدقًا بعيون نهمة متسعة في الأوراق مرتاعًا وغير مصدق.

.... أيعقل كل ذلك؟!.

.. ولم لا؟!.

* * *

أرض العبيد....

فـي البدء كانت الفكرة المشـئومة التي طرأت علـى ذهن رئيس دولة نوصير فقام على إثرها بالاتصال بكافة رؤسـاء الـدول المجاورة وطلب الاجتماع بهم فورًا.

- الوضع عندنا متأزم.

قالهـا كمسـتهل لحديثه بمجـرد دخوله من باب قاعـة المؤتمرات... رفع قبعته الفخمة وألقاها لأحد أتباعه ثم قام بتمشيط شعره الأسدي بيده بينما يرمق باقي الرؤساء بعينيه المرعبتين.

مازالـوا بعد كل تلك السـنوات التي تولوا فيها رئاسـة بلادهم يهابون رئيس دولة نوصير.

ربما لأنه أقدمهم وأكبرهم سنًّا.. وربما بسبب وجهه!!.

نظروا إليه باحترام منتظرين استكماله لحديثه.

اتخذ مكانه عند رأس القاعة... جلس ووضع يده على رأسه وأغمض عينيه برهة كمن أصابه صداع مفاجيء.

- العيـال الصغيريـن عندنا عاملين مشـاكل... يشـتكون مـن البطالة والفقر مطالبين بحقوقهم المزعومة والمعيشـة الملائمة وكل هذا الكلام

الفارغ الذي تعبت من محاولة شرح أسبابه لهم... كبرت ولم يعد صبري يساعدني على تقبل سخافاتهم.

انتشرت همهمات متباعدة قاطعت كلام رئيس دولة نوصير الذي نظر حوله في ضيق قبل أن يشير إلى أحد رجاله فاقترب مسرعًا ومال واضعًا أذنه في مستوى وجه رئيسه الذي همس قائلا:

- ما هذا... ألم آمركم أن يتم تجهيز جدران القاعة كلها من الزجاج... أنا أتعب في الأماكن المغلقة... لماذا لم تنفذوا ما أمرت به؟.

تنحنح الرجل حرجًا قبل أن يقول بصوت خافت:

- نأسف لهذا سيدي الرئيس... ولكن الدواعي الأمنية وحدها هي ما منعتنا من تنفيذ أوامر سيادتك.... حيث أن هذه القاعة تستمد أمانها من سرية مكانها ووضع زجاج مكشوف قد يكون فيه ما يعرض سلامة معاليك للخطر.

تأفف الرئيس بضيق واضح وأشار له بالانصراف ثم التفت مرة أخرى إلى باقي الرؤساء قائلًا بصوت عالٍ قطع الهمهمات كلها:

- لذلك.... لذلك فكرت في الموضوع قليلًا حتى استقر بذهني الحل العبقري... كل ما نحتاجه هو بعض التحكم والسيطرة وقليل من التفرقة والتعدد الطائفي والطبقي... الآن هناك طائفتان فقط... طائفة الوحوش ويمثلها أنا وكبار رجال الدولة والوزراء وأصحاب الصناعات.. وطائفة العامة ويمثلها ما بقي من الشعب... أما ما فكرت به...

قالها واتسعت ابتسامته وهو يقول:

- أخبروني أيها السادة المحترمون... ماذا تعلمون عن العبودية؟

لـم يتحـر أحدهـم جوابًـا وتوجسـوا شـرًا فقال مشـجعًا إياهـم على الكلام:

- كان هذا سؤالًا مني أيها الأفاضل؟.

انبرى رئيس دولة حيارى قائلًا:

- هل تقصد نظام الاسـتعباد القديم... كأن يتم أسـر الرجال والنساء والأطفـال وتهجيرهـم مـن بلدهم إلـى بلد آخـر يعاملون فيـه كالبضائع ويصبح فلان عبدًا لسيده وفلانة أمة لمالكها؟!.

ضحك رئيس دولة نوصير فجأة ثم قال:

- أجل... هذا تمامًا ما عنيته.

سـاد الصمت بين الرؤسـاء فجأة كأن على رؤوسـهم الطير.. لم يكن صمتًـا عاديًـا... كان صمـت المذهـول... صمـت مـن ارتبكـت أفكاره وتبعثرت فلم يعد يدري ماذا يقول أو بم يجيب.

- مـا هـذا الذي تقوله يارجـل... هل هذا ما جمعتنا مـن أجله... هل جننت؟.

قالهـا غاضبًا رئيس دولة دُرَر وهو ينتفض من مكانه وقد احمر بشـدة وجهه الممتلىء وارتج بطنه العملاق مع حركته المفاجئة.

- اجلس مكانك واسمع للآخر.

قالها رئيس دولة نوصير مكشرًا عن أنيابه بحدة مخيفة جعلت الآخر ينكمش مكانه ويجلس مبهوتًا.

تنحنح رئيس دولة نوصير محاولًا استعادة هدوئه النفسي ثم قال:

- يبدو أن حضراتكم لم تستوعبوا كلامي جيدًا ومن المؤكد أن منكم من شك في سلامة قواي العقلية... حسنًا.. قواي العقلية بخير وأفضل من أفضلكم... ما عنيته بكلامي أيها السادة... هو نظام الاستعباد فعلًا.. ولكن ليس النظام القديم... بل هو نظام آخر مختلف إلى حد ما....

أشار لأحد رجاله فاقترب حاملًا بين يديه دفترا صغيرا كتب على غلافه الخارجي «نظام العبيد».

أمسك رئيس دولة نوصير بالدفتر وألقاه أمام باقي الرؤساء قائلًا بنهاية درامية:

- نظام استعباد الشعب.

- وهل سيقبل الشعب بهذا؟!

- أجل... شعوبنا مسالمة وتعلم كيف تواكب الظلم وأنتم خير من يعلم هذا... كل ما يجب فعله هو إشعارهم باليأس المطلق... تضييق الخناق عليهم حتى تكره جلودهم أنفاسهم... ثم نخرج فجأة بالحل العبقري الذي سيحل كل قضايا البلد ومشاكله فيقبلون به مهللين... قد نواجه بعض المشاكل في البداية ولكن بمرور جيل واثنين سيصبح قانون

العبيد هو القانـون الأوحد الذي لم يعرفوا له بديلًا والحياة الوحيدة التي يمكن لهم العيش في إطارها.

- ولمن سيكونون عبيدًا ياترى؟!.

قالهـا رئيس دولـة دُرَر بصوته الجهوري، فقطب رئيـس دولة نوصير حاجبيه متعجبًا ومتضايقًا من غباء الآخر وأسئلته السخيفة ثم قال:

- سـيكونون عبيدًا لأنظمتنا وبلادنا.. والأرض لن تموت كما يموت البشـر... ولا توجـد روادع دينية تعوقنـا عن تنفيذ هذا المشـروع المثمر الذي سيخمد كل الأصوات الثائرة ويطفىء نيران الغضب وينشر السلام في بلادنا إلى الأبد..... .

.... والآن... هـلا نعرف خطـوات وقوانين هذا النظـام بالضبط أيها السادة.

قالها وهو يمد يده ويفتح الدفتر الموضوع أمامه...

... ويشرح.

كانت هذه بداية نظام العبيد منذ عدة عقود مضت والذي ظل مستمرًا حتى... حتى حدث ما حدث.

هكـذا اجتمع رئيس دولـة نوصير بأترابه وهكذا تحـدث معهم (ربما كان ترتيب المحادثة من نسـج خيالي)... كل ما نعرفه هو أنه وفي صباح يـوم مـن الأيام التي تلـت ذلك الاجتمـاع أذن مؤذن بأنه يجـب على كل الشـباب العاطل عن العمـل التوجه إلـى إدارة الأحوال المدنيـة فورًا...

فذهبوا ثم عادوا فاقدي الأسماء والهوية... عادوا ضائعين... تائهين في غابة من الأرقام ومحاولات لفهم ما يعنيه رئيسهم المخبول...

.. هكذا كانت البداية..... وهكذا نشأت...

.... أرض العبيد.

* * *

كان الحارس الجديد ضمن مجموعة حراس المنطقة الأولى من الحدود الشرقية لدولة الأمانة للعربية «محمد الحارس» يجلس مفترشًا الأرض بتكاسل رهيب يداعب هواء الليل عيونه المرهقة ليجعل رغبته في النوم تتضاعف عشر مرات.

أسند رأسه على صدره وأغمض عينيه للحظات قبل أن ينتبه بفزع ويهب واقفًا محاولًا صرف شبح النوم من أمامه.

كان مرهقًا بشدة مما ضاعف من حنقه على رئيسه الذي أمر بنزوله إلى عمله بعد ثلاثة أيام فقط من زواجه فأخذ يسبّه في سره.

تململ في وقفته وحرك قدميه لينشطهما ثم قرر القيام بجولة في المنطقة لطرد النعاس من جهة واختصارًا للوقت الذي يمضي ببطء شديد من جهة أخرى.

كان يكره الحراسة الليلية... لطالما كره الليل في هذا المكان المفتوح... حيث يرى الأحجار من على بعد كأنها جيش من الضواري تسعى لنيل قضمة من جسده ويشعر بقمم الجبال تحاصره وتنظر إليه نظرة وعيد مخيف لأنه جرؤ على إقلاق راحتها.

يرى في انعكاس ضوء القمر على الرمال مئات من الأرواح الغاضبة الباحثة عن جسد تسكنه... كان يؤمن بالأرواح التائهة عن أجسادها... فلطالما حدثه أبوه عنها... تلك الأرواح التي خرجت غصبًا من أجسادها غير راضية لذا فهي تبحث باستمرار عن جسد شارد لتسكنه.. قد تكون روحا طيبة فتجاورك السكن بجسدك أو قد تكون قاسية ومتملكة فتطرد روحك وتسلب جسدك... يخبره أبوه بكل هذا ثم يعزز قصته بإخباره عن جارهم القديم «عبد الصمد الفلاح» الذي أغرق نفسه في النهر بأمر من الأرواح لكي يطرد روحه ويسلم جسده سليمًا للأرواح... ثم عاد جسد عبدالصمد بعد ذلك وقد احتلته روح قذرة كانت لراقصة قتلها الفلاحون في السابق.

- وأين هو الآن يا أبي؟.

- اختفى ياولدي.

دائمًا كان يقول اختفى ودائمًا كان يصدقه ثم فكر بعد أن كبر قليلًا أنه من الأرجح أن الأهالي قد قتلوا ذلك الجسد ومثلوا به ثم أعادوه إلى المكان الذي ينتمي إليه... قاع النهر.

تنهد محمد بصوت مسموع فبدد الهواء المتسارع صوت التنهيدة:

- لكم أفتقدك يا أبي.

يقولها متحسرًا ومتأثرًا بذكرى وفاة أبيه التي لم يمض عليها شهران بعد.

يترحم عليه وهو يذكّر نفسه أنه لولا وفاته هذه ما تمكن هو من الزواج طبقًا لهذا القانون الحقير الذي يمنع الزواج مالم ينقص أحد أفراد عائلة الزوج وطبعًا كلمة ينقص هي مجرد استبدال لكلمة «يموت»..... حجتهم في ذلك هي المحافظة على الكثافة السكانية ومنع الانفجار السكاني الذي سيؤدي إلى انهيار الاقتصاد لأنك عندما تتزوج ستنجب أفرادًا جددا أي مستهلكين جددا!!.

يترحم عليه أكثر ويشكر له وفاته!.... ويفخر بنفسه وقد انتظر قضاء أربعين يومًا كاملًا بعد وفاته قبل أن يتم زواجه...

يحاول أن يطرد الحزن وذكرى أبيه من ذهنه... يركل حجرًا على الأرض ويأخذ نفسًا عميقًا وزوجته ترد على باله... يمني نفسه بليلة صاخبة كسابقاتها الثلاث مع زوجته اللذيذة التي لم ينله منها الاكتفاء بعد.. مازالت نيران اللهفة تلتهمه... إنه حتى لم يحفظ تضاريس جسدها وانحناءاته والتواءاته بعد... لم يقبّل كل جزء من ذلك الجسد بعد... ثم يأتي رئيسه الوغد ليأمر بنزوله إلى العمل... وفي دورية ليلية أيضًا؟!... لكأنه ينتقم منه لأنه فكر في الزواج!.

لا يهم... فليذهب إلى الجحيم.... سيعود صباحًا متعجلًا ويوقظ زوجته ليتم بشفتيه وبكامل جسده ما بدأه عقله.. أجل.. لن يدع رئيسه يحبطه.

يتوقف مكانه مدركًا أنه قد ابتعد كثيرًا عن منطقة حراسته فيقرر العودة... يدير عينيه في الفضاء حوله... ثم فجأة يرتد إلى الخلف

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مفزوعًا... تتسع عيناه ويقشعر بدنه وتصطك عظامه من برودة مفاجئة اجتاحته ويرفع سلاحه بذراع مرتجف صارخًا بصوت قتله الخوف:

- مكانك... لا تتحرك.

كان لا يزال يكذب عينيه اللتين تقسمان على وجود جسد منتصب على بعد مائة متر تقريبًا... شبح متشح بالظلال والسواد... يكاد يندمج مع الهواء المحيط ويصير جزءا منه لولا بقايا ضوء القمر الباهت التي تؤكد وجوده المادي.

لم يتحرك الجسد من مكانه ولم تبد عليه أدنى بادرة على سماع صرخة محمد المذهول.

لم يكن ذهول محمد بلا سبب... فطوال فترة عمله في هذا المكان لم يصادف أي وجود بشري في هذا المكان.. ومن المجنون الذي يفكر بإلقاء نفسه في جحيم القفر هذا وسط الجفاف والضواري الجائعة؟!.

يقترب محمد منه أكثر وهو يصرخ مرة أخرى بصوت أكثر قوة:

- لا تتحرك وإلا أطلقت النار... عرف عن نفسك.

لم يتحرك.. ولم يرد.

- من أنت؟!

.... لا إجابة.

يقترب منه أكثر ويسلط عليه كشافه اليدوي...

يسقط الضوء على جسد الرجل ليؤكد وجوده المادي ويلغي هواجس الأرواح لدى محمد لكنه بدلًا من أن يطمئن قليلًا ويستمد بعض الشجاعة ازداد هلعه وتوترت قبضته الممسكة بالسلاح المصوب إلى رجل جامد مكانه غير مبالٍ!.

فكأنه تمثال صيغ من شمع وصب داخل جلباب رمادي حقير ممزق في عدة مواضع... جلباب قذر تفوح رائحته العطنة وتحوم حول أنف محمد الذي يقف مرتجفًا على بعد عدة أمتار... جلباب رمادي قذر تعلوه خرقة صوفية حال لونها تحيط بعنق الرجل.

- من أنت؟!.

قالها محمد بصوت ضعيف هذه المرة وهو يسلط كشافه على وجه الرجل لتتضح ملامحه فيرتجف محمد الحارس رعبًا.

عينان مجنونتان يقترب بؤبؤاهما من بعضهما ويرتفعان إلى أعلي في نظرة أقرب إلى البلاهة... نظرة شخص منفصل عن الكون بأكمله ومتوحد معه... شارب أشعث متهدل على فم مرسومة عليه ابتسامة لا معنى لها... ذقن منتوف شعرها نتفًا ليترك جروحًا وحفرًا غائرة تجاورت مع مناطق أخرى بها شعر غير مهذب.

كان محمد قد نالته الكفاية من تجاهل هذا الشخص له فرفع سلاحه وأطلق رصاصة في الهواء... انتفض الرجل وحدق ناحية مصدر الصوت مما جعل محمد الحارس يتراجع إلى الخلف خطوتين بذعر مضاعف.

حدق الرجل فيه بعينيه المجنونتين ثم رفع إحدى يديه ووضعها فوق رأسه وأخذ بالأخرى يربت عليها بانتظام كمن يلطم ثم بدأت الدموع تنحدر من عينيه ببطء... ثم فجأة.. خرجت منه صرخة مرعبة....

صرخة اشتملت على كل الآلام والمعاناة في العالم... صرخة خرجت من روح الرجل مباشرة وخرج معها جحيم من الذعر أحرق أعصاب محمد وجعله يهرول ويستنجد كمن تلاحقه العفاريت... أخذ يجري مهملًا واجبه كحارس للحدود وهرع إلى مكتب رئيسه الذي يقبع على بعد حوالي الكيلومتر من مكان حراسته... واقتحم الغرفة دون استئذان مما جعل الرجل ينتفض من مقعده صارخًا بذهول من لم يستوعب الموقف بعد:

- أجننت أيها الأحمق.

ثم توجه بالكلام إلى ضيفته الجالسة على المقعد المقابل لمكتبه والتي شحب لونها مع اقتحام محمد للغرفة بهذه الهمجية:

- متأسف جدًا يا آنسة.

ثم توجه بكلامه إلى محمد قائلًا:

- ألم يعلموك الاستئذان قبل الدخول يا حيوان.

- الحقني يا باشا.

قالها محمد بصوت مذعور هدأ من غضب رئيسه وأحل محله علامات استفهام وتعجب جعلته يقول:

- ماذا حدث؟!.

- رجل مجنون... بالخارج... خارج الحدود... رجل مجنون ممسوس وملبوس... أرواح يا باشا.

تضاعفت الدهشة على وجه رئيسه وهو يردد:

- ماذا؟!.

استعاد محمد أنفاسه المخطوفة وأخذ يحاول استعادة رباطة جأشه وهدأ نفسه المذعورة قليلًا ثم قال:

- هناك رجل مجنون في منطقة حراستي يا افندم... جلبابه ممزق ووجهه مرعب ولا أدري كيف أتصرف معه... أعتقد أن الأرواح تلبسته يا افندم.

حدق رئيسه فيه لثوانٍ قبل أن ينفجر في الضحك بطريقة أدهشت محمد ورسمت البسمة على وجه ضيفته التي ظلت تراقب المشهد بصمت أقرب إلى الاستمتاع.

جلس الرجل مكانه واستعاد هيئته وهو يقول لمحمد:

- أنت تقصد الرجل المخبول... نسيت أنك جديد في هذه المهنة.. أنت لا تعرفه بالتأكيد.

ثم نظر إلى ضيفته التي بدا على وجهها الاهتمام وقال:

- هذا الرجل المخبول شيء يقترب من الأسطورة من كثرة ما سمعت عنه من حراس تلك البقعة.... هو رجل يظهر مرة كل فترة قد تكون عامًا

أو عـدة أعوام... بنفس الهيئة المشـعثة ونفس الجنـون... يظهر في نفس البقعـة كل مـرة... ويظـل بها لعدة أيام قد تصل إلى شـهر كامـل.. يتأمل في السـماء ويثبت عينيه علـى البلاد الرابضة أمام عينيـه ويتمتم بكلمات لا يفهمها أحد ... لا أحد يعرف قصته بالضبط لكن وجوده يشـكل نوعا من التسلية للرجال.

بدا على الضيفة الاندهاش وزاد اهتمامها وهي تقول:

- حقًا؟!.

بدا على الرجل الزهو بأنه اسـتطاع إبهارهـا وإثارة اهتمامها بما يقول ثم أردف:

- أجل... أفنيت من العمر في هذا المكان ما يكفي لمعرفة كل أسراره وأساطيره.

ثـم التفـت إلى محمد الذي ظـل مراقبًا للحديث وعلـى وجهه تعابير غامضة تجمع بين عدة انفعالات ثم قال:

- ارجـع إلى موقعك... لا توجـد أرواح تتلبس هذا الرجل... وكف عن خرافات الأرواح هذه... الرجل لا يشـكل خطرًا... تجاهله كما فعل كل من سبقك من الحراس أو إن كنت تملك الشجاعة الكافية.. اقتله.

اتسعت عينا محمد وتراجع خطوة للخلف وهو يردد بطريقة آلية:

- أقتله؟!.

ثم تدارك نفسه واستأذن في الانصراف معتذرًا عما صدر منه فصرفه رئيسه بحركة من يده وانتظر حتى خرج وأغلق خلفه باب المكتب ثم التفت إلى ضيفته قائلًا بمداهنة وغمزة من عينه اليسرى:

- شرفتينا.

ضحكت ضيفته ضحكة مائعة إثر حركته المفضوحة ثم قالت بدلال:

- معقول... مصطفى العقيد بنفسه يغازلني في مكتبه.

تنحنح بحرج ورجع بظهره إلى الوراء في مقعده وهو يقول:

- جمالك الباهر سيدتي أطلق لساني بلا تردد.

ثم ركز في عينيها وهو يقول:

- «سعاد المراسلة».... أعتقد أنكِ ستنالين نصيبًا كبيرًا من الشهرة مستقبلًا... نحن نشجع المواهب الشابة مثلك.

ثم غمز بعينه مرة أخرى فابتسمت سعاد قائلة:

- شكرًا يا افندم... والآن.. هلا بدأنا بتسجيل هذا الحوار التلفزيوني لأن الوقت تأخر جدًا!!.

عدّل من هندامه وارتدى هيئته الوقورة ورسم على وجهه ابتسامة حكيمة يتقنها كذلك الممثل السينمائي الذي يحبه ثم قال بهدوء:

- بالتأكيد... يمكنك استدعاء المصور.

- ممتاز!.

كل هذا كان يدور داخل مكتب «مصطفى العقيد» قائد حرس المنطقة الأولى من الحدود الشرقية... أما بالخارج فقد وقف «محمد الحارس» خائفًا متحيراً ومتفكرًا فيما يجب عليه فعله مع ذلك الرجل المخبول...

... هل يقتله؟!

.. وماذا فعل له كي يقتله... ثم أليست هذه روحا بشرية أيضًا... فلم يجب عليه أن يزهقها... ألأنه خائف؟!...

إذن... هل يتجاهله؟!...

ومن ذا الذي يضمن له ألا يعتدي عليه هذا المجنون أو يؤذيه بأي طريقة..

أيصادقه؟!

.. وكيف الطريق إلى مصادقة مثل هذا الرجل... كيف يتبادل معه الحديث أصلًا؟!...

ظل محمد واقفًا مكانه غارقًا في حيرته لعدة دقائق قبل أن يهز رأسه بشدة كأنما ينفض عنها كل تلك الخواطر ثم استقرت فكرة واحدة في قاع وعيه.. وهي أنه لن يقتل ذلك الرجل.

نظر إلى يده شاحبة اللون المرتجفة بشدة... وأدرك أن ما ناله من فزع هذه الليلة سيحرمه من حضن زوجته الدافيء وسيحبط كل ما كان

قد أعده في خياله من خطط لغزو قلاعها الساقطة!.... . وأعاد إلى ذهنه ذكرى أبيه وأشعل طرفًا من حزنه عليه وقد هاجت ذكرياته.

أخذ يلعن رئيسه والرجل المجنون.. بل وزوجته نفسها!.

ثم انصرف إلى عمله متكدرًا.

* * *

«في أرض العبيد... حتى أفراحنا القليلة.... تسكنها الأحزان».

وليد الصحفي

* * *

قانون العبيد – المادة الأولى:

«في إطار القضاء على البطالة وتحريك الأيدي المتوقفة واستهلاك طاقات الشباب والمساهمة في خلق إطار لحياة أفضل فإن كل من لا يجد عملًا يتوجب عليه التقدم إلى مؤسسة الأحوال المدنية ليجدوا له عملًا مؤقتًا يساهم من خلاله في خدمة هذا الوطن وهي غاية عظمى.. وسيتم إعطاؤه اسمًا ورقمًا مؤقتين يسهل من خلالهما التواصل معه... على أن يسلم هذا الاسم والرقم مرة أخرى إلى المؤسسة في حال توافر عمل أكثر ملائمة وربحًا».

ملحوظة: أصحاب الأعمال من حقهم الاحتفاظ بأسمائهم مع إلحاق أسمائهم باسم الوظيفة التي يقومون بها مع تقديم ما يثبت صحة الادعاء بالعمل.

ملحوظة: هذا القانون لا يسري على أصحاب المعاشات وكبار السن.

* * *

إن أصعب اللحظات في حياة المرء هي اللحظة التي يقرر فيها أن يحاسب نفسه... أن يتوقف مكانه قليلًا... وينظر إلى الخلف.... إلى ما

فعله في سنوات حياته كلها ونتاج تلك الأفعال.... إلى ما خلفته يداه من دمار... إلى ما حققه من طموحه السابق... إن كان له طموح سابق!.

كان «عبد 125» يمر بلحظة من أسوأ وأصعب تلك اللحظات.... كان يائسًا.. محطمًا تمامًا.. ينظر خلفه فلا يرى سوى الفشل.. كتلة هائلة من الفشل تلاحقه باستمرار.. ينظر أمامه فلا يرى إلا العوائق... عوائق متراصة كحواجز الطرق وتزداد أعدادها باستمرار كلما خطا خطوة إلى الأمام... أو حاول أن يخطو تلك الخطوة... وبين ما أمامه وما تركه خلفه يقف هو في المنتصف تائهًا في حاضر لا يفعل سوى أن يثبت أقدامه في الأرض ويقيده مكانه عاجزًا مشلول الجسد مختنق الصوت.

كان يجلس متكئًا على أحد الأعمدة الأثرية في المنطقة السياحية...

.. كان يعشق ذلك المكان... في كل مرة يأتي إليه يتملكه إحساس غريب برهبة التاريخ وقوة سحره الممتزج بانطلاق السماء والطبيعة المفتوحة على المكان.

كان يشعر في ذلك المكان بالقوة... يشعر أن له ظهرًا يستند عليه... له تاريخ... له ماضٍ يدعمه حتى وإن لم يكن ملكه وحده.

.. كانت أرجل الأهالي قد انقطعت عن المجيء إلى هذه البقاع السياحية وتركوها للأجانب والغرباء يعبثون بها كما يشاؤون.... لكنه أبى أن يفعل مثلهم... هذا تاريخه هو وليس تاريخ الأجانب... قوته هو وليست قوة الغرباء.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

كما أنها كانت مصدر رزق له أيضًا... فمع عبوديته التي استمرت سنوات طويلة بلا تغيير... قرر أن يصنع رزقه بنفسه.

يعرض المساعدة على الزوار بالتقاط صورة جماعية لهم أو حمل حقائبهم بينما يتفحصون الآثار... في معظم الأحيان كان الزوار يكتفون بكلمة شكر يعتقدون بها أنهم قد أوفوه حقه وأجره.. أو قد يفعلون مثلما فعلت تلك الفتاة حينما قبلته على خده وهي تسحب حقيبتها من يده... وانصرفت!.

يضطر وقتها آسفًا إلى الإلحاح عليهم بطلب النقود شارحًا حاجته إليها لتوفير قوت يومه... كان يكره تلك الأساليب التسولية القذرة وتؤنبه وتؤلمه كرامته كثيرًا... لكنه كان يريد لنفسه شيئًا من تحقيق الذات... يريد أن يشعر بأنه قادر على كسب مال... على توفير رزق.. رغم انعدام حاجته لذلك فأسرته من طائفة العبيد الوسطى وميسورة الحال لذا مازال والده ينفق عليه حتى الآن... على عكس «كريم العامل» صديقه من العبيد الدنيا الذي تبرأ أبوه من كافة مصروفاته.

كان متكئًا بظهره على أحد الأعمدة الأثرية غارقًا في شروده قبل أن ينتبه على صوت ذلك المرشد السياحي متحدثًا بالإنجليزية لمجموعة صغيرة من الأجانب تتبعه موضحًا لهم تاريخ المنطقة وتفسير ما نحت ونقش على الأعمدة.

كان المرشد السياحي يتحدث بصوت عالٍ رافعًا إصبعه مشيرًا به فخورًا بنفسه لكون كل تلك الرؤوس موجهة إليه هو... هو فقط... لتسمع وتفهم كل ما يقوله ويشرحه عما يحيط بهم من آثار حضارة فانية.

كان يتحدث مطمئنًا وملقيًا على أسماع الأجانب كل ما حفظه من كلمات قبل أن يفاجأ بمقاطعة وسؤال حاد من أحد أفراد المجموعة إذ قال:

- لماذا سميتم أرض العبيد.. لا أعتقد أن التسمية جاءت إليكم من هذه الحضارة العظيمة.

ارتبك المرشد السياحي قليلًا ثم قال بلهجة من يريد الانتهاء من الأمر:

- سمينا كذلك لأننا أول دولة تطبق نظام العبيد الذي ابتكره رئيسنا العظيم الراحل.

- وما هو نظام العبيد ذاك؟... هل هو شيء جيد؟!.

انطلق المرشد يتحدث بحماس من وجد فرصة للكلام:

- أجل بالطبع.... هذا نظام ممتاز... نظام اقترحه رئيسنا الراحل في اجتماع رؤساء الدول المتحدة السباعية منذ أكثر من خمسين عامًا والذي بفضل حكمته الرشيدة حل كثيرًا من مشاكل هذا البلد وكل البلدان المجاورة واستمر ابنه الرئيس الحالي الذي خلفه من بعده في العمل بهذا النظام... نظام قضى على فكر التمرد واقتلعه من جذوره.. وجعل الجميع يعيش في أمان واستقرار.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

كان المرشد السياحي يتحدث متلفتًا حوله بخوف منتقيًا كلماته بدقة خوفًا من أن تخرج منه كلمة زائدة تودي به إلى قاع الجحيم الأمني بينما كان ضيق «عبد 125» يزداد مع كل ترهة تخرج من فم هذا المرشد ثم ابتسم متهكمًا بغل قائلًا بصوت خفيض:

- صحيح.. يالـه من نظام رائع... النظام الذي ينزع منك كافة حقوقك.. النظام الذي بسببه قد تعمل بالسخرة وبلا مقابل لدى أي فرد أعلى منك مرتبة... النظام الذي أراح فئات على حساب أخرى.. النظام الذي بخل عليك حتى باسمك ونزعه منك.. وألبسك صفة العبد ملحقة برقم لتتوه وسط أمثالك من الأرقام... عبد.. إلى أن تجد لك عملًا.. أو تجد من يقبل أن يجد لك عملًا!.

لم يحتمل «عبد 125» أن يستمع إلى ترهات المرشد السياحي أكثر من ذلك فقام من مرقده ونفض بنطاله تاركًا أشعة الشمس تنعكس على صدره العاري ودرع العبيد النحاسي اللامع الكبير الذي يغطي رقبته وأعلى صدره ومحفور عليه الأرقام الثلاثة 125.

لم يكن وسيمًا ولكنه كان من هؤلاء الأشخاص الذين تحبهم بمجرد رؤيتهم لأنهم يبثون بداخلك شعورًا بالارتياح.. ملامح هادئة بعيون كسولة وابتسامة جميلة وساقان طويلتان... هذا كل ما كان مميزًا فيه.

توجه بخطى ثابتة نحو المرشد السياحي الذي كان لا يزال يتغنى بروعة النظام وحدجه بنظرة قوية جعلته يتوقف عن الحديث مندهشًا ثم يهرب بنظره منه ويتظاهر بعدم رؤيته.

استدار «عبد 125» وابتسم بسخرية لفوج الأجانب الذي انهمك في تدوين ما يقوله المرشد ثم انصرف من المكان وهو يضرب كفًا بكف.

* * *

المشهد كالتالي... محطة الوقود الواقعة على الكيلو (30) على الطريق السريع الواصل بين العاصمة ومدينة «نوفل» متعددة المصانع.

... زحام من السيارات متراصة على هيئة ثلاثة طوابير بالغة الطول أغلبها من سيارات الأجرة التي تعمل على هذا الطريق.

... الجميع بانتظار شاحنة الوقود التي تأخر وصولها لمشاكل متعددة في العاصمة... الحر الخانق والهواء الراكد والذباب يثير غضب السائقين أكثر فأكثر ويلهب أعصابهم فيصبوا لعناتهم على كل ما يمكن أن يصاب بلعنة...

تتجمع قطرات العرق على وجوههم وتشعلها بجحيم الاختناق المعزز بأشعة الشمس التي تسلق أبدانهم في مثل هذا الوقت من الظهيرة... أطفأ كل منهم محرك سيارته وارتكن مع مجموعة من السائقين على جانب الطريق يتناقشون في صعوبة المعيشة والأقساط المتأخرة ومصاريف الأولاد وحال البلد الذي لا يبشر بأي خير في المستقبل.

ثم أخيرًا... تظهر شاحنة الوقود العملاقة على مرمى البصر وتقترب بهدوئها التقليدي حتى تصل إلى المحطة فيفسحون لها الطريق ويزيلون الحواجز التي وضعت لتمنع السيارات المنتظرة من التراكم داخل

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

المحطة... ينزلق جسد الشاحنة العملاق داخل المحطة ثم تفرغ شحنتها وتخرج فيهتاج حماس السائقين ويقفزون داخل سياراتهم.. يديرون محركاتهم ويقتحمون المحطة بعشوائية مطلقة رغم جهود عمال المحطة المضنية لتنظيم الوضع.

وفي خضم هذه المعمعة يقف «كريم العامل» ممسكًا بمسدس الوقود مغذيًا خزان الوقود لسيارة تلو الأخرى.

كانت تلك من أسوأ ساعات العمل في اليوم وأكثرها إرهاقًا بالنسبة له حيث يتعين عليه ملئ خزانات الوقود لكل تلك السيارات المتراصة والتعامل مع غضب السائقين ووقاحتهم المتزايدة وفض المشادات بينهم.

كان يكره العمل في هذا المكان.. وظيفة حقيرة.. وسائقون غاضبون متعجلون دومًا.. ومدير المحطة المستغل الذي ينتهز الفرص للخصم من رواتبهم الضئيلة أساسًا.. والأسوأ من هذا كله هو أنه بعد انقضاء يوم العمل يتعين عليه الانتظار فترة طويلة قد تتعدى الساعة في انتظار سيارة يقبل سائقها بأن يصحبه إلى العاصمة كخدمة مجانية خصوصًا أنه يعرف معظم السائقين الذين يعملون على هذا الطريق من خلال عمله.

كان يكره العمل في هذا المكان.... ولكنه يكره العبودية أكثر... يكره أن يبدو خادمًا في عين كل من يراه... يكره هذا الدرع الحقير الذي يخنقه ويحدد هويته ويلغي كيانه ليصبح واحدًا من المجموع... لذلك لم يجد مفرًا من قبول هذه الوظيفة ليهرب من تلك الصفة... خصوصًا أن انتماءه

لطائفة العبيد الدنيا يجعل حصوله على وظيفة ملائمة صعبًا للغاية إن لم يكن مستحيلًا.

ينتبه من خواطره على أصوات عالية متداخلة صاحبها هرج في المكان... يلتفت متوقعًا السبب ليجد كالعادة اثنين من السائقين وقد أمسك كل منهما بتلابيب الآخر بينما يحاول عدد من السائقين نزعهما عن بعضهما.

يترك كريم مسدس الوقود من يده ويتجه بسرعة نحو المتنازعين... كان يعتمد على جسده العملاق وذراعيه المفتولين في فض أمثال هذه النزاعات... اخترق بجسده دائرة المحيطين ثم ألقى بذراعيه بين المتنازعين وأبعدهما عن بعضهما بقوته الهائلة.

نظر إلى أحدهما ثم قال وهو يضع جسده حائلًا بينهما حتى لا يعاودا القتال:

- ماذا حدث... لم كل هذا؟!

صرخ السائق قائلًا وهو يشير إلى الآخر متهمًا:

- أخذ مكاني في الصف... سبقني ويظن أني سأسكت له.. فاكرها بلطجة.

نظر كريم للسائق الآخر قائلًا:

- هل هذا صحيح؟.

لم يجد الآخر ما يقوله سوى أن يشيح بيده وهو يتمتم بعبارات حانقة بوجه محمر من الغضب.

تأكد كريم من صدق ما قاله السائق الأول فقال للآخر:

- حرك سيارتك لآخر الصف نظرًا لأنك فقدت مكانك بالفعل لمن كان وراءك... وذلك حتى تتعلم ألا تفرض قوتك على الآخرين.

أنهى كلامه ثم أولاهم ظهره العريض عائدًا إلى مكانه قبل أن يسمع السائق يقول بصوت مختنق من فرط الغضب:

- هذا الكلام تقوله لنفسك يا ابن الوسخة.

تجمد كريم مكانه ثم استدار ببطء ليواجه السائق مرة أخرى قائلًا وهو يجز على أسنانه:

- ماذا قلت للتو؟.

كرر السائق السبة فاحمر وجه كريم وقال محاولًا الحفاظ على هدوئه قدر المستطاع:

- هل تعلم أن المرأة التي تسبها ميتة؟.

كان غضب السائق قد خرج من عقاله وسيطر على عقله ولسانه فلم يأبه بما يقول وصرخ مستفحلًا في إهاناته:

- مؤكد ماتت وهي تزني مع ثلاثة رجال.

في مقياس درجات التحمل هناك دائمًا ذلك الخط الأحمر.... ذلك الخط يختلف موقعه في مقياس الدرجات من شخص لآخر... ذلك الخط يفصل بين حالتين مختلفتين ومتناقضتين للنفس البشرية.. يفصل بين العقل والجنون... بين الهدوء والغضب.. بين السكون والتمرد... بمجرد تخطي هذا الخط يتحول الإنسان إلى حيوان شرس لا مبالٍ بعواقب أفعاله.. حيوان كل ما تراه عيناه هو الانتقام.. والدم... حيوان لن يهدأ حتى يثأر لذاته المهانة.

كان مقياس درجات التحمل لدى كريم يقف على هذا الخط بالضبط... كل الإهانات والفقر والتعب والغضب المكبوت والنقمة على البلد ونظامها كانت تضغط عليه باستمرار تاركة إياه يبذل مجهودًا خارقًا ليبدو إنسانًا طبيعيًا... ولا مباليا... حتى جاءت تلك اللحظة التي أهان فيها ذلك السائق أمه المتوفاة... حيث قفز المقياس ليتخطى ذلك الخط ويصل به إلى أقصى درجات الجنون.

وبكل ما يعتمل في نفسه ويضغط عليها من كرب الحياة وضيق المعيشة والظلم وحزنه على أمه الراحلة.. صرخ كريم صرخة حيوانية مخيفة.. ثم انقض على السائق الذي لا تقارن قوته بقوة كريم الهائلة والمضاعفة بلهيب الجنون.

انقض عليه وأخذه أرضًا تاركًا لقبضتيه العملاقتين حرية التصرف في وجه السائق وجسده.

أخذت لكمات كريم تسقط بقوة على وجه الرجل الذي شعر بوجهه ينشق إلى نصفين بينما غامت الرؤيا أمام عينيه تمامًا.

أغرقت الدماء قبضة كريم ولم تجدِ نفعًا محاولات المحيطين لنزعه من فوق الرجل أو انتشال الرجل من تحت قبضته القوية بينما تطلق حنجرته صرخات متصلة كصرخات ذئب جريح.

«أوقفوا هذه المهزلة حالًا».

هكذا صاح مدير المحطة بصوت غاضب وهو يقتحم دائرة المحيطين بقميصه المتهدل وبنطاله الملوث ببقعة زيت واضحة...

أمسك بكتف كريم بقوة مستكملًا صياحه:

- هل جننت... اترك الرجل... ماذا تفعل؟!.

توقف كريم عن ضرب السائق لدى سماعه صرخات المدير وابتعد عن الرجل وهو يلهث بقوة وينظر بدهشة إلى يديه المغطاتين بالدماء وجسد السائق فاقد الوعي الهامد عند قدميه.

انكب مدير المحطة على السائق فاقد الوعي يتحسس وجهه ويضع يديه أمام أنفه ليتأكد من أنه على قيد الحياة بينما يصيح مذعورًا في كريم:

- أيها الأحمق.. ماذا فعلت... يالمصيبة.

ثم انتفض واقفًا صارخًا في العمال:

- اطلبوا سيارة الإسعاف بسرعة.

نظر بعدها إلى السائقين قائلا:

- ما الذي تتفرجون عليه... مشكلة وانتهت... كله يذهب إلى بيته..... لا وقود اليوم.

ظل السائقون متسمرين في أماكنهم مندهشين من التتابع السريع والغريب للأحداث ثم بدأوا في الانصراف واحدًا تلو الآخر وهم يرمقون كريم بنظرة غيظ وكراهية.

انتظر مدير المحطة حتى وصول سيارة الإسعاف وسلمهم الرجل وهو يروي ظروف الواقعة للمسعف الذي أومأ برأسه عدة مرات وهو يسجل تفاصيل ما حدث قبل أن يركب السيارة مع زميليه وتنطلق بهم جميعًا.

أخيرًا التفت مدير المحطة إلى كريم وكان قد تجاهل وجوده تمامًا حتى انتهاء الموقف.

كان كريم متخذًا ركنًا من الأحداث ناظرًا في الأرض مندهشًا من جنونه الأعمى الذي جعله يصر على إيذاء الرجل بكل هذه القسوة.

نظر كريم إلى المدير حينما شعر بحرارة نظرات غيظه على وجهه ووقف صامتًا منتظرًا العقاب والخصم.

أولاه مدير المحطة ظهره وهو يقول بصوت له مغزى:

- حصلني على المكتب.

***

في طريق عودته كان «عبد 125» يختصر المشوار إلى المنزل عن طريق المرور خلال الحديقة الدولية وهي حديقة ضخمة تقع قرب مركز العاصمة وتحتلها كميات كبيرة من الأشجار والنباتات المتنوعة التي تتناثر بينها مقاعد عدة....

كانت الحديقة في الماضي المكان المفضل للعديد من الأهالي حيث يصحبون عائلاتهم أيام العطل ليقضوا يومًا جميلًا ويتنفسوا هواءًا نقيًا بعيدًا عن مساكنهم المختنقة.

هذا كان قبل تلك الحادثة الشهيرة التي اعتدى فيها سكير على فتيات صغيرات وعندما تدخل أبوهن لنجدتهن قتله ذلك السكير بسلاح عتيق كان يضعه في جيب معطفه الشاحب.

بعد تلك الحادثة بدأ الأهالي في الانقطاع التدريجي عن المكان إلا قليل من العائلات التي أصرت على استمرارية تلك العادة.

ثم جاء مد العشاق الباحثين عن الهدوء والعزلة ليغطي أثر العائلات المنسحبة من المكان.

كان «عبد 125» يختصر الطريق من جنوب العاصمة حيث المنطقة الأثرية حتى منزله الواقع في المنطقة الشمالية التي تضم مساكن طائفة

العبيد الوسطى والتي تجاورها شرقًا منطقة مساكن طائفة الحمير وتجاورها غربًا المنطقة الحاضنة لمساكن طائفة العبيد الدنيا.

أما العبيد العليا فلهم مساكن خاصة في الجنوب تجاور مساكن أعلى طائفة في المجتمع «طائفة الوحوش»...

تمتاز الحديقة الدولية بامتلاكها لأربعة مداخل كبرى شمالية، جنوبية، شرقية وغربية مما يخفف على «عبد 125» مشواره الطويل من جنوب العاصمة لشمالها دون استخدام أية وسائل مواصلات تقليلا لنفقاته..

منذ فترة قام الأمن بإغلاق بوابات الحديقة كلها لدواعٍ أمنية مبهمة لا يحق لك أن تسأل ما هي.. واستمر الوضع كذلك لفترة فكان «عبد 125» حينئذ يضطر إلى سلوك طريق طويل جدًا حول مجموعة الفنادق الكبرى التي تحتل غرب الحديقة بلا أي طرق نافذة بينها... يضطر لأخذ هذا الطريق الطويل كي يتجنب المرور شرق الحديقة.. أو كما يسمون.. «المركز» أو«قلب العاصمة»... ويطلق عليها العبيد لقب «منطقة الخوف».

كان شرق الحديقة الدولية وعلى مساحة شاسعة محتلا من قبل مباني مؤسسة الرئاسة والمؤسسات الأمنية على اختلاف مسمياتها وأنواعها.

مرور أي شخص وخصوصًا إن كان من العبيد بالقرب من هذه المنطقة يعرضه لتحرشات وإهانات والابتزاز المستمر الوقح من قبل كل من أمن النظام المختص بالتحقيق في شئون العبيد وعقاب المخالفين منهم... وحراس الأمن العام الذين يتعاملون بفظاظة لا مثيل لها.

أثناء سيره اليومي في ذلك الممر الطويل بين المدخل الجنوبي والشمالي للحديقة كان يلذ ل «عبد 125» أن يختلس نظرات سريعة إلى العشاق الذين احتلوا كافة المقاعد على جانبي الممر... يراقب تحركاتهم الخفية... قبلاتهم السريعة المتطايرة في هدوء الحديقة... يفتقد تلك المشاعر الدافئة والراحة التي تستحوذ على روحه حينما يكون مع حبيبته «ليلى المدرسة»... مرت فترة منذ تقابلا آخر مرة... شجار سخيف كالعادة انتهى به ذلك اللقاء... لا يتذكر الآن السبب الحقيقي لاندلاع ذلك الشجار... بضع كلمات قاسية منه تلتها كلمات مستهزئة منها عن عبوديته وعدم قدرته على إيجاد عمل ملائم يمكنه من الزواج بها... ثم انصرفت غاضبة.

جميلة هي... لكن عنيدة.. وهو يكره العند.

لا بأس، سينتظر عدة أيام ثم يتصالح معها كعادته بعد كل شجار كهذا... شجارات العشاق كثيرة... لسبب ما غامض يريد كل عاشق أن يجد المثالية في معشوقه... يريده مزايا بلا عيوب فإن رأى عيبًا واحدًا تذمر من حظه البائس.

لفت نظره عاشقان انهمكا في الضحك بطريقية هستيرية وابتسم ابتسامة باهتة... منذ متى لم تجد هذه الضحكة القوية مرتاحة البال طريقها إلى فمه.

«هل فقدت القدرة على الفرح... تلك القدرة التي تجعلك مبتسمًا بصفة شبه مستمرة... التي تجعلك تنفجر ضاحكًا بحرية لدى سماعك

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أية دعابة... أنت الآن تغتصب الضحكة من فم متحجر وقلب جاف مثقل بالهمـوم... كأنما بتلك الضحكة المغتصبة تزيح همًّا من تلك الهموم... تحاول أن تسـعد نفسـك... أو أن تبدو سـعيدًا على الأقل حتى لا يرتاب بك الآخرون فيسألونك السؤال التقليدي الكريه...

ماذا بك؟!....

.. لا تسـتطيع... تتسـاءل هل كل البشـر مثلك.. أم أنك أنت فقط من أصابتـه تلك اللعنة.. لا تجـد الإجابة... أجل.. هو ذاك الشـعور الخانق ثقيل الأنفاس هو ما سيطر عليك.. هو ما حولك إلى هذا الشخص البارد وسلبك الرغبة في الحياة».

يسـتفيق «عبد 125» من غفوة خواطـره على صوت الحارس العجوز القائم على حراسة المدخل الشمالي للحديقة محييًا إياه.

يرد «عبد 125» التحية ويتبادل معه بضع كلمات باسـمة قبل أن يتركه متوجهًا بخطى سريعة نحو منزله وقد أنهكه الجوع.

عنـد مدخـل المبنى الذي تقطـن عائلته في شـقة بالطابـق الثالث منه وجـد أخاه الأصغر «وليـد الطالب» واقفًا مع أحـد أصدقائه وقد انخرطا في مناقشة سياسية عميقة.

يلمحـه أخـوه فيلتفت له محييًـا ثم يمد يده بمجلة كان يمسـكها وهو يقول بابتسامة عريضة:

- أخوك أصبح مشهورًا... انظر، لقد نشرت المجلة إحدى مقالاتي.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تناول «عبد 125» المجلة من أخيه وفتحها على الصفحة التي أرشده إليها فوجد العنوان العريض «جحيم العبودية» ثم توقيع أخيه باسم«وليد الصحفي».

أغلق المجلة بحنق ثم التفت لأخيه قائلًا:

- كم مرة أخبرتك أن تبتعد عن السياسة أيها الأحمق.. وما هذا التوقيع!... وليد الصحفي.. أتدري ما سيفعله بك رجال أمن النظام إذا اكتشفوا أن هذا المقال المعارض تمت كتابته بيد طالب في المدرسة الثانوية أعطى لنفسه لقب الصحفي دون تصريح؟!.

- لن يفعلوا شيئًا.

قالها وليد وهو يشيح بيده بلا مبالاة مما زاد من حنق أخيه فأولاه ظهره وتركه داخلًا البناية متعجبًا من تصرفات أخيه الصغير.

«أحمق.. لا يعرف عواقب أفعاله... ربنا يستر».

فتح باب الشقة وتخطى الممر القصير بخطوتين سريعتين ثم انحرف يسارًا نحو باب المطبخ قائلًا لأمه بمرحه المعتاد معها:

- أنا جيت ياست الكل.

فوجىء بأمه مستندة إلى جدار المطبخ في إعياء شديد وهي تضغط بيدها أسفل صدرها وقد شحب لونها فهرع إليها مفزوعًا:

- سلامتك يا أمي... ماذا حدث؟!

ابتسمت بتهالك وهي تقول بلهجتها الطيبة:

- ما تقلقش ياحبيبي... دي باينلها القرحة.

ساعدها على الجلوس على كرسي المطبخ الصغير وهو يجز على أسنانه كاظمًا غيظه ومتذكرًا ذلك الطبيب الأحمق الذي ذهبت إليه أمه ليعالجها من أعراض ألمت بها فأعطاها عن جهل واستهتار مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأدوية وأمرها أن تأخذها جميعًا فلما فعلت احترقت معدتها بتلك القرحة... يتذكر ذلك اليوم جيدًا... كانت أمه تتلوى في فراشها كمن يلدغها ثعبان وقح كل دقيقة... وهي تصرخ طالبة الماء المثلج... لم تكن تعلم ما أصابها حتى أخبرها ابن أختها طالب الطب بحقيقة ما حدث.

الجهل الطبي والتدهور الصحي... سبب آخر يجعله يلعن أرض العبيد ويكرهها... كثرت الأسباب وما من مفر.

أعانها على شرب قليل من الماء مع المسكن الذي أعطاه لها الطبيب ومسح عن جبهتها ذرات العرق المتكثفة.

- ما هذه الأصوات القادمة من الصالة؟!.

قالها «عبد 125» فردت أمه وهي تلهث:

- ده عمك أمين قاعد مع أبوك.

- عم أمين؟!!........

***

أن تحسد الآخرين على ضحكهم....

... فأنت قد تعديت حدود البؤس بمراحل...

* * *

جحيم العبودية

كَتَب: وليد الصحفي

هل كبرت بعد أيها الطفل الصغير؟!.

هل رأت عيناك عجائب البلد من حولك..

أصابك داء شعبنا أم مازلت بعد متفائلًا؟!...

أرى أن ضحكتك الطفولية قد تلاشت.. حسنًا.. هذا شيء جيد.. هذا معناه أنك قد بدأت تلاحظ.

راقب ذلك الأبرص هناك... رأيت المعاناة المرسومة على وجهه مع كل خطوة له..

الآن.. راقب رد فعل المحيطين به.. هل ترى كيف يهربون منه؟!.. راقب الذعر في عيونهم وهم يبتعدون عنه.. لا يبالون بالرجل نفسه.. أجل.. لقد نسوا أنه إنسان مثلهم... يشعر مثلهم.. يتأذى مثلهم..

وأكبر أذى يناله من هروب الناس منه .. أكبر ألم نفسي يتملكه حين يرى أنه منبوذ.. يشعر أنه حيوان بلا قيمة.. بلا حق.

ذلك الشعور طفلي الصغير هو ما يشعر به كل عبد في أرض العبيد.. نفس الإحساس.. نفس الأذى والألم النفسي.. نفس المعاناة.. يتعمق بداخله هذا الإحساس حتى يصبح جزءا من روحه ويفقد آدميته.. تتطبع روحه على شعور الحيوان الأليف المطيع.

تسألني لماذا قبلنا بالعبودية منذ البداية؟!....

سأخبرك لماذا؟!...

لأننا جبناء!!..

أجل جبناء...

نحن نحب الخضوع... نستمتع باللذة الناتجة عن ضربة السوط على ظهورنا... نحن نعشق العبودية.. ووجدنا في هذا القانون ذريعة جيدة للاستمتاع بالخضوع دون الحاجة للبحث عن مبررات.

نحن نقبل بما يفرض علينا دومًا.. نعده نصيبًا وقدرًا مكتوبًا...

نقبل بالإهانة... نرضخ للذل.... نواكب أنفسنا مع كل قذارة جديدة تلقى على رؤوسنا... و«نمشي جنب الحيط».

العبودية ليست قانونًا ياطفلي.. العبودية استعداد منا للذل... جحيم العبودية يقبع بداخلنا نحن وليس بداخل مباني الرئاسة.

مقال من مجلة «أبناء نوصير».

***

«ما الذي يريده هذا الشعب بالضبط... لماذا هو دائم الاعتراض والنقمة.. ألا يدركون أنني أقودهم نحو العظمة... لا يدركون قيمة أن يكون رئيسهم عبقريًا مثلي... حمقى وجهلاء».

طرقات على الباب تلفت انتباه الرئيس الأب فيعتدل بمقعده ليواجه الباب ويولي ظهره للجدار الزجاجي الذي يكشف المنطقة الأثرية بالكامل في قصره الضخم الرابض في مركز المنطقة الخاصة بمساكن «طائفة الوحوش».

يأذن للطارق بالدخول فيدخل مدير مكتبه بالقصر وينحني باحترام شديد للرئيس الأب قبل أن يقول وبصوت متوتر:

- أخبار سيئة يا افندم... المتمردون قاموا بالهجوم على موكب الأخطبوط وقتلوا حراسه وكادوا أن يقتلوا الأخطبوط نفسه لولا تدخل قوات أمن النظام لتسيطر على الوضع وتقبض على عدد كبير منهم.

أطرق الرئيس الأب حزينًا... لم تمضِ سوى عدة شهور على إقرار قوانين العبيد وبدء العمل بها وهاهي الاعتراضات والهمجية تعود مرة أخرى كالسابق.

لقد سيطر على موجة التمرد الأخيرة بصعوبة بالغة.. والآن يحدث هذا... هل وصلت بهم الجرأة إلى الاعتداء على فرد من طائفة الوحوش... هل فقدوا عقولهم بالكامل؟!.

يقول الرئيس الأب بصوت خافت كأنما يحدث نفسه:

- ما الذي يريدونه بالضبط... ألا يدركون أنني أحاول أن أجعل حياتهم أفضل.. وأقضي على الاضطرابات والتمرد... أنشيء بيئة صحية تخدم الجميع... بيئة مشبعة بالاستقرار والأمان... أخبرني.. ما العيب في نظام العبيد؟!.

- لا عيب فيه يا افندم... أفضل قانون عرفته البشرية بفضل عبقريتك الفذة.

قالها مدير مكتبه بحرارة دون أن يملك الجرأة للنظر في وجهه... ثم استطرد قائلًا:

- لا تقلق يا سعادة الرئيس... أمن النظام سيسيطر على الوضع بالكامل عما قريب... هذا شعب لا يعرف مصلحته ويجب عليه الالتزام بقراراتك الحكيمة.. عما قريب ستهدأ الأوضاع ويلتزم الجميع بقانون العبيد... لا تقلق.

بدت الراحة على وجه الرئيس الأب وابتسم ابتسامة كبيرة أظهرت أنيابه المخيفة فارتعد مدير المكتب قبل أن يقول:

- بالمناسبة... العاملون في مؤسسة الرئاسة يبلغونك تحياتهم ويتساءلون عن سبب أنك لم تعد تنعم عليهم بزيارتك لمكتبك هناك ياسيدي.

أشار الرئيس الأب بيده إلى المنطقة الأثرية خلف الجدار الزجاجي قائلًا:

- المنظر هنا أجمل وأكثر راحة للنفس.. وأنا أحتاج لقليل من الراحة في ظل هذه الظروف العصيبة.

- بالتأكيد يا ريس.. بالتأكيد.

ثم رفع مدير مكتبه نظره إلى الرئيس الأب قائلًا:

- كلمة أخيرة ياسيدي.

نظر له الرئيس الأب نظرة لائمة وهو يقول:

- ماذا تريد الآن؟!.

- هناك ذلك الرجل الذي يريد مقابلتك منذ عدة أيام... سأل عنك عدة مرات في مؤسسة الرئاسة ثم جاء هنا إلى القصر حتى يقابلك... ظننا أنه من حاملي الشكاوى فتركناه يقف عند الباب حتى يمل ويرحل.. لكن يبدو أن إصراره أكبر من المتوقع.. يأتي كل يوم وينتظر عند الباب حتى آخر اليوم وهكذا لمدة أسبوع ففكرت أن أعلم سيادتك بهذا لترى ماذا نفعل في أمره... هل نأمر الحراس بالتصرف معه؟!.

قال مدير المكتب الكلمتين الأخيرتين بلهجة ذات مغزى خاص تلقاه الرئيس فورًا ثم أخذ يعبث بذقنه قليلًا وقد ظهرت عليه ملامح التفكير لعدة دقائق قبل أن يقول:

- ما اسمه؟!.

تنحنح مدير المكتب بحرج قائلًا:

مازالت بطاقته الشخصية تحمل اسمه القديم قبل التعديل.. لكنه أخبرنا أن اسمه بعد التعديل هو «الحاكم بأمر الله».

- ماذا؟!.

- أجل يا سيدي... نعلم أنه مخالف للقانون ولكني أخبرك بما قاله وحسب.

- ليس هذا ما أثار دهشتي أيها الأحمق... أنا أعرف هذا الرجل... أدخله فورًا... ولكن قم بتفتيشه جيدًا.. واتصل بالفهد قائد المؤسسة الأمنية وأخبره بهذا الأمر... فورًا.

تراجع مدير المكتب بظهره بسرعة قبل أن يخرج من الباب ويغلقه خلفه ويهرع لتنفيذ الأمر بينما أطرق الرئيس مفكرًا في معنى ما يحدث... هذا الرجل يعلم أنه مطلوب للعدالة بتهمة محاولة تقسيم البلاد وجمع أتباع مؤيدين له خارج منظومة العبيد... ما الذي جاء به إلى هنا؟.. هل ينتوي قتله مثلًا؟... إذا كانت هذه نيته فهو أغبى من عرفته البشرية.

انتظر الرئيس الأب في ترقب دخول الرجل حتى أنه كاد يقفز عن مقعده لدى سماعه الطرقات على الباب.

أعطى الإذن بالدخول فانفتح الباب ودخل مدير المكتب... ثم ظهر على عتبة الباب الرجل المنشود... متوسط الطول بملامح سمراء هادئة... رجل عادي وتقليدي من يراه لأول مرة يظن أنه لا يستحق كل تلك الضجة التي يسببها.

انحنى «الحاكم بأمر الله» ببطء بينما لا تزال عيناه على وجه الرئيس دون أن يهتز جسمه لثانية واحدة.

تعجب الرئيس من شجاعة الرجل ثم تنحنح ليستعيد هيبته وقال بصوت ساخر:

- إذًا... «الحاكم بأمر الله»... هه؟!.... لا أدري إن كنت أصف ما تفعله شجاعة أم حمقًا... جديًا... هل كنت تتوقع أن تنجو بما تفعله؟!.

- وما الذي أفعله سيدي الرئيس؟!.

قالها الرجل بلا مبالاة جعلت حاجبي الرئيس يرتفعان في دهشة تلقائية قبل أن يقول:

- حاولت تقسيم البلاد... تصنع لك طائفة خاصة بك... تثير الشغب... ماذا كان اسم تلك الطائفة التي تدعو الناس للانضمام إليها... طائفة «العظماء» أليس كذلك؟!... وماذا عن اسمك هذا؟!... ألا تدري أن كل ذلك مخالف للقانون.. أخبرني... ما الذي يمنعني من إلقاء القبض عليك أو إعدامك الآن؟!....

ابتسم الرجل بثقة:

- لا شيء يمنعك الحقيقة... لكن لا شيء أيضًا سيمنع أتباعي من إثارة الشغب والتمرد إلى أقصى الحدود... بمجرد أن يعرفوا بما قمت به... وهم بالمناسبة يعلمون أنني في مكتبك الآن.

- هل تهددني أيها الحقير؟!... كيف تجرؤ على مخاطبة رئيس البلاد بهذه اللهجة؟!

صاح الرئيس بهذه الجملة بينما جسده ينتفض من الغضب وكشر عن أنيابه المخيفة فتحفز مدير مكتبه وامتدت يده إلى سلاحه بتلقائية حذرة.

تراجع «الحاكم بأمر الله» بظهره خطوة إلى الخلف وقد ظهر عليه الخوف لأول مرة وبدأ في إعادة تقييم موقفه بحرص قبل أن يقول بصوت معتذر:

- أنا آسف سيدي الرئيس لم أقصد... هذا ليس تهديدًا لا سمح الله... أنا هنا لأعتذر لك عن الخطأ الذي فعلته.. وأطلب منك أن تجعل طائفتي طائفة رسمية ومستقلة عن طوائف العبيد الثلاث... وسأقبل كافة شروطك.

لم يتحر الرئيس أي رد وظل على صمته وإن خف غضبه فاستأنف «الحاكم بأمر الله» كلامه قائلًا:

- أرجوك سيدي الرئيس... طائفتنا ستكون ذات منفعة عظمى للنظام وسنساعدكم على إخماد كل التمردات... هذا حلمي سيدي الرئيس فساعدني على تحقيقه.

حدق الرئيس في وجه الرجل للحظات قبل أن ينفجر في الضحك باستمتاع عظيم... ثم أنهى ضحكته فجأة كما بدأها فجأة وأطرق صامتا مفكرًا مرة أخرى!.

«لـو ألقيـت القبض على هـذا الرجل فعـلًا فمن الممكـن أن يغضب أتباعـه الكثيـرون ويثيرون تمـردًا عظيمًا قـد يتحالف مع التمـرد الحالي فيهتـز كيـان الدولة بالكامل وهذا ما لا أريـده... وعلى الجانب الآخر إن أعطيت للرجل ما يريد بشـروطي أنا فهـذا يضمن لي أتباعا مخلصين في كافة أنحاء الدولة وقد يسـاعدونني فعلًا في السـيطرة على الأزمة الحالية وأية أزمات مقبلة... لكني لن أدع ربح هذا الرجل سهلًا... سأختبر مدى إخلاصه أولًا».

نظر الرئيس الأب إلى الرجل وتعمق في دراسـة شـكله قبل أن يقول بهدوء:

- لحسـن حظك فإن رئيسك شخصية حكيمة تتمتع بذكاء طاغ... أنا لن أقوم بأية خطوة تعرض الأمن الداخلي للدولة للخطر... حسـنًا.. لك مـا تريد.. يمكنك أن تؤسـس طائفتـك الخاصة وتضم إليها من تشـاء... يمكنك أيضًا أن تنشـىء مجموعة مسـاكن خاصة بكم فـي المكان الذي تختاره لتضمن لكم الاستقلالية التامة.. لكن...

كانت ابتسـامة «الحاكم بأمر الله» تتسـع مع سـماعه لكلمات الرئيس المبشـرة وبلغت لهفته لتحقيق كل ما سـمعه أقصاها لدى سـماعه لكلمة «لكن» التي نطق بها الرئيس فقال بسرعة:

- لكن ماذا سيدي الرئيس؟!.

صمـت الرئيـس للحظات وهو يرمـق الرجل بعينيـه الحادتين ثم قال بسخرية شديدة وهو يمسح على وجهه:

- لكـن كما ترى... كل مسـئول في هذه الدولة لـه وجه خاص به... هـذه الوجـوه تكلفنا كثيـرًا من خـلال عمليـات تجميل يقوم بهـا عباقرة العالـم... مثلًا تم تعديل شـكل وجهي كما ترى ليتحول إلى أقرب شـبه لوجه الأسـد... الأسد كما تعلم هو سـيد الغابة وأكثر كائناتها حكمة وله قـوة طاغيـة تثير الرهبة في قلـوب باقي الكائنات وهذه هي الرسـالة التي يجـب إيصالها لـكل فرد في هذا البلد وخارجـه... الأخطبوط أيضًا كبير مسـئولي الصناعات في البلد لامتداد أذرعه في كل الصناعات وسـيطرته علـى كافة مجريـات الأمور في عالـم الصناعة.... الفهد قائد المؤسسـة الأمنيـة يمثل السـرعة والقـوة والدهـاء والمراقبة عن بعـد... كل أعضاء طائفـة الوحـوش هكـذا... تم تعديل وجوههم بما يتناسـب مع الرسـالة التـي يحملونهـا... لذلك سـمينا طائفـة الوحـوش... أما أنـت... فأنت تمتـاز بالصبر وقـوة التحمل العاليـة بدليل أنك صمـدت كل تلك الفترة لتقابلنـي... قـوة تحملك كبيـرة... كالحمير تمامًـا... لذلك فإن وجهك سـيتم تعديله ليصبـح كوجه الحمار تمامًا... أذنـاك أيضًا يجب أن تطول قليلًا.

قـال الرئيس جملته الأخيـرة ثم انفجر ضاحكًا مرة أخرى بحبور كبير وانفجـر معه في الضحك مدير مكتبه أيضًا بينما احمر وجه «الحاكم بأمر الله» بشدة وثبت عينيه على الأرض صامتًا.

«موافق».

خرجت الكلمة الصارمة بقوة من فم «الحاكم بأمر الله» فابتلع الرئيس باقي ضحكته وحدق بذهول في وجه الرجل ثم استعاد رباطة جأشه ببطء وتأمل بإعجاب الإصرار المحفور على وجهه ثم قال:

- ياللعجب... أنت مخلص فعلًا... حسنًا سيتم الاتفاق معك على موعد إجراء العملية التجميلية.

ثم نظر بفخر للرجل كما ينظر الأستاذ إلى تلميذه النجيب قائلًا:

- من الآن فصاعدًا أنت «كبير الحمير»... أما جماعتك فلن تكون طائفة العظماء... ستكون طائفة الحمير نسبة إلى كبيرهم.

جزَّ «كبير الحمير» على أسنانه بغيظ وابتلع الغصة المحشورة في حلقه وانحنى باحترام قائلًا:

- شكرًا جزيلًا سيدي الرئيس... أرجو أن أكون عند حسن ظنك.

في طريق خروجه من القصر كان «كبير الحمير» يفكر في سبب قبوله تلك الإهانة بهذه السهولة... هل كان خائفًا من الرئيس بوجهه المرعب... أم هل هي السيطرة المطلقة التي يمتلكها الرئيس فيعبث بمن يريد كيفما يشاء.. أم لإحساس داخلي بأنه سيرد له تلك الإهانة يومًا ما عندما يصبح قويًا بما فيه الكفاية.

«لا بأس بذلك أيها الأحمق... افرح واضحك الآن كما تشاء... يومًا ما ستصبح طائفتي كبيرة وقوية إلى الحد الذي يسمح لي بالسيطرة على هذا البلد بأكمله... تظن نفسك عبقريًا لكنك غبي... غبي متغطرس

كالطاووس الأحمق.. اضحك الآن مرتاح البال ولكن...

.... من يضحك أخيرًا...

... يضحك كثيرًا».

* * *

قانون العبيد - المادة الرابعة:

«فيما يتعلق بالإناث... تستطيع عائلة الأمة بالاتفاق مع الدولة إسقاط الصفة عنها لتستعيد اسمها الأول وذلك مقابل مبلغ من المال يتم تحديده من قبل مؤسسات الدولة ويلتزم به جميع الأطراف».

ملحوظة: في حالة زواج الأمة تسقط عنها الصفة تلقائيًا وتستعيد اسمها مع إلحاقها بالتبعية إلى عائلة زوجها.

* * *

تبـع «كريـم العامل» مدير المحطة إلى مكتبـه وهو مطرق في الأرض شاعرًا بالخزي من إيذائه لذلك السائق بتلك الدرجة... يشعر بالخزي ثم يتحول شـعوره تلقائيًا إلى التشـفي وراحة الانتقام... أجل.. لقد استحق هـذا الرجـل ما فعله بـه.. ألم يكن هـو من بدأ بإهانته وسـب أمـه... ألم يكن هو من حاول أن يأخذ مكان السـائق الآخر بالقوة... لقد اسـتحق ما حدث له بالكامل فلا يلومن إلا نفسـه التي سـولت لـه إهانة الراقدين في قبورهم.

اقتحـم مدير المحطة مكتبـه كالإعصار الغاضب وهـو يتمتم بلعنات وسـباب هائج ثم ركل الحائط بقوة آلمت قدمه بشـدة مما زاد من هياجه فالتفت نحو كريم بعينين تقدحان شـررًا وأخذ يزفر بقوة محاولًا السيطرة على أعصابه ثم قال:

- اسـمعنى يا بني... لقد حاولت أكثر من مرة التغاضي عن أخطائك الشـنيعة التـي تقـوم بها واسـتخدمت معك أهون أسـاليب العقـاب نظرًا لظروف أهلك المادية وحتى لا أكون سببا في قطع عيشك.

- أيـة أخطـاء تلـك التي تتحـدث عنهـا... وأي أهون عقـاب.. أنت تخصـم من راتبي لمجرد أنني تأخرت في الحضور عشـر دقائق لظروف المواصلات الصعبة... أنت تذلني وتعاملني كالعبيد وتقول تتهاون!!.

هكذا قاطعه كريم فصرخ فيه مديره:

- دعني أنهي كلامي... أنت تعلم جيدًا أن ظروف الدولة هذه الأيام مع قلة فرص العمل تجعل الحصول على وظيفة مثل هذه حلمًا لكثير من العبيد... وأنت تحطم كل فرص إقناعي بأن أجعلك تحتفظ بوظيفتك لأطول وقت ممكن.

ردد كريم كلام مدير المحطة هازئًا:

- ظروف الدولة هذه الأيام؟!.... من تخدع هنا بالضبط يا سيدي... تخدع نفسك؟!.. الدولة على هذا الحال البائس منذ هبطت علينا لعنة العبودية....

امتقع وجه مدير المحطة وقال بصوت مختنق:

- لا تتحدث بهذه الطريقة أيها الأحمق... لو سمعك رجال أمن النظام أو أحد عيونهم وجواسيسهم فلن يرحموك.

قال كريم وهو يهز كتفيه العريضتين باستهانة:

- لا أهتم.

شحب وجه مدير المحطة من هذه الجرأة الزائدة التي يمتلكها الفتى وأدرك أنه سيجر عليه كثيرا من المتاعب إما عاجلًا أو آجلًا فزفر بصوت مرتفع وقال كأنه يتخلص من ملابس مريض بالطاعون:

- أنا آسف يا بني.. لن تستمر بالعمل معنا هنا.

اتسعت عينا كريم متفاجئًا وقال بصوت عالٍ:

- ماذا؟!.

استرد مدير المحطة عصبيته مرة أخرى وصاح في وجهه:

- أنت مفصول.. مفصول.. ألا تفهم معنى الكلمة!!... كدت تقتل رجلًا اليوم.. وأنا لن أصبر حتى اليوم الذي تخرج فيه عن السيطرة مرة أخرى وتستكمل هذا الفعل... عد إلى الشوارع عبدًا كما كنت... ربما تتعلم الدرس ولا تقع في الخطأ مرة أخرى.

فجأة قفز نحوه كريم وجذبه بعنف من ياقة قميصه قائلًا بغضب مكتوم:

- لقد احتملت ترهاتك بما فيه الكفاية... تسرقنا وتخصم من رواتبنا... تتحكم في حياة كل واحد فينا... أنت ملعون... مثلك مثل سادتك... كلكم ملاعين تتغذون على دماء الفقراء... صدقني... سأضع حدًا لكم يومًا ما... هذا وعد مني.. ووعد الحرّ دين عليه.

ابتسم مدير المحطة ساخرًا في تناقض للموقف قائلًا:

- ولكنك لست حرًا... لقد فقدت عملك هنا... وسأعمل على ألا تحصل على وظيفة أخرى طيلة حياتك أيها المأفون.. أنت تعلم أن لي علاقاتي مع المؤسسات العليا.

- أجل بالطبع أعلم.. أنت عين من عيون أمن النظام... كلب من كلابهم... هل كنت تعتقد أني لم أكن أعلم هذا؟!.

تجاهل مدير المحطة كلام كريم وقال بهدوء:

- والآن.. هل ستترك قميصي وتخرج من هذا المكتب بهدوء ولا تدعني أرى وجهك مرة أخرى... أم تفضل أن أتصل بأمن النظام ليتصرف معك.. وأنت تعلم ما بإمكانهم فعله.

ترك كريم قميص الرجل وأطرق منكسرًا حزينًا على حاله.. غاضبًا من الظلم الذي فاق كل الحدود.. ثم استدار بهدوء مغادرًا مكتب المدير... وقبل أن تصل يده إلى الباب سمع صوت مدير المحطة قائلًا:

- لا تنس أن تمر على مؤسسة الأحوال المدنية في طريقك حتى تستردَّ درع العبودية... سأرسل إليهم إخطارًا بفصلك من العمل الآن.

ثم أكمل بسخرية:

- عبودية سعيدة.

نظر إليه كريم بعينين محتقنتين مقاومًا همسات شيطان الدماء ثم فتح الباب...

... وخرج..

* * *

لنعرف سبب الدهشة التي شعر بها «عبد 125» لدى سماعه من أمه خبر وجود عم أمين مع والده يجب أن نعود إلى أصل الحكاية.. إلى عم أمين.

عم أمين قضى معظم حياته في المعتقل... يتذكره رجال أمن النظام فجأة فينقضون على منزله كالإعصار... يراهم فيتجه لغرفته بهدوء

ويرتدي ملابسه ثم يعود إليهم تاركًا إياهم يصحبونه حتى معتقل الجبل وهو يمازحهم طوال الطريق ويتلو على العساكر الذين يعرفونه ويعرفهم جيدًا أحدث النكات فيغرقون في ضحك صاخب... أمتع لحظات حياتهم هي لحظات اعتقال عم أمين... يتركونه معتقلًا عدة أشهر ثم يطلقون سراحه... حتى يتذكروه مرة أخرى فيعتقلوه مجددًا... وهكذا.

عم أمين من القلائل الذين استمروا على وقوفهم في وجه النظام واستمروا بقول لا... جوهر اعتراضه على النظام هو قانون العبيد الذي يجده مجحفًا وضد أبسط حقوق الإنسان.. عم أمين مناضل لم يقتل فيه الزمن حماس الشباب ولم ييأس من المطالبة بالحق... عم أمين بطل أحمق في أسطورة ينتصر فيها الظلم دائمًا.

صاح «عبد 125» باسم عم أمين في دهشة فرحة ثم هرع نحو الصالة ليتأكد من الخبر فرآه... جالسًا في مكانه المفضل وقد خلع حذاءه وعقد قدميه تحته وهو يضحك بحبور مع والد «عبد 125».

رآه عم أمين فقام من مكانه قائلًا جملته المعتادة التي يقولها «لعبد 125» منذ صغره:

- مراحب بالبطل الصغير.

تتسع ابتسامة «عبد 125» ويلقي بنفسه في أحضان عم أمين... كم يعشق هذا الرجل... عم أمين فعلًا يصلح كأسطورة شعبية... لا يخشى شيئًا ولا يعدل عن قراراته أبدًا... ظل محاربًا وفيًا... ليس لديه شيء ليخسره.. لا زوجة ولا أطفال... ولا مال حقيقي... يعيش على ظل

الأشياء... مناضلًا من أجل قضية وهب لها حياته بأكملها.. ورغم أن وجوده في بيتهم معرضٌ للشبهات والمشاكل الا أن والده لا يهتم... والده يحب عم أمين مثله... صديقه منذ طفولته كما تجمعه به صلة قرابة... «عبد 125» يحب الاستماع إلى قصصه الرائعة التي يحكيها له عما يدور في هذا البلد وما يحدث خلف جدران معتقل الجبل.

- أوحشتني أيها البطل...

- أنت أكثر يا عم أمين... متى خرجت من المعتقل؟!.

- اليوم.. خرجت من هنا.. وجئت لكم من هنا.

يضحك عم أمين فيضحك معه «عبد 125» ثم يقول مستحثًا:

- وما آخر الأخبار داخل المعتقل؟!

يضحك عم أمين مرة أخرى قائلًا:

- اصبر أيها اللئيم... كنت سأخبرك لكنك متعجل دومًا.. أخبرني.. لم مازلت تثقل نفسك بأغلال العبودية تلك؟!.

أطرق «عبد 125» قائلًا:

- هذا الأمر ليس بيدي يا عم أمين... لا خيار لدي.

قال عم أمين بصوت حماسي:

- كلا يا بني... دائمًا لديك الاختيار... والاختيارات متعددة... عليك فقط أن تبحث أعمق وتترك توافه السطح... عليك أن توسع مدى

نظرتك للأشياء من حولك... اترك الالتزامات وتعال ناضل معي.. لا تخف من أحد.

تنحنح والد «عبد 125» بحرج أما «عبد 125» نفسه فقد نظر في عيني عم أمين المشتعلتين بالحماس ثم قال مبتسمًا لينهي الموقف:

- لسنا كلنا أبطالًا مثلك يا عم أمين.

خبت عينا الرجل وقد فهم مغزى الكلام وسكت...

«أجل يا عم أمين... لسنا كلنا مثلك.. لسنا كلنا على استعداد للموت من أجل شيء لن يتحقق.. لسنا كلنا متفائلين ومضحين مثلك... نحن نريد امتلاك حياتنا يا عم أمين.. نريد عملًا نكسب منه... نريد زواجًا... نريد أطفالًا ليحملوا أسماءنا.... نريد أمانًا حتى وإن كان زائفًا... نحن يا عم أمين... نريد الصمت!».

جلس عم أمين مكانه وقال ليعيد للحوار روحه المرحة:

- اجلس بجانبي يا بني.

جلس «عبد 125» بجانب عم أمين متشوقًا لسماع حكايته..

قال عم أمين وقد استعاد مرح روحه بسرعة:

«هذه القصة حدثت يوم وصولي المعتقل.. وبعد الإجراءات والتحقيقات المعتادة... وضعوني في زنزانة مع شخص غريب الأطوار.. دائم الضحك ولا يكف عن الكلام أبدًا.. نظر إليَّ بمجرد دخولي الزنزانة نظرة طويلة ثم سألني بحدة:

- سياسة؟!.

أومأت برأسي فانفجر ضاحكًا بصوت مرتفع قبل أن يهدأ بغتة ويسألني مرة أخرى:

- كم مرة؟!.

ابتسمت بأسى قائلًا:

- فقدت القدرة على العد منذ زمن طويل.

تغيرت نظرة الرجل فجأة ورقت لهجته وقال مرحبًا:

- آه.. أنت زميل إذًا.

قال هذا ثم اعتدل في جلسته وواجهني قائلًا:

- هل تعلم... أنا لم أكتفِ بمواجهة هذا النظام المستبد المسمى نظام العبيد في دولة نوصير فقط.. بل طفت بجميع الدول المتحدة السباعية مقاومًا لهذا الاستعباد المستتر خلف القوانين.. رافضًا له.. جامعًا أنصارًا ومناضلين... تم اعتقالي في معظم معتقلات تلك الدول.. من ضمن هذه المعتقلات كان معتقل الجزيرة الرهيب القابع في دولة حيارى... معتقل مشهور بقسوة رجاله وغلظة قلوبهم وإمعانهم في التعذيب.. هذا المعتقل كان للمعتقلين السياسيين وأشرس المجرمين.. وكان يشتمل على قسمين.. قسم للرجال وقسم للنساء...

سبب شهرة هذا المعتقل يا زميلي المناضل هو تفنن رجاله في ابتكار ألوان من التعذيب تعجز حتى أسوأ كوابيسك عن إبداعها.. كان التعذيب

نوعين.. تعذيب جسدي وآخر نفسي.. أما التعذيب النفسي فقد أوكلوه إلى ضابط شرس كان يسمى وقتها «ضرغام الرائد»... كان يبدع في التعذيب النفسي.. خاصة مع النساء.. لم يكن أحد ليجرؤ على عصيان أوامره.. حتى جاءت وردة.

- من وردة؟!.

بمجرد أن سألته ذلك السؤال حتى شردت عيناه وارتسمت على وجهه ابتسامة الذكريات ثم قال بصوت حالم:

- وردة... وردة هي المرأة التي عشقتها وإن لم أخبرها.. عشقت روحها.. عشقت نضالها ضد الظلم... كل شيء فيها عشقته... وصلت إلى المعتقل بعد شهرين من اعتقالي.. فتننا جمالها الآسر فاستفسرنا عنها حتى عرفنا من هي.. اسمها «وردة» وهي زوجة أديب مشهور اسمه «ياسر الكاتب».

سقطت وردة في يد الحاقد الأكبر ضرغام.. وكان آنذاك يطبق فنًّا جديدًا في التعذيب.. إذ يأمر المرأة أن تتجرد من ملابسها أمام جميع المساجين ثم تشرع في الرقص المبتذل.. وكان يراقب الفتاة تذرف دموعًا كالدماء بينما تؤدي رقصتها المتعرية مستمتعًا بأفكاره المريضة...

قرر ضرغام أن تكون وردة بطلة الرقصة التالية.. وهكذا وفي الليلة الموعودة تراص المساجين على الأرض منتظرين الإمتاع القادم..

جر الحراس وردة إلى مركز المكان وأمرها ضرغام أن تتجرد من ملابسها وترقص... احمرت عينا وردة من الإهانة وانحدرت دموعها على خديها.. ثم فجأة وعلى نحو فاجأ ضرغام نفسه اعتدلت وردة في وقفتها وقالت بصوت ثابت:

- كلا... أفضل الموت على ذلك.

ظل ضرغام مصعوقًا مكانه بينما علت وجوه المساجين ابتسامات متشفية قبل أن يصيح ضرغام آمرًا مرة أخرى:

- افعليها بإرادتك أو أتركهم يفعلوها.

قالها مشيرًا للحراس المتحفزين... ظلت وردة على وقفتها القوية ولم تتحرّ ردًا فأشار ضرغام للحراس فانقضوا عليها بقوة محاولين تجريدها من ملابسها فأخذت تصرخ بيأس قبل أن ينجحوا في مهمتهم بالفعل ويلقوا بها على الأرض عارية تمامًا ومنهكة من المقاومة.

ساد الصمت المكان إلا من صوت تشنج وردة الراقدة على الأرض وبكائها الحار.. ذلك قبل أن تقشعر أبدان الجميع بصرخة رهيبة أطلقتها وردة ثم شرعت في ضرب رأسها بالأرض... انتاب الجميع الفزع حين رأوا الدماء تتفجر غزيرة من رأس وردة الصارخة التي لا تكف عن ضرب رأسها بالأرض... لم يتدخل أحد من الحراس لمنعها عن ذلك الفعل حتى غابت عن الدنيا... حينها فقط نظر الحراس إلى قائدهم منتظرين الأوامر.

تقدم ضرغام الذي كان غضبه قد فاق كل الحدود من الجسد الهامد على الأرض... جسد وردة... ثم صرخ بغضب أرجف قلوب المساجين قبل أن يبصق على الجثة الهامدة ويركلها بعنف بقدمه قائلا:

- هذا عقاب من يخالف أوامري.. ليكن هذا درسًا لكم جميعًا.

تلك الليلة يا زميلي المناضل كانت أول مرة في حياتي أجد الرجال وحتى أعتى المجرمين منهم يمتنعون عن النظر إلى عورة تلك المرأة.. بل إن بعضهم شرع في الدعاء لها... ودمعت عيون البعض الآخر إحترامًا وإجلالًا وحزنًا على تلك السيدة التي احتلت عرش قلبي بموقفها وإرادتها الصلبة.. السيدة التي فعلت ما هابه الرجال... خالفت أمر الحقير ضرغام... وقتلت نفسها حفاظًا على كرامتها.

تحية وتعظيم لهذه السيدة يا زميلي المناضل».

أنهى عم أمين الحكاية كما حكاها له رفيق الزنزانة ثم تأمل «عبد 125» ووالده مبهوري الأنفاس وابتسم قائلًا:

- كان هذا آخر ما قاله لي تلك الليلة قبل أن يرتكن إلى حائط الزنزانة وينام... وهكذا يا بني... نتعلم من هذه القصة المأساوية.... أنه لا يهم كون الإنسان بلا زوجة أو وظيفة... ولكن ما يهم حقًا هو احتفاظ الإنسان بمبادئه... رفض الظلم.. والبحث عن الكرامة حتى وإن كانت على حساب الروح نفسها.. كرامة المرء يابني تفوق في أهميتها كل عزيز لدى الإنسان.

وهذه السيدة الفاضلة خير دليل على ما أقول....

هذه سيدة استطاعت بمبادئها الحفاظ على كرامتها وحماية عورتها وشرفها... هذه سيدة تمكنت من إحداث فرق... تمكنت من التغيير.. ومن خلال فعل واحد فقط.

هذه السيدة الرائعة...

... وردة.

* * *

عند هذه النقطة توقف «ياسر الكاتب» عن قراءة المذكرات... تجمدت عيناه على اسم زوجته الراحلة وردة وقد ارتسم على وجنتيه خطان من الدموع التي بدأ انهيارها بغزارة بمجرد أن بدأ في قراءة الأحداث الختامية في حياة زوجته المسكينة.... أحداث مكتوبة بيد شخص نقلها عن عدة أشخاص لم يعرف أي منهم أن مصير تلك الكلمات هو الاستقرار أمام عينيه.

التهبت أعصابه وبدأ الغضب يتمكن منه... أخذ يتنفس بعمق محاولًا تمالك نفسه ثم فجأة.. أطلق صرخة حادة... صرخة روح غاضبة تبحث عن الانتقام.. والدم.

قام من مقعده وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا... حتى غلبه غضبه فأمسك بمنفضة السجائر وقذفها بأقصى قوته نحو زجاج مكتبته التي

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بفخر بها فتحطم بدوي هائل أشعل جنونه أكثر وأكثر فشرع يضرب ما بقي من الزجاج معلقًا بجوانب المكتبة بقبضته محطمًا إياه... لم يهتم بجروح يده والدماء التي سالت وتناثرت قطراتها على كتبه لتكون بقعًا داكنة تتوغل في الانتشار.

توقف عن جنونه متألمًا جراء الجروح التي أكلت جزءًا كبيرا من يديه... نظر إلى الدم الذي يغطي كلتا يديه بعينين غائرتين ورقد على الأرض وقد دارت به رأسه.

«أقسم بالله... أن أغرق يدي بدمائك يا ضرغام الكلب.. أقسم بالله».

كان يعلم أن زوجته قد ماتت في المعتقل... أحضروا جثتها إليه قبل سنوات طويلة قائلين بأنها لم تتحمل أجواء المعتقل فانتحرت في زنزانتها... كذبوا عليه ليداروا جريمتهم.... لم يكن يعلم تفاصيل موتها حتى أتته هذه النسخة من المذكرات التي كتبها الشاب «وليد الصحفي».

بالحماقة «أحمد اللواء»... أعطاه الحقيقة الكاملة دون أن يدرك هذا... لم يشغل نفسه حتى بقراءة المذكرات ليحذف هذا الجزء أو يصححه... بالغطرستهم الوقحة.

ظل على وضعه هذا على الأرض يمني نفسه بالانتقام من قاتل زوجته ويثأر لحبه المطعون في مقتل... ثم قام ونظف يديه من الدماء وطهر جروحه... هدأ نفسه وعاد إلى مكتبه...

.... ليستكمل القراءة.... ويكتب...

... وينشر الحقيقة...

حقيقة ما حدث...

***

القانون الخامس:

يمنـع العبد من الزواج منعًا باتًا حتى لا يشـغله الـزواج عن مهامه في خدمة هذا الوطن... وفي حال سقوط الصفة عنه فإنه يمكنه الزواج ولكن يتوجب عليه أن يقدم إلى مؤسسة الأحوال المدنية شهادة تفيد بوفاة أحد أقاربه حتى الدرجة الثالثة على مدار الثلاث سنوات التي تسبق الزواج... وذلك يأتي في إطار منع الانفجار السكاني وللحفاظ على موارد البلاد.

ملحوظـة: يُلزم العبد بقضاء الحـد الأدنى من العبودية فإن تمكن بعد انتهـاء تلك المدة مـن إيجاد عمل يستطيع حينها التخلي عـن الصفة إذا أراد.

***

مـرت أسـابيع علـى تلك اللحظـة التـي رأى فيها «محمـد الحارس» لأول مـرة «الرجـل الشـبح» كمـا اصطلح على تسـميته هـو وزملاؤه... ألـف محمـد وجوده... بـل إنه كان كثيـرًا ما يمر على تلـك المنطقة التي رآه فيها لأول مرة كي يطمئن عليه... يسـعد برؤيته كما يقل ذلك الذهول في عيني «الرجل الشـبح» كلما رأى محمد... نشـأ بينهما نوع من التآلف

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

الغامض والمودة الخجلة... يأتي محمد كي يرى الرجل ثم يستند على بندقيته ويتحدث باستفاضة عن أحواله وتعنت قائده ومشاكله مع زوجته والمولود الصغير الذي ينتظره... يتحدث بحرية تامة عن أدق مشاكله وأكثرها خصوصية... بينما «الرجل الشبح» ينظر إليه ولا يرد... وربما حتى لا يسمعه.. ولكن محمد كان يحب تلك اللحظات لأنه يتخلص من ثقل الهموم على صدره مطمئنًا إلى صمت الرجل الدائم.

أيضًا كثيرًا ما كان محمد يلح على زوجته كي تعد طعامًا زائدًا يأخذه معه ليقدمه إلى «الرجل الشبح»، ورغم رغبة زملائه في تذوق الطعام إلا أنه يمنعهم بصرامة ويسرع الخطى نحو مكان الرجل الشبح... يضع أمامه الطعام ويجلس قبالته فيجلس الرجل أيضًا... لكنه لا يمد يدًا إلى الطعام... يظل على صمته الدائم ونظرة الجنون الأبله في عينيه... حاول مرة أن يطعمه بنفسه فضرب الرجل يده بعنف وتناثر الطعام بعيدًا... يتساءل محمد كيف يمتلك هذا الرجل القدرة على الحياة... من أين له الطاقة التي تنعش أجهزته وتساعد قلبه على الانقباض... كيف وهو لم يره بأكل أو يشرب أبدًا... دائمًا على وقفته المتصلبة ونظرته المسلطة إلى الفضاء... يبدو دائمًا وكأن أمرًا طارئًا يشغل باله فيعوقه عن الانتباه لحركة الدنيا من حوله.

الأمر الغريب أيضًا هو أنه لم يره أيٌّ من زملاء محمد الذين يحرسون هذه المنطقة بالتناوب معه في فترات مراقبتهم... لا يظهر الرجل إلا في

فترة مراقبة محمد... فإذا أراد أيٌّ من زملائه رؤيته فعليه أن يرافق محمد في مناوبته.

تسرب خبر «الرجل الشبح» وانتشر بين رجال الحراسة في جميع المناطق فأخذت أفواج منهم تأتي كل ليلة لمشاهدة هذا الرجل والتعجب والتسبيح ثم العودة من حيث أتوا.

حتى الزملاء القدامى الذين مروا بتجربة رؤية هذا الرجل الغامض كانوا يأتون لرؤيته وإبداء دهشتهم من استمرار وجود الرجل كل هذه المدة حيث أنه خلال السنوات السابقة كان يظهر لعدة ليالٍ ثم يختفي... أما هذه المرة فيبدو أنه لا يريد الانصراف... يريد إبلاغ رسالة ما!... ووسط كل هذا كان يقف محمد فخورًا بنفسه... لديه نفس التساؤلات مثل زملائه لكنه مع ذلك يشعر بالفخر لإحساسه بأن وجود الرجل الشبح مرتبط بوجوده هو على نحو ما.

ظلت الأوضاع مستقرة والإثارة قائمة تسيطر على الجميع من تواجد «الرجل الشبح» بينهم والقصص والأساطير التي حاكوها وتحاكوها عنه وعن سبب وجوده بينهم.

فمنهم من قال إنه دفن زوجته التي يحبها في هذه البقعة ويأتي كل سنة للاطمئنان عليها والوقوف على أطلال قبرها.. ومنهم من قال إنها روح ترفض الاستقرار فاكتسبت مع بقائها المستمر وجودًا ماديًا... ومنهم من قال إنه لا شيء أكثر من راعي أغنام أبله يأتي كل فترة لمشاهدة أهل الحضر.

حتى جاء اليوم الذي صدر فيه قرار بتغيير قائد الحراسة للمنطقة الأولى للحدود الشرقية لمخالفات أخلاقية.. وتعيين آخر بدلًا منه.

وكانت أولى خطوات هذا القائد الجديد هي القيام بجولة يرى من خلالها سير الأوضاع ويستطلع المناطق الواقعة تحت نطاق حراسته ويرى مدى التزام الحراس بأماكنهم وصرامتهم في تنفيذ الأوامر والقيام بحراسة متكاملة.

وكان من سوء حظ محمد في ذلك اليوم أن قرر الحديث مع «الرجل الشبح»... كانت مشكلته مع زوجته قد بلغت حدها الأقصى واشتعلت الأمور بينه وبين أهلها.

مشكلة صغيرة بدأت بتأخره في دفع إيجار الشقة الصغيرة الواقعة في قرية قريبة من الحدود... وانتهت إلى الحديث عن سلبيته وورثه الضئيل الذي تركه طوعًا لأخواته البنات.

أخذ معه بعض بواقي الطعام الذي أعدته زوجته كارهة... وكالعادة جلس أمام الرجل الشبح فجلس هو الآخر دون أن يمد يده إلى الطعام... بدأ محمد يحكي وقد انتابه التأثر والرثاء لحاله فاكتسب صوته عاطفية زائدة.

انتابه الفزع وتجمد الدم في عروقه وسرت قشعريرة باردة أسفل ظهره لدى سماعه صوت قائد الحرس الجديد آتيًا من مسافة قريبة خلفه قائلا:

- أنت يا بني... ماذا تفعل عندك؟!.

انتفض محمد من مكانه مذعورًا ورفع يده بالتحية محاولًا إخفاء «الرجل الشبح» بوقوفه أمامه مباشرة.. ولكن كل محاولاته باءت بالفشل حين اقترب منه قائد الحرس صائحًا:

- لماذا تجلس عندك هكذا مهملًا عملك... ماذا تفعل؟!.

ثم وقع نظره على الرجل الجالس باستكانة على الأرض ونظرته المحدقة في الفراغ فارتد خطوة إلى الوراء قائلًا بتأفف:

- ومن هذا؟!.. هل ندفع لك أجرك لكي تجلس تتسلى وتتسامر مع راعي الأغنام هذا؟!.

ثم اقترب من الرجل الجالس على الأرض ووكزه بقدمه آمرًا:

- هيا... انصرف من هنا ولا تعد مرة أخرى.

قام الرجل الشبح بهدوء ثم ظل متمسرًا مكانه محدقًا في الفراغ فصاح فيه قائد الحرس وهو يصفعه بقوة على وجهه:

- ألم تسمع كلامي أيها الأحمق؟!.. قلت لك انصرف من هنا!.

نظر الرجل الشبح إلى قائد الحرس وحدجه بنظرة مجنونة مخيفة فتدخل محمد بسرعة قبل أن يغضب قائد الحرس قائلًا:

- لا تؤاخذه يا باشا... مخه تعبان!.

قالها وهو يحرك يده بجانب رأسه علامة على الجنون فصمت قائد الحرس لوهلة ثم قرر أن يصرف نظره عن هذا العبث فاستدار قائلًا باستهزاء:

- حسنًا... اجعله ينصرف من هنا.. واذهب إلى عملك.. ولا تدعني أراك تجالس هذا المجنون مرة أخرى.

تنفس محمد الصعداء وقال بارتياح:

- أمرك يا باشا.

تحرك الرجل مبتعدًا عنهما يرافقه اثنان من الحراس الأعلى رتبة وجمهرة من الحراس الآخرين... نظر محمد إلى الرجل الشبح وعلى وجهه ابتسامة لم تلبث أن تحولت إلى الدهشة عندما رأى الرجل الشبح ينحني ويلتقط حجرًا من الأرض... انقلبت الدهشة على وجه محمد إلى ذعر حقيقي ومد يده محاولًا منعه قائلًا بيأس:

- لا.

تأخرت حركة محمد حيث كان الرجل الشبح قد رفع ذراعه بالحجر بالفعل ثم ألقاه بأقصى قوته...

... نحو قائد الحرس!...

* * *

«سعاد المراسلة»... حين يذكر اسمها في مبنى قناة «الدنيا» الإخبارية فلا بد أن تسبح صورتها في ذهن كلٍّ من المتكلم والمستمع لفترة طويلة... الفتاة الجذابة التي تفيض كل حركاتها بأنوثة متقنة.. الفتاة المقاتلة العنيدة... الفتاة التي يطغى طموحها على كل جوانب حياتها... لا تمثل بقية المبادىء جانبا ذا قيمة في حياة سعاد... يكفي أن تسيطر فكرة معينة على ذهنها حتى تبذل في سبيل تحقيقها كل غالٍ ونفيس.

سعاد هي المادة الخام للطموح بلا أي شائبة.

داخل مكتب مدير القناة كانت سعاد جالسة على أحد المقاعد وقد انحفرت في وجهها ملامح التصميم العميق على عكس مدير القناة الذي بان عليه الخوف وهو يحرك يده بعصبية قائلا:

- اعقلي يا سعاد... لا تنقصنا المشاكل.

ترد عليه بحزم:

- أرجوك يا فندم... هذا سبق لا مثيل له.. لم يسمع أحد حتى الآن عن أسطورة الرجل المخبول عند الحدود الشرقية.. والآن وبعد حادثة إلقائه الحجر على قائد الحرس.. صدقني هذه قصة سيتحاكون عنها لفترة طويلة...

صاح الرجل بغضب:

- أرأيتِ؟!... هذا هو ما أتحدث عنه... قائد الحرس الغاضب من فعلة الرجل... هل تتصورين أنه سيسمح لكِ بالمرور لإجراء اللقاء بكل

بساطة!... هل ينقل فضيحته هو ورجاله إلى التلفزيون.. أنتِ واهمة... لولا نقل القائد القديم من موقعه لما كنا نخوض هذه المناقشة الآن... كان سهل القياد بالنسبة لك.. لكن مخالفاته الأخلاقية تسربت رائحتها لرؤسائه.

ابتسمت سعاد بخبث وقالت:

- أعتقد أنني أعلم هذه المخالفات جيدًا.

تجاهل مدير القناة كلامها الموحي وزفر بعصبية ليفرغ صدره من شحنة القلق ثم قال ببطء لا يخلو من توتر:

- لو أغضبتِ رجلًا في منصب قائد الحرس فستكون العواقب وخيمة علينا كلنا... اعقلي ودعي الأمور تتحرك.. لا أريد أن أتخذ معكِ موقفًا قد يدمر حياتك ومستقبلك المهني كله.. ولا تنسي طائفة العبيد الوسطى التي تنتمين إليها... بالطبع قبل أن نقبلك في القناة عندنا.. هل نسيتِ كيف كانت هيئتك وقت خطوتِ داخل المبنى تبحثين عن عمل بشهادتك عديمة القيمة ودعوات أبيكِ ذي الطموح الخيالي.

احمر وجه سعاد من الإهانة.. وأشارت إلى جسدها إشارة ذات مغزى قائلة بحنق:

- لقد أخذت ثمن توظيفي في القناة.. ومازلت تأخذه حتى هذه اللحظة.. أم أنك نسيت أيضًا.. أربعاء الأسبوع السابق ليس بعيدًا إلى هذا الحد حتى تنساه بهذه السرعة.. أم أنك قد اشتقت إلى ليالي الوحدة.. وجسد زوجتك البالية.

جـاء دور مدير القناة كي يحمر وجهه ويطرق صامتًا.. ثم قرر أن يغير نغمة الحديث ويحاول أن يلين من موقفها:

- حسنًا.. دعينا نفكر بهدوء قبل أن نقدم على أي تصرف.... .

قاطـع رنين هاتف سـعاد كلام مدير القناة... فتحـت المكالمة.. كان صـوت أحـد مصادر القنـاة المقيميـن بصفة دائمـة داخل أقسـام المدينة علـى الطرف الآخر مـن المحادثة.. نبّأها الرجـل بالخبر العاجل لتذهب لتسجيل ما حدث.

أنهت سـعاد المحادثة ونظرت نظرة طويلة لمدير القناة قبل أن تلتقط حقيبتها المعلقة بذراع المقعد وتخرج من المكان دون كلمة واحدة.

* * *

«في أرض العبيد... إن أردت تحقيق حلمك...

..... فعليك التخلّي عن مبادئك».

وليد الصحفي

* * *

- لكن... ما الفائدة من نظام العبيد سيدي الرئيس؟!

- فوائـد أكبر من فهمك أيها الأحمق... فوائد كثيرة ومتعددة وحدي أنـا أعلمها.. أبسـطها هـو أن أضع هـذا المجتمـع في قبضتـي.. وتحت رحمتـي.. وأبقيـه في حاجة إلى حكمتي.. لن يتحـرك أحد دون إذن مني

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لأنـه يعلـم أنه مراقـب وأن كل بياناته موجـودة لدينا.. لـن يفكر أحد في التمرد والعصيان.

أيضًـا نتيجة التعدد الطائفي.. وكثرة الانتماءات.. فسـوف يخرج كل العبيـد طاقاتهـم في صراعـات داخلية بيـن الطوائف والطبقـات محاولة لإثبات أفضليتهم على الطوائف الأخرى ونيل الرضا مني.

فائدة أخرى.. أنه طبقًا للقانون فأنا أستطيع استثمار كل القوة المتمثلة فـي مئات الآلاف من العبيد في أي وقـت وبلا مقابل.. من أجل مصلحة الوطـن العظمـى بالطبع.. وهذا يعني جيشـا آخر تحت يـدي وخط أمان ودفاع آخر... «قوة العبيد» الجاهزة للخدمة....

... خدمة هذا الوطن بالطبع!!.

..... أجل.... كل ما أفعله..

... أفعله لأجل الوطن.

* * *

- خد بالك من نفسك يا حبيبي.

- حاضر يا أمي.

قالها «عبد 125» لأمه وهو يغلق خلفه باب الشـقة مسـتعدًّا للقائه مع صديق عمره «كريم العامل» على مقهاهم المفضل.

أثناء نزوله درجات السلم بطريقته العجيبة - إذ يقفز ثلاث درجات للأسفل في كل مرة مستفيدًا من طول ساقيه - وعند الطابق الثاني تمامًا انفتح باب الشقة القابعة على يمين الصاعد درجات السلم.. وخرجت منه جارته الأرملة الجميلة «عبير»... عبير في أواخر العقد الرابع من عمرها.. زهرة جميلة متوردة أطفأت جمالها المشع وفاة زوجها المفاجئة في حادث سيارة واستبدلته بجمال هادىء لا يخلو من بقايا إغواء قديم.

بطريقة ما شعر «عبد 125» بأنها كانت تنتظر نزوله خلف هذا الباب... بادرته بالسؤال:

- كيف حالك يا عسل؟!

كان عسل هو لقب «عبد 125» عند عبير منذ صغره... لم تكن تناديه إلا به.. انفرجت أسارير «عبد 125» لدى سماعه الاسم وقال:

- الحمدلله بخير يا أبلة عبير.

- أبلة عبير مجددًا!!... ألم نتفق على عبير فقط؟!

قالتها بلهجة لائمة فاحمر وجه «عبد 125» وقال:

- أنا آسف... حكم العادة فقط واحترامًا لفرق السن لا أكثر.

ظهر على وجه عبير الضيق من حديث «عبد 125» عن العمر فأسرع مستطردًا قائلًا بضحكة:

- كما أن ذاكرتي ضعيفة جدًا للأسف.. أنا عن نفسي أفضل عبير فقط.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ابتسمت عبير وتورد وجهها وقد ظهرت عليه معالم الرضا.. كانت عبير بطلة خيالات «عبد 125» الجنسية أثناء مرحلة مراهقته بلا منازع.. كان يفكر فيها وفي تفاصيل جسدها طيلة صحوه ومنامه.. لذلك ظل طوال الوقت يحاول كسب رضاها وإضحاكها كي يتقرب أكثر منها... فلزمته تلك العادة حتى بعد تخطيه تلك المرحلة.

تبادلت معه عبير بعض الجمل العادية التي لا يبدو من ورائها قصد أو منفعة إلا مجرد رؤيته والحديث معه.. فقد كان شبح الوحدة هو مرافقها الوحيد طيلة الأعوام الخمسة التي تلت رحيل زوجها إلى عالم الموتى.. وحدة الروح.. ووحدة الجسد.. كانت تعزي نفسها دائمًا بوجود «عبد 125» كصديق لها.. تبادله الحديث وتجدد دعوتها له بتناول العشاء معها مقاومة رغباتها الشيطانية في إغوائه.. وإن لم تمنعها تلك المقاومة من التزين الكامل قبل أن تراه كل مرة.

فترت حرارة الحديث بينهما فودعته واستدارت لتدخل شقتها وقد عبست ملامحها... لن يحدث مرادها أبدًا.. لن تنجح في إغواء «عبد 125» حتى يتزوجها أو حتى ينخرط معها في علاقة سرية أبدًا... الأحمق لا يبدو أنه يفهم.. مازال يعاملها على أنها أبلة عبير جارة الطابق الثاني الودودة... لا يريد النظر إليها نظرة الرجل الراغب في امرأة.. هل أصبحت عجوزًا وغير مرغوبة إلى هذا الحد؟!.

«لا فائدة.. سأموت وحيدة».

هكذا قالت وهي ترتمي على فراشها.

في نفس الوقت كان «عبد 125» قد اتخذ طريقه نحو المقهى الذي لا يبعد كثيرًا عن منزله وإن كان موقعه متوسطًا بين مساكن طائفتي العبيد الوسطي والدنيا فلا يضطر أيّ من «عبد 125» و«كريم العامل» إلى السير مسافات طويلة أو انتظار وسيلة مواصلات حتى يلتقيا.

انشغل عن الطريق بالتفكير في ما حدث للتو مع جارته عبير... من بعد حوالي سنة من وفاة زوجها في ذلك الحادث المؤسف بدأت في التصرف معه بطريقة غريبة.. أرادته أن يناديها باسمها مجردًا وذلك بحجة أن لقب أبلة عندما يخرج منه يجعلها تشعر كمن لو كانت من العجائز.. تتودد إليه أثناء صعوده ونزوله السلم... كان هذا يسعده ويحرجه في نفس الوقت... يسعده أن يرى جارته الجميلة تتحدث إليه بتلك الطريقة الودودة.. يسعده أن يراها أكثر جمالًا وإثارة في كل مرة تقابله فيها.. ولكن ما يحرجه هو موقفه الشخصي منها... فقد باتت نظرته إليها نظرة اشتهاء بحتة وذلك بعد أن كانت مجرد جارة أقرب إلى خالة في نظره... يحرجه ويضايقه أن ينظر إليها بعيون راغبة متخوفًا أن تستشف ما وراء تلك النظرة فتغضب منه وتقطع علاقتها به.. في البدء ظن أن تلك مجرد رواسب خيالات المراهقة الراقدة في أعماقه تطفو على السطح لدى رؤيته لبطلة تلك الخيالات.. ظن أنها حالة مؤقتة ستنتهي قريبًا.. لكنها لم تنتهِ.. لام نفسه كثيرًا على عقله وتفكيره السيئ لكنه لم يملك للأزمة علاجًا.. اعتقد أنه يكن لها مشاعر حب دفينة وفكر أن يتزوج بها على الرغم من علاقته بليلى المدرسة.. ولكنه خاف من نهر أبويه له وغضبهم

إذا صارحهم بحبه لجارته التي تكبره في السن بثلاثة عشرة عامًا.. كما أنه لم يكن متأكدًا من موافقتها هي نفسها على هذا الأمر.. بالإضافة لعبوديته فهذا أمر مفروغ منه.. لذلك نسي الأمر وحاول تجنبها لكنها غضبت منه فعاد إلى علاقتهما القديمة ليراضيها ضاغطًا على نفسه ومتجنبًا أفكاره السوداء على قدر الاستطاعة.. ومازال على هذا الموقف والوضع حتى هذه اللحظة.

كان تفكيره قد استغرقه حتى وجد نفسه فجأة أمام المقهى وقد قادته قدماه آليًا إلى المكان.. جلس في مكانهما المفضل خارج المقهى وطلب كوبًا من الشاي وقبع منتظرًا ظهور صديقه عند بداية الشارع.

لم تمضِ عدة دقائق حتى وجده بالفعل وقد لاح عند بداية الشارع بجسده العملاق وهيئته المهيبة مقتربًا منه... وجه كريم لا يخلو من وسامة على الرغم من وجود ذلك الحرق الصغير على وجنته كدائرة سوداء متفحمة أبت أن تتلاشى مع مرور الزمن.

لا أحد يعلم سر هذا الحرق عدا «عبد 125» وهند... عرف «عبد 125» السر أثناء جلسة من جلسات صراحة الأخوة التي كثيرًا ما جمعته هو وكريم فينفلت لسان كل منهما من عقاله ويبدأ في التصريح بفيض الأحمال التي ينوء بها قلب أحدهما للآخر.

أخبره كريم عن سبب الحرق والذي كان يعتبره إهانة عظمى في حياته المحرجة... إذ أنه في صغره كان يعمل صبي قهوجي في إحدى مقاهي منطقة العبيد الوسطى والتي يشتهر صاحبها «المَعَلّم» بفظاظته

وغلظة قلبه وتضييقه على رواد المقهى... وحدث في يوم أن أخطأ كريم وسقطت من يده زجاجة النارجيلة فتهشمت على أرض المقهى بدوي عالٍ وتناثر ماؤها مع فتيت الزجاج على مساحة واسعة.... وقتها لم يكتفِ المعلم بإهانته وضربه أمام رواد المقهى... بل وإمعانًا في العقاب أمسك بيده الغليظة ميتة الجلد قطعة من الفحم المشتعل وكبسها بلا رحمة على وجنة كريم الذي تعالت صرخاته في المقهى قبل أن يتدخل رواد المقهى لنجدة الفتى واستسماح المعلم والاعتذار له عن فعلة الصبي!!.

لم يصدر عن والد كريم وقتها رد فعل سوى أنه آنب ابنه متعللًا بأن (الواحد لازم يتعور عشان يتعلم) و أن (الحياة مش سهلة).... لكن كريم لم يبتلع الإهانة.. ولم ينسَ.. وظل يحضر انتقامه في نفسه حتى جاء اليوم الذي استيقظ فيه المعلم من قيلولة العصاري على صراخ زوجته بأن المقهى قد احترق تمامًا وكان ذلك بعد حوالي شهرين من واقعة حرق المعلم لوجنة الصبي... وفيما بعد اكتشف المعلم المنهار ماديًا ومعنويًا سبب احتراق المقهى.. حيث رجح رجال الإطفاء الذين وصلوا متأخرين كعادتهم أن السبب هو قطع من الفحم المشتعل سقطت - عن طريق الخطأ - على المناضد المغطاة بالأقمشة الرخيصة التي كان يفتخر المعلم بامتلاكها فامتد اللهب ليمسك بكل ما حوله من الأقمشة وأغطية الحائط المصفوفة للزينة.

اعترف كريم «لعبد 125» وقتها بسبب الحرق ثم اعترف أيضًا بنبرة يشوبها التشفي عن انتقامه الشرس... حيث استغل الفترة القصيرة في العصاري والتي يخلو فيها المقهى من الرواد ويستريح صبية المقهى

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مطمئنين إلى هيبة المعلم ورهبة الجميع من المساس بأي شيء داخل المقهى... وكان كريم قد ترك العمل في المقهى بعد الواقعة مباشرة فتسلل إلى الداخل وأسقط الفحم المشتعل على المناضد.

وكما اعترف كريم لصديقه... صارحه «عبد 125» بما يحدث مع جارته عبير وتخوفه من وقوع المحظور.. فما كان من كريم كعادته إلا أن أبدى رأيه الصريح الوقح المتخصص في أحوال وشئون النساء قائلًا:

- هذه المرأة ترغبك وبشدة... علاقة سهلة ومجانية مع امرأة شهية ولذيذة.... عليك أن تخوض في هذا الأمر يا صحوب.

وقتها ضحك «عبد 125» من تفكير صديقه... وإن لم يترك الكلام ذهنه وظل عالقًا به يعيد التفكير فيه وتقليبه على كل الوجوه.. ثم استبعده بعد فترة، فقد كان يخشى ذنب المعصية.. أو هكذا كان يحب أن يعتقد!.

اقترب كريم من المقهى وتهللت أساريره لما رأى صديقه جالسًا بانتظاره.

صدفة غريبة وموقف سيئ هو الذي جمع بين «عبد 125» و«كريم العامل»... ففي بدايات مراهقة كريم.. بدأ بالعمل كعامل لجمع القمامة.. فكان يمر على المنازل ليسلمه أهلها حصيلة اليوم من القمامة فيأخذها ويذهب بها إلى منطقة مهجورة بعيدة فيلقي بها الأكياس المنتفخة بالقمامة.. وفي أول كل شهر كان يمر على المنازل مطالبًا بأجره.. كان سعيدًا بعمله وكان والده العامل البسيط سعيدًا به لأنه يساهم في

الإنفـاق على البيت على ما هم فيه من فقر وعوز بالإضافة إلى مرض أمه المستعصي... لكن أهل المنطقة التي صادف أن «عبد 125» يسكن بها لم يكونوا سعداء بهذا الفتى المشاغب ذي العلامة الشيطانية على وجنته.... فقد كان الفتى - وهو المراهق ذو الستة عشرة عامًا وجسد يماثل ضعف مـن في مثـل عمره - يتعمـد المرور على المنـازل وقت ما قبـل الظهيرة بقليل... حيث تكون المنازل قد خلت من رجالها ولـم يبقَ بها إلا النسـاء والفتيات اللاتـي يخرجن إليه بأكياس القمامة مطمئنين إلى معرفته فكان يمتع عينيه بتفاصيل أجسـادهن من سيقان منفلتة من أطراف الملابس أو أذرع ممتلئـة منعمة تظهر مع انحسـار الأكمام... ومع تسـرب الخبر إلى الأزواج مـلأ الغضب صدورهم وضاعفوه بانفعـالات اجتماعاتهم على المقهـى.. فانتظـروا مروره آخر الشـهر كعادته ليتلقى أجـره إذ يمر وقتها فتـرة ما بعد العصر... وقام أحدهم وافر العضـلات قوي البنية بجره إلى منتصـف الطريق ثم تكاتل عليه الرجال ضربًا وكان الفتى مع قوة جسـده ضعيفًا أمام هذا الحشـد الغاضب فلم يملـك لهم صدًّا أو ردًّا.. وصادف فـي هـذا اليوم أن مر «عبـد 125» عائدًا من مدرسـته الثانويـة وكان وقتها مازال طالبًا بها.. رأى تجمهر الرجال فاقترب مستوضحًا حتى رأى الفتى الغـارق وجهه فـي الدماء يتلقـى الضربات فـي مركز التجمهر... أسـرع مقتحمًا الصفوف محاولًا تخليصه وهو يصيح في الجمع الغاضب:

- توقفوا.. سيموت.. سيموت.

توقـف الرجال والتفتـوا متحفزين نحو مصدر الصـوت فلما رأوا أنه «عبد 125» المعروف بأدبه وأخلاقه في المنطقة وابن «قاسم المحاسب»

الرجـل الأصيل ابن الحتة الذي رفض الانتقال إلى مسـاكن طائفة العبيد العليـا مـع ترقيه في عملـه وآثر البقاء وسـط أهله وناسـه محتفظًـا براتبه الجديد وسـكنه القديم... توقـف الرجال فورًا عن ضـرب كريم وبدأت شـكواهم إلى «عبد 125» الذي أخبرهم أنه سيتصرف معه وأن عليهم ألا يقلقوا في هذا الشـأن... فما أن انفض الرجال من حوله حتى انحنى على الفتـى- الـذي كان يراقبه طوال الوقت على الرغم مـن موقفه الصعب - وسأله إن كان بخير.

وقد كان كذلك على الرغم من الدماء المتسربة من جروحه.

فـي تلك اللحظـات الدقيقة... تلـك الدقائق التي قـد تغير من منهاج سـير حياة شخص بفضل شخص آخر.. في إحدى تلك اللحظات نشأت الصداقـة المتينة بيـن كريم و«عبـد 125» الذي على الرغـم من اعتراض أهلـه علـى مصاحبتـه إياه لكونـه فتى العبيـد الدنيا ذا السـمعة السـيئة... فتى مشـاكس وغير أخلاقـي... إلا أن «عبد 125» أصـر على صداقته مع ذلـك الفتى متعللًا بـأن «كريم العامل» وعلى الرغم مـن عيوبه إلا أن فيه أصالة وشـهامة تندر أن توجد في معظم رفاقه إن لم يكن كلهم وهم أبناء الطائفتين الوسطى والعليا.

بمجـرد وصوله إلى المقهـى اندفع كريم نحو «عبـد 125» معانقًا إياه بقوته الرهيبة ثم جلس بصخبه المعتاد قائلًا:

- كيف الحال ياصحوب؟!.

رد «عبد 125» بابتسامة:

- الحمدلله بخير.. ما آخر الأخبار؟!.

قال كريم بابتسامة عريضة لا مبالية:

- تم طردي من العمل مرة أخرى.. لقد حققت رقمًا قياسيًا في هذا المجال.

بهت «عبد 125» للخبر السيئ وتعجب من لا مبالاة صديقه وقال:

- ماذا؟!.. كيف حدث هذا؟!

ثم اتسعت عيناه ذعرًا حينما لاحظ ملابس«كريم العامل» الكاملة:

- وأين درع العبيد؟!.. وكيف ترتدي قميصًا؟!... هل جننت؟!.. لو رآك أحد رجال أمن النظام....

قاطع كريم كلام صديقه قائلًا ببرود:

- فليفعلوا ما يريدون.. لقد تركت الدرع في المنزل.. لن أرتدي هذه الخردة مرة أخرى... لسنا كلنا ملتزمين مثلك يا صحوب.

صاح «عبد 125» قائلًا:

- هذا الالتزام إجباري أيها الأحمق وليس اختياريا.. هل تعلم أنه بعد تسلمك الدرع من مؤسسة الأحوال المدنية فإنهم يرسلون خلفك أحد رجالهم ليراقبك لعدة أيام كي يتأكد من التزامك بارتداء الدرع... وماذا ستفعل إذا أوقفتك أي دورية لتسألك عن بطاقة العمل التي تتيح

لـك ارتداء هذه الثيـاب؟!... هذا هـو القانون ياصديقـي.. ويجب علينا الالتزام به.

انفعـل كريم فجأة وصاح قائلًا بصوت لفت انتباه معظم رواد المقهى فأصاخوا السمع:

- عـن أي قانـون تتحدث يا صديقي.. أنت تعلم جيدًا أن هذا القانون اللعنة يسري فقط على أبناء طائفتي العبيد الوسطى والدنيا... طائفة الحمير لهم أعمالهم وقوانينهم الخاصة... وطائفتا العبيد العليا والوحوش أفضل فـرص العمل محجـوزة لأبنائهم دون أدنى تعب أو جهـد مبذول منهم.. كمـا أنهـم يفلتون بكل سـهولة من فتـرة العبودية الإجباريـة.. وحتى من لا يعمـل منهـم لا يجـرؤ رجال أمـن النظام علـى الاقتراب منـه أو حتى استئذانه في ارتداء درع العبيد وإلا فقدوا وظائفهم فورًا... نحن فقط من كتـب علينا الذل والخضوع للإهانـة والضرب والألم دون أن نجرؤ على الـكلام حتى... لماذا نخضع ياصحـوب.. لماذا نرضى بالمذلة والمهانة من بشر ليسوا أفضل منا في شيء؟!.

ظل «عبد 125» محدقًا باسـتغراب في صديقـه بعد انفعاله المفاجيء وكلامه غير مأمون العواقب ثم قال بهدوء:

- واضح أن هند قد لعبت في دماغك بأفكارها الثورية... توخَّ الحذر ياصديقـي فليس كلامي إلا خوفًا عليك من أذى هذا الطريق.. من قسـوة رجال ترسَّخ في دمائهم مفهوم السيد والعبد.. احذر ياصديقي.

صمت كريم فترة وقد أنبه ضميره على الانفعال في وجه صديق عمره بهذه الطريقة الفجة ثم بدا أنه قرر تغيير دفة الحديث برمتها فسأل صديقه بابتسامة وغمزة من عينه اليسرى:

- ما أخبار حبيبة القلب صحيح؟!.

ظهر الضيق على وجه «عبد 125» فسارع صديقه بالسؤال وقد أنبه ضميره للمرة الثانية:

- ماذا حدث.. هل تشاجرتما مرة أخرى؟!

قال «عبد 125» بابتسامة حزينة على وجهه:

- مشكلة ليلى هي عنادها الزائد عن الحد.. كل ما تريده هي أو تفكر فيه لا بد أن يحدث مهما كان الثمن... هي هكذا معي أنا فقط.. مع باقي الناس أراها طبيعية جدًا بلا متطلبات زائدة بل وتكاد تتصرف بطاعة ولطف كاملين... هل السبب في ذلك أنني أمثل إحباطًا بالنسبة لها.. كوني عبدًا حتى الآن... هي طموحة جدًا أنا أعلم... ولكني أحبها جدًا... أحبها إلى حد العشق صدقني.. هل يرضيها حبي وتغضبها بطالتي وعبوديتي فتتصرف هكذا؟!... في أوقات الصفاء بيننا أكاد أقسم بعشقها لي من خلال حديثها وحركاتها.. فما المشكلة معها إذن؟!... لا أدري.. آخر مرة رأيتها فيها بدأت كلامها بانتقاد الدرع والسخرية من عبوديتي حتى الآن بينما كل من تعرفهم وجدوا وظائف جيدة وتخلوا عن الدرع... وعندما واجهتها بمشكلتها غضبت مني ونعتتني بالفاشل وتركتني باكية!.

ربت كريم على كتف صديقه بعد انتهائه من حديثه ثم قال بنبرة تهدئة:

- لا تقلق ياصحوب.. هي تحبك أنا واثق من ذلك.. ستتصلح بينكما الأمور وستجد عملًا يليق بك وستتزوجها... لا تخف.

ثم طرأت على ذهنه فجأة فكرة فقال:

- ما قولك أن نخرج أنا وأنت مصطحبين هند وليلى معنا في موعد ثنائي... وسنحاول الإصلاح بينكما أنا وهند... ما رأيك؟!

ابتسم «عبد 125» وقال مبتهجًا:

- فكرة عظيمة.

قال كريم بنبرته الجهورية:

- رائع... نلقاكم السبت القادم بإذن الله في الحديقة الدولية.

ثم أردف قائلًا:

- كل شيء سيكون بخير.

شرد «عبد 125» ببصره بعيدًا مرددًا بلا وعي منه:

- أجل.....

.... كل شيء سيكون بخير.

***

القانون العاشر:

«فيما يتعلق بشكل وهيئة العبيد.. على العبد ارتداء درع العبودية (قطعة كبرى تغطي الرقبة وأعلى الصدر محفور عليها رقم العبد). في أي وقت خارج مسكنه ويجب عليه ألا يرتدي أي ملابس تعمل على إخفاء هذا الدرع أو جعله غير واضح ومميز.

على الأمة ارتداء طوق العبودية (قطعة صغرى تغطي الرقبة فقط) ولا ينطبق عليها ما يخص العبيد في شأن الملابس.

* * *

- هند... هند... اصحي يا هند.

- نعم يا ماما.. مال صوتك... فيه إيه؟!

- كريم يا هند.. كريم.

- ماله يا ماما؟!

- قبضوا عليه.. أمن النظام أخدوه!.

* * *

«الحب ثورة على المألوف... الحب ثورة على النمط التقليدي الكئيب لحياة منعدمة أسباب الفرحة».

ياسر الكاتب

* * *

شاعرًا بالاختناق ترك «وليد الصحفي» والده أمام التلفزيون ونزل إلى الشارع لاستنشاق بعض الهواء ومحاولة تهدئة أعصابه الثائرة.. كان حانقًا على كل شيء... على أهله الجبناء ودولته الخائنة والعبودية المقيتة التي تنتظره فور انتهاءه من دراسته...

كانت روحه تتألم ولم يكن أمامه ما يمكن أن يخفف عنه آلامه إلا الكتابة الثائرة ومحاولة نشر بعض مقالاته وأشعاره في المجلات ضعيفة التوزيع .. حتى الكتابة باتت تزيد روحه التهابًا.. وترفع معدلات غضبه.. لم يعد يدري كيف يواجه هذا الألم المرهق.. يتذكر أنه في صباه كان كلما تألم أو أصيب جسده بجرح أو رضوض .. يجهد عقله لتذكر آخر مرة فعل شيئًا سيئًا «يزعل منه ربنا» كما كانت أمه تقول... ويؤكد لنفسه أن هذا الألم هو عقاب من الله على ما كان قد فعله مسبقًا... ثم يفرح بذلك لأنه يتذكر قول أمه في مناسبات عدة أن من يعاقبه الله في الدنيا عن أمر فعله رفع عنه عقابه في الآخرة عن نفس الأمر.. هكذا كان يواجه آلامه في الماضي.. حسنًا.. كان ذلك منذ زمن بعيد جدًا.. أما الآن فقد ذهبت تلك البراءة تمامًا وأخذ الغضب مكانها... ذهبت وربما أخذت معها إيمانه المطلق بالله نفسه.

لا فائدة.. نفسه الغاضبة لا تهدأ مهما نهبت قدماه من الطريق.. جلس على الرصيف محدقًا بأعين لا ترى في المارة والسيارات محاولًا تشتيت فكره عن ذلك الخطاب الذي سمعه للتو من رئيس الدولة على شاشة التلفزيون.. خطاب حقير ومستفز..

«على من يكذب بالضبط؟!.. علينا. ؟!.. هل يعتقد أننا بهذا الغباء لنصدق الأرقام والإنجازات الاستثنائية المذكورة في الخطاب!.. هل يظن أننا سنصدقه لمجرد أنه خرج علينا بورقة جاهزة في يده وأسئلة ساذجة معدة مسبقًا من صحفيين اتخذوا من النفاق مهنة لأكل العيش... ولأكل ما هو أفضل من العيش.. أم هو يكذب على نفسه؟!... خلق لنفسه صدفة قوية تقوقع بداخلها وعالما جديدًا يزين تلك الصدفة من الداخل فيرى بعينيه المتوهمتين إنجازات سرابية وانتصارات جاهزة.. يرى شعبًا يطيعه لأنه يحبه وليس خوفًا من بطش رجاله.. يرى رجال أمن لطفاء يجيدون فن التعامل مع المواطن بطريقة تشعره بآدميته ولا تهدر حقوقه وكرامته.. يرى عبيدًا فخورين بدروعهم النحاسية اللامعة ومستعدين للعمل بدون أدنى مقابل.. يرى تقدمًا ورخاءًا واستقرارًا.. وحلفاء لا مصلحة لهم إلا نهضة البلد... ألم يسأم بعد من الكذب على نفسه... ألم يَرَ كذبه ينعكس واضحًا في أعين المحيطين به... كذب في كذب.. هذه هي حياتنا في أرض الكذب وتعاملنا مع حكومة الكذب التي يرأسها رئيسنا الكاذب الأكبر».

كان دم وليد قد بدأ في الغليان داخل عروقه من شدة غضبه وسخطه على بلده «أرض الكذب» كما يسميها..

يكره الكذب... يكره ذكره أمامه حتى... لأنه يجر إلى ذاكرته موقفًا مهما أجبر نفسه على نسيانه لا يستطيع... موقفًا يشكل خطًا فاصلًا في حياته... اعتاد في صغره على صلاة الأوقات الخمسة في المسجد المجاور لمنزله... ساعده على ذلك تنشئة أمه له على هذه العادة

www.ibtesama.com

وتحفيزها المستمر له بأن يذهب إلى المسجد قبل كل صلاة بوقت مناسب.

وإذا حانت الصلاة وقت اللعب كان يذهب إلى المسجد مصطحبًا معه صديق صباه ولعبه «هشام الطالب»... كانا يصليان كتفًا إلى كتف متخذين ركنًا قصيًا وراء صفوف المصلين... كانا يصليان وهما يجاهدان لإخفاء ضحكاتهما المكبوتة التي ما أن يشرعا في الصلاة متجاورين حتى تبدأ في الانسياب بينهما في تيار متذبذب ومدغدغ ينتقل بينهما بحرارة الضحكة.. حيث يذهب بذاكرة أحدهما موقفٌ أو مقلب مما صنعاه قبل الدخول للمسجد فيبدأ بالضحك بخفوت فلا تلبث عدوى الضحك أن تنتقل إلى زميله وقد انتقلت إليه مع تيار الضحكة ذاكرة الموقف أو موقف آخر مشابه..

كانا ذلك اليوم قد قاما بالعديد من المقالب في مارة الطريق فوقفا كعادتهما متجاورين يكتمان ضحكهما بصعوبة بالغة.. وإذ فجأة وقبل انتهاء الصلاة مباشرة لم يستطع صديقه السيطرة على نفسه فانفلت ضاحكًا بصوت عالٍ وسط السكون التقليدي للمسجد فكانت ضحكته بمثابة قنبلة صوتية انفجرت بعنفوانها في مركز المسجد مباشرة وأصاب أذاها كل من فيه.

انتهت ضحكة صديقه فجأة وقد أصاب وجهه شحوب رهيب.. ولم يكن وليد آنذاك أقل شحوبًا من صديقه فقد أيقنا أن نهايتهما اقتربت..

أنهى الإمام الصلاة بسرعة وانزعاج واضح ثم التفتت جموع المصلين كلها نحوهما في ركنهما القصي من المسجد وقد علا وجوههم العبوس.

بدأ الناس يخرجون تباعًا من المسجد وهم يرمقونهما بضيق واشمئزاز واضحين ومنهم من ضرب كفيه ببعضهما مستغفرًا الله بصوت عالٍ متعجبًا من أخلاق الجيل الجديد.

..... ثم ظهر أمامهما.....

خرج من بين صفوف المصلين واتجه نحوهما بخطواته الواسعة وهيئته العملاقة تزداد حجمًا كلما اقترب أكثر منهما حتى حجب عن أعينهما مشهد المصلين من خلفه... حدق فيهما بعينين محمرتين من الغيظ... كان إعصار الغضب هذا عبارة عن «محمود الشيخ» والد هشام صديقه الواقف بجانبه... ظهرت على وجه الشيخ الحيرة قليلًا... واضح أنه لم يكن قد حدد بعد كيفية تصرفه في مثل هذا الموقف ونوعية العقاب الواجب تطبيقه حتى لا يقال إن الشيخ محمود تغاضى عن مثل هذه الفعلة الشنيعة الصادرة من الطفلين... ثم يبدو أنه قد اتخذ قراره حيث صوب عينيه المرعبتين نحو وليد وتجاهل وجود ابنه تمامًا ثم التفت إلى المصلين من ورائه صائحًا:

- أنا أعرف هذا الولد... طفل ناقص تربية فعلًا!... حصَّلت يضحك في المسجد؟!.. أنا سأبلغ أباه.

ثم انقـض عليه وقبض بيده العملاقة على معصمه وصفعه بقوة أبكته ثـم جرجـره بدموعه حتـى وصل بيت وليـد ونادى على أبيـه الذي خرج مفزوعًا ليخبره الشيخ أن ابنه ضحك بصوت عالٍ أثناء الصلاة..

كان يكـذب!... كان يعرف أن الفاعـل هو ابنه وقد تعرف على صوته فـي الضحكـة.. لكنه نفى التهمة عن ابنه وألصقهـا به حتى لا يقال إن ابن الشـيخ ضحك فـي الجامع وكأن الضحـك حرام!... أجل.. كان شـيخًا لا تفارق المسـبحة يده... ويزداد عمق ووضـوح زبيبة الصلاة في وجهه كل عام عن العام الذي سـبقه ويتفاخر بزياراته للنبي والكعبة المشـرفة.. ويقـرأ القـرآن علـى رؤوس المكتتبيـن والنسـوة اللائي لا يلـدن ويذبح الأضحيـة بنفسـه كل عـام... ولكنـه تعمـد الكـذب.. كذب وهـو يعلم أنـه يكذب.. كذب وهـو يعلم أن الله يكـره الكذابين... كـذب ثم اتهمه بالكذب.. وبالطبع اتفق والده مع الشيخ على أنه كاذب وبالتالي لم تفلح محاولاتـه لتبرئة نفسـه.. ومن ثـم تضاعف عقابه.. ومـن يومها انقطعت صلته بالمساجد تمامًا وكره كل من يحمل لقب شيخ!.

صـاح وليد من موقعـه على الرصيف وقد زادت ذكرياته من اشـتعال غضبه:

- لن أسـكت أبـدًا على هذا الخطاب.. لن أسـكت على هذا الكذب الوقح... أتسمعني سيادتك. ؟!...

.... أنا أكره الكذابين... أتفهمني؟!...

.... أكرههم!.

* * *

أصاب الحجر ظهر قائد حرس المنطقة الأولى من الحدود الشرقية فتجمد مكانه وتجمد المشهد المرعب تمامًا... اتسعت كل العيون وفغرت كل الأفواه في رهبة من التالي... وثبت الموقف كلوحة سيريالية تمثل الخوف الأزلي من السلطة... كان شعور بقية الحراس عبارة عن مزيج عجيب من الخوف والترقب والشفقة... الخوف من عواقب فعلة الرجل الشبح والتي سينالهم جزء منها... والترقب لردة فعل قائد الحرس.. والشفقة على الرجل المسكين ذي المصير الأسود بكل تأكيد... بينما كان شعور «محمد الحارس» عبارة عن رعب مطلق... رعب صافٍ بلا أية شوائب... رعب تضاعف عشرات المرات عندما استدار قائد الحرس بعيون محمرة تشتعل بوهج الغضب... أدرك وقتها أن أوان الاعتذار قد فات فاندفع نحو يد قائد الحرس محاولًا تقبيلها ملتمسًا المغفرة للرجل الشبح بلسان يلهج بالدعاء لقائد الحرس الذي أعماه غضبه فنفض يد محمد الحارس عنه ودفعه بعيدًا بقوة.. ثم امتدت يده إلى سلاحه بينما اكتفى باقي الحراس بالمشاهدة الخائفة.. وظل الرجل الشبح على وقفته اللا مبالية ودون أدنى تغيير في تعبيرات وجهه وكأنه ليس جزءًا من المشهد الملتهب أو كمن يتابع مسرحية هزلية تمجد القوة المطلقة وشرد في ذروتها..

ارتفعت يد قائد الحرس بسلاحه لتصوبه نحو الجسد الهزيل للرجل الشبح ثم صرخ بصوت غاضب:

- ستعلم الآن نتيجة العبث مع أسيادك أيها الكلب.

كان غضب قائد الحرس قد أخل ميزان تصرفاته وأفقده قدرة الحكم على أفعاله قبل القيام بها وطغى على الجزء الضئيل المتبقي من آدميته المشوهة.. لذلك باتت عملية قتل الرجل الشبح مؤكدة تفصله عنها ضغطة على الزناد.

ولكن قبل انتقال هذه العملية من حيز التفكير إلى حيز التنفيذ فوجيء قائد الحرس وكل محيطيه في المشهد بمحمد يقف بجسده فاردًا ذراعيه تمامًا أمام الرجل الشبح بحيث تكفل جسده بتغطيته تمامًا عن مدى إصابة سلاح قائد الحرس... كانت هذه الحركة المفاجئة والتي فوجيء محمد الحارس نفسه بقيام جسده بها بلا أي تفكير منطقي منه كفيلة بإرباك قائد الحرس تمامًا فاهتزت يده حاملة السلاح في تردد من هيبة الموقف.. فهو لن يستطيع قتل أحد رجاله بنفسه.. ليس دون تهمة كافية على الأقل.. أحدثت حركة محمد تغيرًا رهيبًا في الأثير الشعوري المحيط بالمشهد، فكما تردد قائد الحرس في إطلاق الرصاص اندفع الحراس المحيطون - وقد انتابهم الخوف على مصير زميلهم الطيب المسالم - نحو قائد الحرس يستغفرون لفعلة الرجل الشبح ومرددين كلمات التملق المعتادة.

«معلش يا باشا... أنت الكبير دائمًا».

«متصغرش نفسك قدام الناس دي يا باشا».

«سامحه يا باشا.. كله في ميزان حسناتك المليان».

«تتردلك صحة ليك ولعيالك يا باشا.. سامح الراجل المرادي».

حتى الرجل الشبح نفسه أصابه شيء مفاجيء من التغير الشعوري فقد اتسعت عيناه انبهارًا بالموقف الشجاع لمحمد الحارس.

وجد قائد الحرس أن هذا المشهد السخيف قد طال أكثر مما ينبغي وأن ضغط الموقف وإلحاح الحراس قد وصل إلى حد لا يُحتمل فصرخ فيهم بصوت جمد ألسنتهم ودماءهم:

- اخرسوا.

ثم التفت ببطء إلى محمد الذي كان لا يزال على وضعيته الجسدية حاميًا الرجل الشبح ثم قال وهو يشير بإصبعه متوعدًا:

- سأترك الموقف يمر هذه المرة بمزاجي يا ابني أنت... وإن كانت حركتك هذه لن تعود عليك بالخير... هذا الموقف لم ينتهِ بعد.. وهذا الكلب يختفي من هنا في الحال ولا أراه أبدًا لبقية حياتي وإلا سأنهي حياته.. وأنت.. احمد ربنا إني سأتركك تحتفظ بوظيفتك.

انطلقت ألسنة الحراس جميعهم بما فيهم محمد تثني على طيبة قلب قائد الحرس وحسن تصرفه وحكمته إلى آخر تلك الكلمات المحفوظة المتملقة للسلطة فأولاهم قائد الحرس ظهره شاعرًا بالرضا المطلق عن نفسه.

سار نحو مكتبه... سير المسيطر.. سير من يدرك أن الرهبة من السلطة باتت داءًا عند هذه الأمة وأن العبودية في بلادنا لم تعد مجرد قوانين... بل أصبحت طبعًا.. وحياة.

* * *

«عبيد السائق»... سائق إحدى سيارات الإرسال التلفزيوني المملوكة من قبل قناة الدنيا وأكبر السائقين سنًّا.. لم يفعل شيئًا ذا قيمة في حياته، ورغم معرفته بهذا إلا أنه لا ينفك يتفاخر بأنه قد قاد جميع أنواع السيارات منذ السبعينات وحتى هذه اللحظة ومن مختلف الأحجام أيضًا... بل يزعم بأنهم قد استعانوا به لقيادة سيارة الملك في الزمن السابق للعبيد.. وذلك عندما مرض السائق الخاص للملك... وأن الملك قد أعطاه بعد ذلك مكافأة كبيرة ابتاع بها سيارة أجرة أحدث موديل.. فإذا سألته عن هذه السيارة أخبرك بأنها تحطمت في حادث مأساوي على الطريق السريع وأنه لولا حظه الحسن ما خرج حيًّا من ذلك الحادث... يخبرك بهذا ثم يتنهد بقوة ويقول بأسى:

«عيون الناس يا ولدي».

وكنتيجة لأحاديثه المتفاخرة وكبر سنه فقد اكتسب سلطة وهمية بين زملائه السائقين فأصبح الشباب يعاملونه على أنه أبوهم والأكبر سنًّا، يعاملونه على أنه كبيرهم.

فإذا ما شبت مشادة بينهم ذهبوا إليه وإذا ما احتاجوا نصيحة توجهوا إليه ليستفيدوا من علمه المزعوم... بل والأهم من ذلك أنه أصبح يتلقى راتبه آخر الشهر نظير جلوسه على مقعد مجاور لبوابة مبنى القناة طيلة الوقت شاربًا الشاي المحلي بخمس ملاعق سكر وممازحًا المارة ومركزًا مع تضاريس النساء... وذلك لأن عمله يقوم به غيره من السائقين الشباب على سبيل المجاملة لكبيرهم... شخص واحد فقط يجعل عبيد يقفز من مقعده بحماس ويذهب لتجهيز إحدى السيارات بل ويقودها بنفسه دائمًا... كان هذا الشخص هو«سعاد المراسلة».. كان يكن لها عشقًا سريًا... رغم كبر سنه مازالت نفسه تتوق للحياة.. توفيت زوجته منذ أمد بعيد ومن وقتها لم يتزوج.. بل استبدل الزواج بالنزوات الشهوانية المطلقة حيث كوَّن نظريته الخاصة.. الزواج يمكنك من امرأة واحدة فقط.. بينما النزوات تتيح لك امتلاك كل ما تقع عليه يداك وتذوق كل النكهات... وكانت سعاد المراسلة إحدى تلك النزوات.. بل كانت نزوة النزوات.. كان يشعر بأنه إذا امتلكها لمرة واحدة فقط فسوف يفقد شهوته للنساء جميعًا من بعدها.. يتمنى الحصول عليها ولكن.. كيف السبيل إلى ذلك وهو السائق العجوز عديم القيمة بينما هي من أشهر المراسلات في أرض العبيد... هي أهم من مذيعات كثيرات ولولا نفورها من أن تصبح مذيعة لأنها تكره الجلوس في مكان واحد وترديد كلام محفوظ كالببغاء كما يشاع لأصبحت المذيعة الأولى في القناة... كما أن مدير القناة يحبها، بل وهناك إشاعة بأنه على علاقة غرامية معها.

لذلك توقف عبيد عن تمني حدوث معجزة تمكنه منها وعاد إلى أرض الواقع راضيًا بقيادة السيارة وجلوسه بجانبها طوال الطريق وتلك النظرات المدققة لكل تفصيلة فيها والتي يأخذ وقته ويتمهل فيها متمنيًا عدم زوال اللحظة بينما هي تتحدث على الهاتف أو مع عماد المصور معظم الوقت متجاهلة وجوده.

هذا طبيعي.. فلا أهمية للسائق ولا وجود يذكر له سوى توصيل المتعجرفين في الميعاد.

- أسرع قليلًا يا عم عبيد.

قالتها سعاد بعصبية حقيقية هذه المرة أخرجت عبيد من حالة الاستمتاع بالنظر إلى أردافها وأعادت انتباهه إلى الطريق وزاد السرعة قليلًا وإن ظلت مع ذلك السرعة الكلية للسيارة قليلة جدًا.

«هذا العجوز الأحمق.. لماذا مازال يعمل حتى الآن.. فليبحث عن مكان يموت فيه بهدوء ولا يزعجنا أو يعطل مصالحنا».

فكرت سعاد بذلك بعد عصبيتها على الرجل.. يالله... كم تكره هذا العجوز اللزج... لا ينفك يتأملها بوقاحة طيلة الطريق... وفي أي مهمة يخرجون فيها يصر على أن يكون هو سائق السيارة.. يقود ببطء شديد كما لو كان خائفًا من الطريق ومهما صرَخَت في وجهه لا يبدو على وجهه المحمر من فرط الإثارة سوى تعبيرات مبهمة بلهاء من بينها الارتباك وليس من بينها الإحراج أو الخجل.. أو حتى لمحة من الغضب

لصياحها المستمر في وجهه... يالوقاحته.. لولا أنها تكره القيام بذلك لأوصت مدير القناة بفصله منذ أمد بعيد.

التفتت سعاد نحو «عماد المصور» الذي كان قد أنهى اتصاله التليفوني للتو وسألته:

- هاه؟... ماذا وجدت؟!... فأنا لم أعرف تفاصيل القصة بالكامل من مصدرنا.

- قصة مأساوية تقليدية... عندما يجتمع الفقر والجوع والطمع على إنسان فيتحول إلى وحش دامٍ لا مبالٍ بعواقب أفعاله.. القصة عبارة عن أخوين من أسرة فقيرة من طائفة العبيد الدنيا.. أب متوفى منذ زمن.. وأم تبيع الخضراوات في السوق ولديها بجانب هذين الأخوين أربعة من البنات.. من خلال حديث الجيران اتضح أنها كانت تولي البنات اهتمامًا عاليًا ولم تهتم ماديًا بأي من الأخوين باعتبارهما رجلين قادرين على العمل... نبتت في ذهن أحدهما فكرة مشروع مذهل سيمكنهم من كسب قوت يومهم والعيش بطريقة مناسبة.. وبالفعل بدأ الأخوان المشروع الذي لم يكن سوى مشروع تقليدي يقوم على شراء أجهزة هاتف محمول من خارج أرض العبيد بسعر أقل من خلال أحد أقاربهم المهاجر منذ فترة طويلة... ثم تهريب هذه الأجهزة داخل أرض العبيد وبيعها للموزعين بسعر أقل من السعر الرسمي ثم تسديد دينهم لقريبهم... نجحت عدة عمليات تهريب ومن خلالها تجمع لدى الأخوين مبلغٌ من المال أغرى أحدهما بالاستحواذ عليه وشراء سيارة أجرة يعمل عليها،

بينما كان الآخر يطمع في الزواج بجزء من هذا المال... احتد الموقف ونشبت المشادة الكلامية التي انتهت بالأخ الطامع رافعًا سكينًا في وجه أخيه بينما الأم تشاهد ما يحدث بقلب قتل الفقر واليأس ووفاة زوجها كل ما بقي به من عواطف... جن جنون الأخ الثاني لدى رؤيته أخاه يرفع سكينًا في وجهه فاندفع مهاجمًا إياه... واشتبك معه في قتال انتهى بالسكين مغروسًا في رقبة الأخ الثاني.. بينما الأخ الطامع يشاهد دم أخيه المهدور ويفكر كيف سيشتري سيارة الأجرة الآن إذا كان في السجن.. أو ربما يشتريها ويجعل أحد السائقين يعمل عليها ويودع النقود باسمه في البنك حتى يخرج.

أنهى عماد قصته مع بعض الإضافات الدرامية كعادته ليثير إعجاب من حوله بينما ظلت سعاد على صمتها لعدة دقائق قبل أن تقول ببطء:

- قصة مثيرة... لكن تقليدية إلى حد ما فعلًا.. ليس هذا ما نريده... نحن نريد قصة الموسم يا عماد... نريد حدثًا قويًا.

ابتسم عماد بخبث قبل أن يميل عليها قليلًا قائلًا:

- سمعت أنك مهتمة بقصة الرجل المجنون عند الحدود الشرقية.

نظرت إليه بدهشة كأنها تتساءل من أين علم... ثم قررت أن تلقي التساؤل خلف ظهرها واندفعت في الكلام بجدية قائلة:

- هذا الموضوع هو قصة الموسم فعلًا... منذ سمعت عنه من ذلك الرجل «محمد الحارس» وسمعت جزءا من القصة من قائد الحرس

السابق وفضولي خرج عن حده وسيطر على كل عقلي.. والأكثر من هذا.. عندما سمعت بالحادثة التي وقعت بينه وبين قائد الحرس الحالي وأنا لم أهدأ ولن أهدأ ويستقر عقلي ويشفى جنوني إلا عندما أنهي هذه القصة وأحصل على السبق.

قال عماد بفضول:

- وماذا عرفتِ حتى الآن؟!

ترددت قليلًا في الكشف عن معلوماتها ومصادرها لكن نظرًا لثقتها في عماد وقربه إلى قلبها وعملهما الدائم معًا لم يطل ترددها كثيرًا واندفعت في الحديث المفصل:

- قمت باستطلاع رأي واسع على مستوى القرى المنتشرة بالقرب من الحدود الشرقية مستخدمة نفوذًا قويًّا وتصاريح مرهقة حتى أتحرك بحرية دون مضايقات من الأمن... وكانت المفاجأة التي وجدتها هي انتشار أسطورة قوية وشائعة جدًا بين القرويين عن هذا الرجل المجنون.. يعتقدون جميعهم أن هذا الرجل هو المالك الفعلي والحقيقي لأرض العبيد وأن أجداده تم عزلهم من الحكم ونفيهم من البلاد من قبل الحكام الأوائل الغزاة... وأن هذا الرجل يظهر كل فترة على الحدود التي طرد منها أجداده شر طردة ليهيموا في الصحراء.. يظهر ويظل واقفًا متأملًا في ملكه المنهوب لاطمًا وجهه حزنًا وقهرًا.. منتظرًا من يلبي النداء ويحرر أرضه من الغزاة ويعيدها إليه.

فغر عماد فمه على اتساعه دهشة واستغرابًا مما سمعه للتو.. قصة لا تصدق وأسطورة تضاهي في قوتها وانتشارها بين هذا العدد من القرويين قوة الأساطير الإغريقية القديمة..

قال فجأة بحماس لم يستطع إخفاءه:

- قصة مذهلة.. يجب أن نستمر في الحفر حتى نصل إلى نهاية القصة ومركز هذا السبق المثير.

ابتسمت سعاد إعجابًا بحماس عماد ثم قالت:

- لا تقلق.. لقد رتبت كل شيء.. أعطيت «محمد الحارس» رقم هاتفي وطلبت منه الاتصال بي في حال خلو المكان وانصراف قائد الحرس حتى نتسلل بسهولة تامة.. كما أنه بصفته صديق هذا الرجل المجنون فسوف ييسر لنا الحديث والتفاهم معه.. لا تقلق سوف يتصل فقد أغريته بمبلغ من المال يفوق راتبه لمدة سنة.

غمز عماد بعينه قائلًا:

- فنانة.

أخذت سعاد تضحك بانتشاء داخل السيارة المتحركة بأقل سرعة ممكنة، بينما في نفس الوقت عند الحدود الشرقية لأرض العبيد كان «محمد الحارس» جالسًا بمفرده مراقبًا صديقه الرجل الشبح من بعيد ومطمئنًا إلى خلو المكان وبدأ يعيد ترتيب أفكاره... هل ينبغي عليه الاتصال بتلك المراسلة الحسناء أم أن هذا سيجر عليه المتاعب التي

أصبح بالفعل غارقًا فيها حتى عنقه منذ حادثة إلقاء الرجل الشبح للحجر على قائد الحرس.

هـل اتصاله بها سـيكون من مصلحة الرجل الشـبح إذ سـتعلم أرض العبيد كلها بوجوده أم سـيوقعهم جميعًا في المشـاكل ويودي به والرجل الشـبح إلى جهنـم الأرضية... كما أن تلك المراسـلة عرضت عليه مبلغًا ضخمًـا من المـال والله وحده يعلم كم يحتاج إلـى المال الآن خصوصًا مع اقتراب ميعاد ولادة طفله الأول...

لن يحدث شـيء للرجل الشـبح أسـوأ مما حدث له بالفعل في حياته البائسـة... أما هو فسـيقول إنه لم يرهم وأنهم لم يسجلوا معه ذلك اللقاء في منطقة حراسته وبهذا يهرب من المتاعب المنتظرة وليسامحه الله.

اتخـذ قراره وأكد على نفسـه للمرة الأخيـرة أن هذا من أجل مصلحة الرجل الشـبح ولاحتياجه الشديد للمال، ثم أمسك هاتفه واتصل بهاتف سعاد المراسلة.

انطلق الرنين المميز لهاتف سعاد المراسلة في سيارة القناة فأمسكت به ونظرت للاسـم الظاهر على الشاشـة قبل أن تبتسـم بظفر مطلق وتنظر لعماد المصور الذي فهم ما يحدث فاتسعت عيناه قائلًا:

- مـاذا؟!.. الآن؟!... لكن من المفترض أننا متجهون للتسـجيل مع والدة الأخ قاتل أخيه.

زفرت سعاد المراسلة بعصبية وقالت:

- اللعنة عليهم جميعًا... كان الأحرى بها أن تربي ولديها جيدًا... فليحترقوا جميعًا في الجحيم.

صُدم عماد من رد فعل سعاد وانعقد لسانه بينما التفتت هي إلى عبيد مسترسلة:

- عم عبيد.. أمامك حل من اثنين.. الأول أن تتوقف عن النظر إلى فخذي وتقود السيارة بأقصى سرعة لها نحو الحدود الشرقية... والثاني أن تستدير عائدًا بنا إلى القناة حتى أجعل مدير القناة يوقع على قرار فصلك من العمل الذي لا تعمله من الأساس.

اتسعت عينا عبيد هلعًا وارتجفت يداه وهو ينفذ ما أمرته به بينما التفتت هي مرة أخرى إلى عماد وقد تحولت إلى كتلة متوهجة من الحماس المشتعل الذي لا يعرف معنى الاستسلام ثم قالت وهي تشير إلى الهاتف:

- أبشر يا عماد واستعد...

.. فقد حانت ساعة الصفر.

* * *

وقف «كريم العامل» أمام المرآة في حجرته متأملًا نفسه وقد انقسم إلى جزئين غير متماثلين بفعل الشرخ الكبير الماثل في زجاج المرآة... منذ خروجه من سجن العبيد وهذا الشرخ في المرآة أصبح مستقر أنظاره طيلة الوقت... لم يعد يراه شرخًا عاديًا في مرآة عتيقة... بل أصبح يرى

فيه الشرخ العميق الذي حل بروحه... شرخًا عملاقًا يقسمه إلى جزئين غير متماثلين حجمًا وقيمة... جزء الحياة ما قبل اعتقاله.. حياة مقبولة بالكاد يمكن بصعوبة أن يلمح فيها سراب الأمل من بعيد... وجزء انطفاء الروح من بعد خروجه من المعتقل... سمع كثيرًا عن فظاعة المعتقل وفظاظة الضباط وبشاعة تعاملهم حتى مع المتهمين بأبسط التهم كعدم ارتداء درع العبيد... سمع كثيرًا لكنه كان يستخف بالكلام ويستهزئ بالمتحدثين ويتهاون في تطبيق القوانين عن عمد... لا يدري هل كان يشعر بالقوة وقتها.. أم هي رغبة بداخله أن يتم اعتقاله وتعذيبه... إثباتًا وثباتًا على موقف أم رغبة في الموت... في أن يتخلص من حياته البائسة المثيرة للشفقة... لا شيء ذا قيمة في حياته... لا شيء سوى هند... يحبها.. يحب جنونها وثوريتها المطلقة على كل شيء... يحب كرهها للظلم والفساد والفقر... على الرغم من أن زوج أمها تاجر كبير وغني منتمٍ لطائفة العبيد العليا ولا يرفض لها أو لأمها طلبًا... ربما هذا هو سبب حبها له منذ البداية... تعاطفها مع الطبقات الفقيرة التي رأتها متمثلة فيه... هي من علمته كل الأفكار الثورية الرافضة للقمع والداعية للتحرر.

جن جنونها عندما علمت باعتقاله... فبدأت تتحرك في مختلف الاتجاهات مستخدمة كل الوساطات الممكنة لتخرجه من سجنه وأجبرت زوج أمها على التحرك لمساعدته أيضًا حتى نجحا بالفعل بعد مجهودات مضنية في إخراجه بعد شهر واحد ذاق فيه الأهوال وذلك بدلًا من عقوبة الستة أشهر المطبقة في مثل هذه التهم..

تنسيق: علامة تعجب www.ibtesama.com

وبدلًا من أن يخرج أكثر طاعة واحترامًا للنظام خرج أكثر نقمة وكراهية.. خرج أكثر تمردًا وغلظة... خرج مؤمنًا إيمانًا مطلقًا بكل المبادىء الثورية... خرج مؤمنًا بالتمرد.. بل وراغبًا فيه.

أخذ شهيقًا عميقًا ليهدىء من نفسه المشتعلة بوقود النقمة وبدأ يعدل من هندامه ليلحق بموعده مع هند و«عبد 125» و«ليلى المدرسة»... فمنذ أن سمع كلٌّ من هند و «عبد 125» بخروجه وهما سيجنان للقائه بينما لم يستطع هو رؤيتهما بكل هذا الألم النفسي والجسدي الذي يعتصر روحه، ثم أخيرًا وافق على لقائهما على أن ينفذ هو و«عبد 125» فكرة الموعد المزدوج الذي اتفقا عليه قبل إلقاء القبض عليه... كان يريد للحياة أن تستمر في إطارها الطبيعي كما كانت... يود لو يمسح ذلك الشهر من ذاكرته ومن عمره كله... ذلك الشهر المقيت الذي قفز بدرجات كرهه للحياة حتى بلغت قمتها.

للمرة الثانية أخذ شهيقًا عميقًا وحاول الابتسام.. يفتح باب شقتهم المتواضعة القابعة في أسوأ مناطق سكن طائفة العبيد الدنيا... يخرج من المبنى فيجدها بانتظاره وعلى وجهها ابتسامة لهفة وحب...

هند التي تحملت من أجله الكثير رغم أنه لا يستحق أيا من هذا.. من هم مثله واجبهم أن يعيشوا في الذل ويموتوا في الفقر ويدفنوا في قبور بلا شواهد عليها... هذا هو قدر من هم على شاكلته... فلم تهتم به هذه الحسناء إلى هذا الحد؟!... لم تبذل من أجله ما لا يملك رده أو حتى رد نصفه؟!

اندفعت نحوه معانقة إياه بقوة الاشتياق... يعانقها بقوة مماثلة.. يالله.. كم يحبها... ولكنه لا يرى نفسه أهلا لها.. أو لمكانتها السامية.

«هيا بنا... سنتأخر على الموعد»

تقولها وكأنها تستكمل حديثًا مستمرا لم ينقطع أكثر من شهر... بل لم ينقطع لحظة واحدة.

يبتسم قائلًا:

- حسنًا.. هيا بنا.

في نفس الوقت عند أحد مداخل الحديقة الدولية... كان «عبد 125» واقفًا بجانب ليلى في انتظار وصول كريم وهند.

لم تتحسن الأجواء بينهما كثيرًا منذ آخر لقاء بين «عبد 125» وكريم.. كعادتها تترك له زمام المبادرة بإصلاح ما فسد... كعادتها تريده المعتذر المتأسف الراجي الصلح بينما تتمتع هي بدور المتمنعة المنكسرة الحزينة... وكما هي عادتها في ترك زمام مبادرة الصلح له.. كانت عادته في الأخذ بهذا الزمام ومحاولة التقرب منها مجددًا...

بصعوبة شديدة أقنعها بالقدوم معه للقاء صديقه بعد خروجه من السجن.. وعلى الرغم من اعتراضها في البدء على أن يحتفظ بصديق سبق اعتقاله وأن هذا سيجر عليهما المتاعب ويجعل حياتيهما أكثر صعوبة مما هي عليه.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

اعترضت في البداية إلا أنها وبعد إلحاح متواصل وملغم بجميع أنواع المغازلات وكلمات الحب وافقت أن تأتي معه على مضض... وبالفعل ها هما واقفان بانتظار قدوم كريم وحبيبته.. يبدوان للناظرين كعاشقين قدامى هدأ بينهما لهيب بدايات العشق وتحول إلى نيران هادئة تجمع بين الاستقرار وسخونة اللهب الأول كتلك التي تجدها بين زوجين متحابين بعد عقد من زواجهما.

يراهما الناظر فيجول هذا الهاجس الرومانسي بمخيلته... بينما هما وحدهما يعلمان حقيقة الأمر... يعلمان أن هذا التغير ليس طبيعيًا... وأن هذا الهدوء والاستقرار ليس إلا لأن شيئًا بينهما قد انكسر... شيئًا لا يمكنهما إدراكه أو تعريفه لكنهما يعلمان جيدًا أنه قد أثر على علاقتهما بالكامل وسيطر عليها وأحدث تغييرات لا يمكن الرجوع عنها.

ربما قد ملّ منها ومن تأففها الدائم... أو ربما ضجرت من أحلامه المستحيلة وفشله الوظيفي.. سئمت من بعده عن الواقع.. وفي أرض العبيد من يبعد عن أرض الواقع يَتُهْ في صحارى الأحلام حتى يموت مقهورًا ويائسًا... ووحيدًا!!.

تحبه.. لكن عيبه هذا أخطر من أن تتعايش معه.

لذا فقد أوقفا تيار المشاعر بينهما واكتفيا مؤقتًا بالتظاهر بالحب... بفعل ما يبدو حبًا... كهمسة في أذنها وضحكة منها كرد فعل... كقبلة بعيدًا عن الأعين كانت فيما سبق أشد التهابًا ومحملة بالمشاعر... كيده تحتضن يدها كعادة تلقائية أصبحت كاستجابة لوجودها بقربه لا أكثر.

يبدوان عاشقين لكل من يمر بهما... حتى لكريم العامل وهند اللذين ما إن رأياهما متجهين نحوهما وقد مالت هند برأسها على كتف كريم العامل حتى التصقت يداهما وتحركا بكل انسجام نحوهما.

تعانق الصديقان عناقًا طويلًا محملًا برسائل صامتة، وبعد بضع كلمات هامسة وعدة تربيتات على الكتف أصبحا فجأة كما لو أن آخر لقاء بينهما كان بالأمس.. تجاوزا ما حدث بكل يسر واندمجا في حديث ضاحك أنعش الدماء الخائفة في قلب كريم... انتعشت بعد حصار مرعب دام شهرًا... انعزلا بأحاديثهما لا إراديًا عن الفتاتين اللتين لم تعيرا هذا التجاهل اهتمامًا تقديرًا منهما لاشتياق الصديقين لبعضهما... تجولا في أنحاء الحديقة بلا تركيز إلى أين تقودهم أقدامهم حتى وجدوا أنفسهم فجأة أمام البوابة الجنوبية للحديقة.

اقترح «عبد 125» أن يستكملوا طريقهم نحو المنطقة الأثرية التي يعشقها ويعلمون جميعًا بعشقه لتراث الأجداد فوافقوا على اقتراحه.

خرجوا من البوابة في نفس الوقت الذي كانت فيه إحدى دوريات أمن النظام تستعد لدخول الحديقة واعتقال بعض المخالفين على سبيل «الاسترزاق».

شحب وجه كريم فجأة وزاغت عيناه لدى رؤيته لأحد الجنود الذين ألقوا القبض عليه قبل شهر... كان الجندي أيضًا ينظر إليه بثبات وبداخله شك ينمو.. فلما رأى شحوب وجه كريم وتعثر سيره عند رؤيته ازداد ارتيابه فأوقفه صائحًا:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

- أنت... أيها العبد.

التفت إليه كلٌ من «عبد 125» و كريم فقد كان كلاهما مرتديًا درع العبودية.. كان وجه «عبد 125» ينضح بالقلق بينما كان شحوب وجه كريم يضاهي شحوب الموتى.

تجاهل الجندي وجود «عبد 125» وتوجه بخطوة واثقة نحو كريم بينما وقف باقي الجنود للاستمتاع بالمشهد.

- وجهك ليس غريبًا عليّ... أنا أعرفك... هل تم اعتقالك من قبل؟!.

قالها الجندي بصوت أقرب إلى الإهانة... تمالك كريم أعصابه وقال بصوت خرج متحشرجًا رغمًا عنه:

- أجل... تم اعتقالي قبل حوالي شهر.

مد الجندي يده ووضعها على كتف كريم ضاغطًا بقوة بينما تحفز باقي الجنود:

- شهر واحد فقط!... لا توجد تهمة عقوبتها شهر واحد فقط من الاعتقال.. من المؤكد أنك قد هربت أيها المتهم.. أليس كذلك؟!... إعترف أيها المجرم.

تدخلت هند في الحوار قائلة بصوت حاولت جعله هادئًا:

- إذا سمحت أتركه... دعني أشرح لك.

التفت إليها الجندي بعينين تشتعلان بغضًا وحقدًا قائلًا:

- إذا أردتِ أن تدافعي عن عشيقك المجرم فاذهبي وراءه إلى المعتقل... لكن لن نوفر لكما فراشًا للمضاجعة هناك.

اصفرّ وجه هند وردت بغير وعي:

- ماذا تقول؟!... احترم نفسك.

صاح الجندي قائلًا:

- لمن تقولين احترم نفسك أيتها الساقطة.

ارتدت هند خطوة إلى الخلف من صدمة الإهانة بينما احمرّ وجه كريم بمجرد أن اخترقت الإهانة أذنه فجن جنونه وخرجت صرخته المرعبة متجاهلًا دقة الموقف.

مد يديه معتصرًا رقبة الجندي الذي فوجيء بردة فعل كريم فخرجت منه صيحة قصيرة أقرب إلى الاستغاثة فاشتعل الموقف وانقض الجنود على كريم يوسعونه ضربًا بعصيهم الغليظة.

حاول «عبد 125» بجسده الضعيف التدخل لمساعدة صديقه فنالته ضربة قوية من العصا ألقته أرضًا يتلوى بينما وقفت الفتاتان على جانب المشهد تصرخان.

اجتذب الصراخ العديد من الناس ومنهم ضابط الدورية الذي كان يتحدث في هاتفه عندما رأى المشهد فأنهى المكالمة واندفع إلى مركز الحلقة صارخًا بجنون:

- ما هذا... ما الذي يحدث؟!.

انفـضّ الجنود عن كريم المتألم فور سـماعهم صـوت قائدهم الذي بمجـرد أن جال بنظـره الغاضب في المشـاهدين حتى انفضوا مسـرعين خوفًا من الاعتقال.

تأمـل الضابط المشـهد لبرهة وتركـزت عيناه على ليلـى.... تفحّص وجهها وقوامها بعين خبيرة ثم هدأ فجأة والتفت لجنوده مكررًا:

- ما هذا؟!.. ماذا حدث؟!.

قال الجندي الغاضب بصوت مرتبك:

- هـذا المجـرم قبضنا عليـه وأودعناه المعتقل منذ فتـرة لا تزيد على شهر ولا توجد عقوبة في القانون قصيرة هكذا...

ثم صمت للحظة تدارك فيها أنفاسـه المرتبكة قبل أن يشير بسبابة يده اليمنى نحو كريم قائلًا بلهجة اتهامية:

- لا بد أنه قد هرب.

نظـر الضابـط ببـرود نحـو كريم ثم تحـرك بصـره تلقائيا ليسـتقر مرة أخـرى على ليلى التي انكمشـت على نفسـها تحت وقـع نظراته الجريئة المتفحصة.

نـزع الضابـط بصره بصعوبة عن ليلى ثم التفـت نحو الجندي الحانق قائلًا بهدوء:

- هل لديك دليل على أنه قد هرب من المعتقل؟!.

تفاجأ الجندي برد الضابط وارتد خطوة إلى الخلف مرتبكًا

- هل رأيت في طريقك نشرة هروب تحمل أوصاف الرجل؟!.

ازداد ارتباك الجندي وأخذت أصابعه تعبث بسلاحه بعصبية وقد احمر وجهه بشدة وهو يحاول الرد بإجابة مناسبة ثم تلعثم قائلًا:

- آآآ... حسنًا... ل... لم.

لم يمهله الضابط حتى ينهي جملته وانفجر فيه صارخًا:

- إذًا لا تفتِ في القانون مرة أخرى أيها الأحمق وتثير ضجة في مكان عام من أجل شخص يحتمل أن تكون قد اعتقلته وتجعلنا أضحوكة أمام الجميع بهذا الشكل السخيف.

غادرت الدماء وجه الجندي واقشعر بدنه مع كلمات قائده الذي زفر بقوة قائلًا لجنوده:

- انتهت فترة التسلية... انصرفوا إلى عملكم.

ثم مخاطبًا الجندي الحانق بنبرة وعيد راعدة:

- وإياك أن تكرر مثل هذا التصرف مع أي مواطن مرة أخرى... التزم بعملك واعلم حدوده.

قال الجندي بصوت مختنق وهو يؤدي التحية العسكرية:

- حاضر يا سيدي.

ثـم انصرف للحاق بزملائـه الذين أخذوا يتنـدرون عليه حتى اختفى عن الأنظار فالتفت مرة أخرى نحو الأصدقاء الأربعة متفحصًا إياهم دون النطق بكلمة فتقدمت منه هند قائلة بامتنان:

- شكرًا جزيلًا لك يا حضرة الضابط.

رمقها الضابط بنظرته الباردة قائلًا:

- لا تشكريني فلم أفعل هذا من أجلكم.

ثم نظر نحو ليلى قائلًا:

- إذا سمحتِ... أريدك في كلمة.

ازداد انكمـاش ليلـى علـى نفسـها ولـم تدر مـاذا تفعل بينمـا انتفض «عبد 125» مكانه ثم قال غاضبًا:

- ماذا قلت؟!.

كرر الضابط بنبرته الباردة:

- قلت أريدها في كلمة... و على انفراد.

احتد «عبد 125» قائلًا:

- إذا كنت تريد أن تقول شيئًا فقله أمامنا جميعًا.. لن تخيفنا بسلطتك هذه فنحن مواطنون ولنا حقوق كاملة.

صمـت الضابـط لدقيقـة كاملـة متفحصًـا وجـه «عبـد 125» بطريقته وكأنـه يرى شـخصًا للمرة الأولى ويستشـعر وجـوده المـادي وأنه ليس

شبحًا مجهولًا كمئات البشر الذين يمر بهم يوميًا دون أن يعنيه وجودهم ومشاكلهم الشخصية وآلامهم.. حتى من كان يعتقلهم كان يراهم أنصاف أشياء يتمثل كل وجودهم المادي في أجساد ينهال عليها ضربًا حتى يقرّوا بأفعالهم... هكذا علّموه.. وهكذا تعلم... ونفذ.

أنهى الضابط تفحصه لملامح «عبد 125» ثم اقترب منه حتى كاد وجهه يلتصق بوجه «عبد 125» الذي تحفز بشدة وتصاعدت أصوات ضربات قلوبهم جميعًا حتى أوشكت أن تملأ الفراغ حولهم وتطن في آذانهم.

ثم قال الضابط بهدوء من لا يعنيه الأمر:

- اسمعني جيدًا وافهم ما أقوله... يبدو أنك شاب متعلم ولن تواجه صعوبة في فهم ما سأقوله...

حياة البشر كافة تمثلها مجموعة من النقائض... موجب وسالب... ذكر وأنثى... آمر ومأمور... سادة... وعبيد.

هذه النقائض من الممكن تمثيلها بمعادلة بسيطة... إذا اجتمعت نقائضها في طرف تساوت بالصفر.. والصفر ليس بلا قيمة كما يعتقد البعض... الصفر هو حالة من السكون المطلق... تطابق على خط محايد... حالة من التوازن إن شئت تبسيطها...

في بعض الأحيان قد يتداخل مجهول وسط النقائض فتتعقد المعادلة.. أو قد تختل تمامًا ويفسد ميزانها ويتلاشى الصفر... عندئذ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يتوجب عليك حلها وإعادة الوضع إلى حالة السكون المحايد... هل فهمت كلامي جيدًا أيها العبد؟!..

والآن... مع هروب صديقك من المعتقل فقد خلف وراءه مكانًا فارغًا... لذا ما رأيك أن تحتله أنت مكانه.. أو ربما يمكنك التوقف عن التطاول على من هم أعلى منك قيمة وأكثر قوة فتقي نفسك شر المهانة.. أم أنك قد اعتدت عليها فأصبحت تسعى نحوها؟!...

... فما قولك أيها العبد؟!..

شحب وجه «عبد 125» وازداد توتره مع هذا التهديد المباشر... كما كان باطنه يموج بالحيرة من مقدرة الضابط على قول تلك الكلمات وإخراج هذا التحليل الذي ينم عن ثقافة لا بأس بها... يبدو أنه ليس جميع الضباط جهلة كما كان يعتقد.

قطع حيرته وتوتر الموقف صوت ليلى وهي تقول موجهة خطابها للضابط:

- نعم... ماذا كنت تريد أن تقول لي؟!.

حرك الضابط بصره ببطء من فوق «عبد 125» ونظر نحو ليلى قائلًا وقد تجاوز الموقف:

- حسنًا جدا.

ابتعد بها عدة أمتار عن باقي المجموعة...

«بداية أعتذر عن الإحراج الذي سببته لكِ أمام أصدقائك»

علت وجهها معالم الدهشة من لهجته المهذبة التي افتتح بها كلامه وأزال بها جزءًا من انقباضها فتمتمت ببضع كلمات خافتة قد تترجم بمعنى «لا مشكلة»... أو«لم يحدث شيء».

ابتسم مشجعًا ثم قال:

- أعلم أن طريقتي في إبداء رغبتي في الحديث المنفرد إليكِ لم تكن بالمناسبة... لكني لم أستطع المقاومة... أشعر أنني رأيتك قبل ذلك في مكان ما... بل أنا متأكد من ذلك.. هذا الجمال الأخاذ لا يُنسى بسهولة.

ابتسمت ليلى منتشية بإطراء الضابط ثم قالت:

- لا أعتقد أنك رأيتني في أي مكان يا حضرة الضابط... لكنت تذكرت وجهك لو حدث هذا.

مد الضابط يده بجرأة مصافحًا وقائلًا:

- اسمي عمرو... عمرو النقيب.

ارتبكت قليلًا أمام يده الممتدة ثم مدت أطراف أصابع متعثرة لمصافحته قائلة:

- أنا ليلى... ليلى المدرسة.

ثم ألقت نظرة سريعة على «عبد 125» الذي كان كريم يقيده مكانه بقوته الضخمة مانعًا إياه من أي تصرفات حمقاء بينما كان احتقان وجه «عبد 125» وعيناه الصارختان بالاحمرار مؤشرًا واضحًا عما يمر به.

«أنتِ مدرسة إذن... في أي مدرسة تعملين؟!».

أعاد سؤال عمرو نظراتها من «عبد 125» إليه مرة أخرى:

- أجل... في مدرسة القمة.

كانت مدرسة القمة التي تعمل بها ليلى هي واحدة من أقوى المدارس في دولة نوصير، وكانت لذلك مقصورة على أبناء طائفة العبيد العليا والوحوش فقط مع بعض الاستثناءات من أبناء طائفة الحمير والعبيد الوسطى.

وكان اختيار المدرسين بها يتم عن طريق سلسلة من الاختبارات بالغة الدقة والصعوبة مما يعطي مؤشرًا عن مهارة ليلى.

لمعت عينا عمرو بإدراك مفاجيء ثم قال متحمسًا:

- هكذا إذن... علمت الآن أين رأيتك...

أخي الأصغر طالب في هذه المدرسة... رأيتك مرة تخرجين من باب المدرسة بينما كنت في انتظار خروجه.

لم تعلق ليلى وإنما اكتفت بابتسامتها المعتادة.

- اسمعي... لابد أن أراكِ مرة أخرى... هناك احتفال قريب لكبار ضباط ورجال الدولة ووالدي واحد منهم... لا بد أن تحضري ذلك الاحتفال معي لأقدمك إليه.

تعجبت ليلى من سرعة تطور الأحداث، فهو لم يلتقِ بها إلا منذ عشر دقائق فقط وهاهو الآن يريد أن يعرفها بوالده... لابد أن حماسه الزائد هذا يوقعه في مشكلات عديدة.

ترددت قليلًا وتلعثمت قائلة:

- ل.... لا أعرف.

قاطعها عمرو قائلًا:

- لم التردد؟!.

ألقت ليلى نظرة خائفة نحو «عبد 125» المشتعل في غضبه ففهم الضابط ما يجري فقال بابتسامة واثقة:

- حقًا؟!... تريدين مستقبلًا مع عبد لا يملك حاضره؟!... إنه حتى لا يملك ثمن الحقيبة التي تحملينها في يدك.....

قد يستقر به المقام عاملًا في أي شركة أو مطعم... أو إذا انفتحت أمامه أبواب الدنيا يصبح موظفًا بسيطًا في إحدى مؤسسات الدولة... أنتِ أذكى وأجمل من هذا... وتستحقين مستقبلًا أفضل... خذي هذا الكارت، مكتوب فيه رقمي إذا غيرتِ رأيك وقررتِ المجيء للاحتفال...

أخرجت كلمات عمرو الخواطر المدفونة بداخلها... كل عذاباتها وتفكيرها السابق بشأن علاقتها «بعبد 125».

www.ibtesama.com

هو يحبها حقًّا... لكنه لا يكسب ثمن إطعام نفسه يوميًّا... ولا يريد أن يجدّ في البحث عن وظيفة محترمة تليق به... هل حقا تريد دفن جمالها الذي تدرك قيمته جيدًا في علاقة بدأت بمشاعر مراهقة لتستمر حتى هذه اللحظة!!... أجل إنها تستحق من هو أفضل.. لكنها لا تستطيع تدمير «عبد 125» بهذه الطريقة... لا تدري ماذا تفعل!!.

تأهب عمرو للانصراف وهو يقول:

- وإذا استقر رأيك على الأفضل لكِ وحاول هو مضايقتك أو الضغط عليكِ... أبلغيني فتحل المشكلة نفسها تلقائيًا... فكري جيدًا.

ثم تركها وانصرف تاركًا الكارت في يدها وسحُب التفكير في عقلها ومؤججًا لهب الغضب في جسد «عبد 125» الذي رسم صورة مشوهة لما يجري خصوصًا عندما رآها تأخذ الكارت منه... لمعت عيناه بالغضب ناحية ليلى التي اقتربت منهم وعلى وجهها ابتسامة مرتبكة وخائفة...

... ونية جريئة!!.

* * *

أحيانًا تجبرك الأيام على تلويث أسماعك بلغط وإهانة تحمل مغبة الظلم.... تفوح برائحة الشماتة... ترسم أغلظ ملامح التشفي من أناس سارعوا بإيهامك أن المحنة لن تغير منك شيئًا.

.... لن تغير منهم شيئًا.... !!

.. أو هكذا قالوا وما أسهل القول عندنا..

.. مجرد كلمات من بشر اعتادوا إظهار عكس ما يبطنون...

.. نفاق الكلمة وزيف الموقف وإثم الروح....

.... تلك صفات تنفر منها الملائكة...

... وقد ترتجف منها الشياطين!!.

* * *

توقفت سيارة الإرسال الخاصة بقناة «الدنيا» والتي يقودها «عبيد السائق» في موقع ليس ببعيد عن الحدود الشرقية كي يضمن تغطية جيدة للسيارة وبحيث تصبح مستترة إلى حد ما عن الأعين تحسبًا لأي مفاجآت غير سارة... ترجل كل من «عماد المصور» و«سعاد المراسلة» من السيارة بعد فحص أجهزة الإرسال والتأكد من تشغيلها، ثم أملت سعاد أوامر صارمة على عبيد بعدم التحرك من السيارة أو تغيير موقعها... والانتباه لأجهزة الإرسال إن احتاج الأمر لتدخله والبقاء مستعدًا للتحرك في أي لحظة..

تركته في حيرته محاولًا ترتيب الأوامر بصورة صحيحة وتحت رحمة ألعاب الظلال المفزعة التي يلعبها معه ضوء القمر الذي اختار الليلة ليكون بدرًا منيرًا على رمال الصحراء.

تحرك عماد حاملًا كاميرته على كتفه محاولًا اللحاق بحماس سعاد التي طغى طموحها المجنون على باقي شخصيتها ومشاعرها محولًا إياها لكائن لا يقبل الفشل نتيجة... داهسة بأقدام ثابتة على ما تبقى من أمتار نحو السياج الخشن الذي تركت فيه مساحة صغيرة لمرور الحراس.

حاولت الاتصال بهاتف «محمد الحارس» الذي رد عليها بصوت متوتر:

«نحن هنا»

قالتها سعاد بصوت خدش حياء السكون الذي يحتل الفضاء المحيط بهما فرد محمد قائلًا:

- أنا في انتظاركم على الجانب الآخر من السياج... وقد قمت بصرف الحارسين الآخرين وأقنعتهم أن يأخذوا اليوم إجازة وأنني سأتولى عنهم.... .

قاطعته سعاد قائلة:

- لا تعطني تفاصيل... أمن لنا الهدوء فحسب.

ظهر بعض الضيق في صوته وهو يقول:

- حسنًا... احترسوا من العقارب التي تملأ المكان.

- حسنًا.

قالتها ثم أنهت الاتصال والتفتت لعماد قائلة:

- هل أكدت على القناة انتظار البث المباشر؟!.

- أجل.

ثم تردد قليلًا قبل أن يقول:

- ولو أني كنت أفضل لو تم تسجيل الحدث أولًا ثم مراجعته قبل البث فنحن لا ندري ما بانتظارنا.

- أيًا يكون ما ينتظرنا فلن يكون سيئًا... كما أني لا أحب تسجيل الأحداث... البث المباشر له قوة كبيرة وانتشار أوسع... تخيل معي عنوان الخبر العاجل عن ظهور شخص يعتقد القرويون والبدو أنه آخر من تبقى من سلالة ملاك أرض العبيد وأنه صاحب الأرض التي نطأها بأقدامنا كل يوم.

وصلت سعاد إلى السياج العالي وتوقفت أمامه وقد انتابها فجأة خوف المقدم على حدث كبير كمن يطأ أولى خطواته في عمله الذي كان يحلم به.

نظرت نحو عماد قائلة:

- ابتسم يا عزيزي... فهذا السياج يفصلنا عن نقلة كبيرة في حياتنا المهنية.

وقد كانت على حق... فما توشك على فعله سيسبب لها نقلة كبيرة.. في حياتها كلها.

كان «محمد الحارس» في انتظارهما على الجانب الآخر من السياج... هرع نحوهما بمجرد رؤيتهما وقد غطى التوتر والعرق وجهه قائلًا:

- فلنتهِ من هذا الأمر سريعًا قبل أن يظهر أحد.

- لا تصدر الأوامر... ألم تتخلص من رفاقك في نوبة الحراسة كما قلت؟

قالتها سعاد محتدة فأجابها المتوتر:

- أجل.. لكن لا أحد يعرف ما يخبئه سوء الطالع.

قالت سعاد بسخرية:

- لا تقلق... فقد رشوته حتى ينصرف ويترك حسن الطالع وحده.

ظهرت الدهشة على وجه محمد، أما عماد فلم يتأثر بما قالته فقد اعتاد منها على ما هو أغرب من هذا خلال عمله معها.

- والآن... خذنا إلى مكان رجل الساعة.

تحرك الموكب الصغير يتقدمه محمد يشق طريقهم نحو مكان الرجل المجنون بكشافه قوي الإضاءة مبعدًا إياهم عن العقارب والزواحف التي ازدادت أعدادها بطريقة غريبة منذ قدوم سعادحتى ليهيَّأ للناظر أنها

قد صنعت بأجسادها حصيرة تغطي رمال الصحراء... وكأنها متحمسة للحدث مثل سعاد أو ربما تشعر بالخوف مما هو قادم ومن غرباء المدينة الذين أزعجوا عزلتها.

ثم ظهر الرجل الشبح في مرمى البصر... واقفًا بشموخه المعتاد... بذهوله المعتاد... باتساخ ملابسه ونظرته كرجل حالم يتنبأ بنهاية العالم.. وقد تعلقت أنظاره بالقمر المضيء.

علي الرغم منها اجتاحت قشعريرة باردة جسد سعاد لدى رؤيتها منظر الرجل والذي قد يظن أي شخص يلمحه أنه ما هو إلا متشرد مجنون.. ولكنها.. في أعماقها أدركت بأن الرجل يحمل سرا... سرا عظيمًا ربما كان حمله هو السبب في إتلاف عقله... هذا مظهر رجل عرف أكثر من اللازم.

توقفت سعاد فجأة ثم التفتت لعماد المتأخر عنها بخطوات قائلة:

- شغل الكاميرا... وأنت.. اخرج من كادر التصوير.

قالت الجملة الأخيرة موجهة كلامها لمحمد الذي انسحب من المشهد بينما رسمت سعاد على وجهها ابتسامتها التلفزيونية في حين شغل عماد الكاميرا وأضاء كشافها على القوة القصوى له فرسمت الإضاءة مثلثًا ضخمًا من الضوء خرجت قمته من الكاميرا واستقرت قاعدته على مدى واسع التهم كلا من سعاد والرجل الشبح وجزءًا من ظلام الصحراء المحيطة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

في نفس الوقت أرسلت أجهزة سيارة الإرسال الراقدة على الجانب الآخر من السياج إشارة للقناة للتدخل المباشر فأعطت القناة الإذن وأشارعماد بإبهامه لأعلى أنكِ على الهواء فبدأت سعاد افتتاحيتها قائلة:

- الأسطورة... نهج من الخيال تعذر حدوثه في الواقع... أو ربما حدث في أزمنة لا يعلم أحد عنها شيئًا...

الأسطورة.. هروب من واقع سيئ إلى عالم من الخيال يتسع لكل الاحتمالات فيتحقق فيه العدل ويستقر رخاء الأمم ويحل السلام على يد رجل واحد... ذلك الرجل قد يكون إلهًا كما في الأساطير اليونانية... أو رجلًا بشريًا كما في بعض الأساطير الفارسية... الأسطورة حلم... وفي عالم قلت فيه الأحلام.. هل يخرج لنا من يحقق الأسطورة في زمن اختنقت فيه المعجزات.

منذ فترة وقعت مراسلتكم «سعاد المراسلة» على خبر كان بمثابة الخرافة... كان خبرًا بلا قيمة.. ولكنني لم أتجاهله... وبعد بحث موسع شمل جميع القرى والأراضي المحيطة خرجت بالأسطورة التي أثارت ضجة في عقلي وزرعت استفهامات كثيرة... استفهامات عن حقيقة أصلنا... تاريخنا... حقيقة حكومتنا القابعة تحكم الهواء منذ الأزل... أسئلة لم أرتضِ إلا أن أشارككم إياها وليحدث ما يحدث... كان الخبر عن رجل مجنون يظهر كل فترة ليخطف أنظار الحدود الشرقية تائهًا في ممرات ذهوله.. ثم كما يظهر فجأة.. يختفي فجأة.

وكانت الأسطورة قوية... كانت تلمس بأطرافها أهداب الواقع وتتلاقى مع ظلال الحقيقة.. الأسطورة التي آمن بها كل الأهالي هنا بالقرب من الحدود... على أطراف الصحراء وكل ما يحيط بها من قرى وبدو.

الأسطورة القائلة بأن هذا الرجل (وأشارت بيدها خلف ظهرها على الرجل الشارد في تأمله والذي لم ينتبه حتى لضوء الكاميرا المصوب ناحيته)... هذا الرجل هو من تبقى من سلالة حكمت أرضنا زمنًا طويلًا.. وأن حكوماتنا في أصلها محتل غاشم... احتلوا المناصب وطردوا تلك السلالة خارج البلاد... فلماذا؟!.. لماذا يؤمن الناس بأن هذا الرجل المشرد رث الثياب هو الوريث الحقيقي وصاحب البلاد... وأن سادة الملابس الفخمة والرتب المهيبة هم الصعاليك الطغاة... هل هي محاولات لتحقيق العدل في أسطورة بائسة ينتصر فيها الفقير ليحكم بلاد المعاناة... أم أن الأمر أكبر من ذلك.. وأكثر اقترابًا من الحقيقة.

لم نرضَ بالأسئلة والشكوك الكثيرة والتردد حلولًا لنا... اخترقنا الصحراء وعبرنا الحدود لنصل إلى جوهر الحقيقة... وها نحن ذا على بعد خطوات من تحقيق مبتغانا... فابقوا معنا لنعرف السر سويا.

أنهت سعاد آخر كلماتها ثم أولت الكاميرا ظهرها واقتربت بحذر من الرجل الغافل في زمن آخر تتبعها الكاميرا يحملها عماد الذي تفنن في تصوير الرجل مبتعدًا ومقتربًا ليثير الحماسة في نفوس المشاهدين ويضع الرهبة كائنًا ماديا على كل الشاشات...

كان شـحوب وجه محمد في تزايد بعد سماعه تلك المعلومات التي لم يكن يدري بها، وأدرك ضخامة الموقف وعلم أن المشـاكل تقبع عند قدميـه تتلـذذ بإرهابه قبـل التهامه... فابتعـد أكثر وأكثـر متعمقًا في ظلمة الصحراء وكأن ضوء الكاميرا هو ما يجتذب تلك الضواري.

وقفت سـعاد أمام الرجل المجنون تتأمل شكله الذي رسمته الكاميرا علـى معظم شاشـات التلفزيون في أرض العبيد... شـكله منفر.. رائحته قذرة... ثيابه ممزقة.. لكن في عينيه نظرة تخبرك الكثير.

«إذا سمحت».

قالتها سـعاد كمقدمـة إعلامية تقليدية فلم يعرهـا الرجل أدنى اهتمام وظل على مراقبته للنجوم.

- معك سعاد من قناة الدنيا.

- .....

- نريد أن نأخذ من وقتك عدة دقائق.

- .....

نظرت سعاد بحنق نحو محمد شبه المختفي في ظلام الصحراء وكأنه خطؤه أن الرجل المجنون لا يرد عليها.

تجرعـت الباقي مـن صبرها وطرقت بيدها اليمنـى على كتف الرجل بحـزم فأنـزل رأسـه ببطء وحـدق في عينيهـا ثم نظـر إلى ضـوء الكاميرا المصوب ناحيته فارتجف المشاهدون من قوة نظراته.

أعاد نظره إلى سعاد التي تجمدت يدها واختفى صوتها قليلًا قبل أن تقول بصوت خرج ضعيفًا رغمًا عنها:

- هل لنا أن نتعرف بحضرتك؟!.

- .....

ظل على نظرته الثابتة لها بلا رد...

أبعدت الميكروفون قليلًا عن فمها وهمست له بصوت حانق:

- اسمعني أيها الأحمق... أنت الآن بطل الشاشات على مستوى أرض العبيد كلها... وهذه فرصة لا تأتي أبدًا لرجل حقير متشرد مثلك... فرصة كهذه تجعل أمثالك يتقافزون فرحًا أمام الكاميرا وتنطلق ألسنتهم بالكلام فلا نستطيع إسكاتهم... والآن من الأفضل لك أن تتحدث فلم يأتِ بعد الوقت الذي يقوم فيه أمثالك بإحراجي وإهانة سمعتي على الهواء مباشرة.

أفرغت كلماتها الحانقة ثم قربت الميكروفون من فمها مرة أخرى قائلة وقد أضفت على صوتها بعض المرح:

- والآن... هل لنا أن نعرف اسمك؟!.

كان الرجل المجنون قد ظل على جموده ونظراته المذهولة طوال فترة حديث سعاد الحانق.. حتى جاءت على ذكر «أرض العبيد» فاختلجت عضلة في وجهه لم تلحظها سعاد المراسلة... أما عندما خرجت بسؤالها الأخير.

... اسمك؟!... الاسم؟!... لماذا تحركه هذه الكلمة؟!... تعبث بشيء في أعماقه... شيء يخافه.

حدق في وجهها بتركيز شديد أفزعها... ثم رفع يده فجأة فارتدت خطوة إلى الخلف... أشار بإصبعه إلى السماء ثم وضع كفه على رأسه وأخذ يربت بكفه الأخرى عليها كما فعل في أول لقاء له مع «محمد الحارس».

التفتت سعاد إلى الكاميرا موجهة حديثها إلى المشاهدين:

- ترى ما الذي يفعله أو يقصده... هل هذا نوع من الصلوات أم الندب والندم.. أم....

«السيد»

خرجت الكلمة من خلف سعاد بصوت ضعيف فجفلت... ارتجافة تجمع بين الخوف والإثارة عبرت جسدها وهي تلتفت إلى الرجل المجنون بسرعة قائلة:

- ماذا قلت؟!.

- السيد.

خرجت الكلمة هذه المرة بصوت أوضح ونقلها الميكروفون إلى شاشات المشاهدين فمنهم من شهق ومنهم من ارتجف من برد مفاجيء اجتاحه... ومنهم من اهتم!!.

- السيد؟!... من السيد؟!.

قالتها سعاد وقد صاعدت الإثارة من نبرة صوتها.

قال الرجل المجنون بصوت شرخه الزمن وكتمه الصمت الطويل:

- أنا... أنا السيد.

- أتدري خطورة ما تقول؟!.... هل تكذب علينا؟!...

- أنا السيد... أنا السيد.

قالت سعاد وقد أعمتها نشوة اللحظة:

- رد على الأسئلة... هل السيد اسمك أم صفتك؟!... هل هو حقيقي ما يردده القرويون؟!.

- أنا السيد.

- حسنًا.. فلنفترض أنه اسمك.. من الذي سماك السيد؟!... ألا تعرف أن اسمك مخالف للقانون؟!.

- أنا السيد... أنا السيد.

... أنا السيد....

... أنا السيد....

... أنا السيد...

... أنا السيد...

..... السيد.

استمر «السيد» في ترديده لعبارته الهذيانية اللا واعية وأخذ يربت على رأسه مرة أخرى وبقوة أكبر هذه المرة... أقرب إلى اللطم.

... أنا السيد....

... أنا السيد....

تراجعت سعاد إلى الخلف وقد غرقت في بحر من الذهول... رغم هذيان الرجل إلا أن كلامه مفعم بالثقة... لا تدري كيف تتصرف وهي الخبيرة... لا تدري كيف تستمر... كيف تنهي الموقف.

التفتت إلى الكاميرا مرة أخرى قائلة بصوت مشحون بالانفعالات:

- أسئلة كبيرة تطرحها إجابة الرجل... أسئلة لا نملك لها ردًّا ولا نعرف كيف نحصل على الرد... أنصدق كلامه أم نكذبه؟!... كانت معكم «سعاد المراسلة» في قلب حدث من أخطر الأحداث التي مرت بأرضنا... أرض العبيد....

أنهت سعاد مقابلتها فجأة بعدما طغى صوت «السيد» على الفراغ المحيط ورددت كلماته رمال الصحراء... أوقف عماد كاميرته تاركًا للاستوديو إنهاء الموقف وأنزلها من على كتفه وقد عجز وجهه عن التعبير عما يحتدم داخله من مشاعر.

ابتعدا عن هذيان الرجل تاركينه يردد جملته بلا توقف وقد رفع وجهه للسماء مرة أخرى.

.. أنا السيد..

.. أنا السيد..

أوشكا على المغادرة قبل أن تتذكر سعاد أمرًا برز فجأة بين أفكارها المتصارعة عما شاهدته وسمعته ونقلته للناس.. فالتفتت نحو محمد القابع في شحوبه وبؤسه وعجزه عن فهم ما يحدث واضطراب قدميه اللتين لم تحتملا هذا الكم من الأحداث فاهتزتا.

«تعال»

قالتها سعاد بلهجة آمرة فتحرك محمد نحوها ببطء كالمنوم حتى وصل إليها فأخرجت من حقيبتها ظرفًا منتفخًا أعطته إياه قائلة:

- هذا لأني أحترم وعودي... رغم أنك لا تستحقه بالكامل.. فمازلنا لم نعطِ الحدث حقه الكامل بسبب هذيان هذا الأحمق.

احتقن وجه محمد قليلًا لكنه لم يتحرَّ ردا... بينما لم تنتظر هي ردًّا وانصرفت مسرعة كأن أشباح ما حدث للتو تطاردها وهرول في إثرها عماد مهمومًا بثقل كاميرته.

نظر محمد نحو «السيد» مفكرًا...

«معقول؟!... هل هذا هو زعيمنا؟!... هل ما سمعه منه ومن سعاد حقيقي؟!... لقد حاول بشتى الطرق معرفة أصول هذا الرجل... إدراك همومه وأسباب انعزاله عن الدنيا وانغلاقه في عالم الذهول.

أبعد بصره عنه بصعوبة ثم أولاه ظهره وانصرف تاركًا الحدود بلا حراسة... أو في حراسة رجل مجنون... رجل استمر في تحديقه إلى النجوم وفي لطم نفسه على رأسه وفي ترديده لجملته الهذيانية...

... أنا السيد...

... أنا السيد...

... أنا....

... السيد!!.

* * *

ياولدي خاف... متعاندش وخاف...

.... خاف...

... خاف... تسلم!!.

* * *

كما توقعت «ليلى المدرسة» لم يدع «عبد 125» ما حدث مع «عمرو النقيب» يمر بسلام... فمنذ أن رأت الغضب في عينيه وشعرت بسخونة شررهما المتطاير أدركت في أعماقها صعوبة القرار الذي يتعين عليها اتخاذه.

طوال طريق العودة ظل أربعتهم ساهمين في صمتهم... وقد انعزل كل منهم في قوقعة فكره أو حزنه.

كان «كريـم العامـل» فـي قرارة نفسـه يشـعر بالذنب.. لـم يكن يهتم بالضـرب أو الإهانـة كثيـرًا.. فقد اعتادهمـا ويعرف طريقـه للانتقام فيما بعد.

أما ما حدث بعد ذلك فيشـعر أنه السـبب فيه.. وخاف من كون «عبد 125» قـد غضب منه... أمـا هند فقد كان كل فكرهـا المتمرد مركزًا على الظلم الذي اتخذ من موطنها مقرًّا له وعلى التقسيم الطبقي ورسوخ مبدأ العبودية في عقلية المجتمع.

لم يستطع أحد التنبؤ بمشاعر «عبد 125» أو رد فعله فقد ارتدى وجهًا جامدًا إن كان ينم عن شيء فهو ينم عن حزن دفين.

بينما ظلت ليلى خائفة من رد فعله وغارقة في مسـتنقع من الحيرة ... كانـت تحبه.. أو علـى الأقل تعتقد ذلـك.. هو صديق الماضي وعشـيق الحاضـر.. لكنهـا تكره انغماسـه في أحلامـه الوردية.. يحمـل قدرًا من التفـاؤل يحملها علـى الغضب منه.. كما أنه لا يحرك سـاكنًا من أجل أن يتطـور للأفضـل... ويتحرك للأمـام... كما لو أنه يحـب وضعه هكذا أو يرغـب في تجميد لحظة الحاضر إلى الأبد وهذا مسـتحيل، فلا بد له من التفكير في المستقبل... مستقبلهما..

.. ولـو حـاول.. لو حاول فقـط أن ينظـر للأمام.. ولو هـو في وضع أفضل ممـا هو عليه الآن... وضع يؤمن المسـتقبل ويطمئنها لما ترددت في الزواج منه لحظة واحدة... بل لطلبت هي منه أن يعجل بزواجهما.

وعلى الجانب الآخر يوجد ذلك الشاب ذو المستقبل المرموق.. هذا الضابط الرقيق عمرو... ليس كغيره من الضباط المتعصبين.. يحمل فكرًا مثقفًا... هذا الضابط الجميل!!.

أجل.. الجميل... فالجمال يكتسب قيمته الحقيقية من ندرته.. ولذلك تختلف رؤية كل منا للجمال.. كل منا يبحث عما يفتقده أو يتمناه ويضعه معيارًا للجمال.. لذلك لك أن تتخيل المواصفات الجمالية التي تضعها فتاة لفتى أحلامها في شعب يخضع للسلطة... شعب معظم من به... عبيد!!.

افترق عنهما كريم وهند بعد وداع غلفه التوتر وانصرفا في طريق مخاوفهما وأفكارهما المتعثرة.

انتظر «عبد 125» قليلًا حتى ابتعدا عنهما ثم التفت إلى ليلى وثبت نظرة جامدة على وجهها كأنه يقرأ ما يجول بخاطرها.

في نفس الوقت في طريق آخر قرر كريم قطع حبل الصمت الطويل الممتد طوال الطريق والتفت إلى هند ليقول لها ما كان قد اعتزمه منذ خروجه من السجن وأخفاه في نفسه عاجزًا عن إخبارها به.. أو ربما هو التردد.. ربما كان ينتظر أملًا في تحسن الأحوال ليلغي تلك الفكرة.. لكن يبدو أن هذا الأمل كان زائفًا كغيره من الآمال في أرض العبيد.

- لقد التقيت بسمسار العبيد.

قالها فجأة وبسرعة وكأنه حمل ثقيل يتخلص منه بإلقائه على الأرض غير عابىء بالنتائج.

نـدت عـن هند انتفاضة خفيفـة فقد كانت قد اعتـادت صمت الطريق وتعمقت في أفكارها حتى جاء صوت كريم المفاجىء كضربة في مؤخرة الرأس.

- ماذا؟!.

- لقد التقيت بسمسار العبيد.

- من سمسار العبيد؟!.

أخذ نفسًـا عميقًـا ثم زفره بقوة محاولًا طرد توتـره مع الهواء الخارج وقال:

- سمسار العبيد هي رتبة شبه سرية بين العبيد يحصل عليها العبد بعد إتمامه لعدد معين من سنوات العبودية... ويكون في ذلك الوقت قد تعلم كل خبايـا أرض العبيـد وعرف طرقها السـرية غير المراقبة، ثم يسـتخدم معرفته وخبراته في تهريب العبيد خارج البلاد ليحصلوا على فرص عمل أفضل في الخارج وهربًا من الظلم والقمع في الداخل وذلك مقابل مبلغ مالـي يتقاضاه ويحدده هو نظير خدماته ويختلف ذلك المبلغ وفقًا لحالة تشديد الرقابة على الحدود.

سمسـار العبيـد ذلـك الـذي ذهبـت للقائـه ويدعونـه «الكبيـر» قـرر مسـاعدتي في الخروج من حفرة الجحيم هذه.. ولكنه نصحني بالتريث قليلًا لأن الأمور مضطربة عند الحدود.

كان اتساع عيني هند وجحوظهما قد بلغ الآن حدًّا ظن معه كريم أنهما توشكان على الهرب من مقلتيهما قبل أن تقول بصوت ضعيف خنقته الصدمة:

- ماذا؟!... ستسافر؟!... ستهرب وتتركني؟!.

أنبأته سرعة تكوّن غشاء الدمع في عينيها عن قرب انفجارها بالبكاء فأشفق عليها من كلامه فهو يحبها حقا ويعلم بقوة حبها له.. لذا فقد قال بلهجة امتزج فيها الحب بالإشفاق محاولًا تهدئتها وحملها على استيعاب موقفه:

- ومن قال إني سأتركك يا حبيبتي؟!... وهل أستطيع إفلاتك من قلبي لحظة واحدة؟!.

لم تفلح محاولته، إذ بدأت دموعها في الانسياب برقة راسمة خطين على وجنتيها وقالت بصوت باكٍ:

- لا تكذب علي.. ستتركني وتسافر.

- لا تبكي أرجوكِ... أنا أحبك وأنت تعلمين هذا.

- لكني لا أحتمل فراقك.

للمرة الثانية يأخذ كريم نفسًا عميقًا ويزفره بقوة ثم يقول وهو يحاول ترتيب كلامه بحرص شديد:

- حسنًا.. فلنواجه الأمر بعقلانية.. أعلم أنكِ تحبينني.. لكني لست الرجل المثالي بالنسبة لكِ، فلا أرى بوضعنا الحالي مستقبلًا جميلًا يجمعنا... كل الوظائف التي أحصل عليها حقيرة ويتم طردي منها.. من برأيك يرضى بي زوجًا لابنته خاصة إن كانت ابنته غنية وجميلة مثلك... أنا حتى لا أستطيع الزواج الآن لأنني بلا وظيفة.. حتى اسمي فقدته.. أنا لست كريم الآن.. أنا «عبد 630» التابع لإدارة عبيد منطقة شمال العاصمة.

هدأت هند قليلًا مع صوت العقل وأخذت تجفف دموعها ببطء وإن أجبرها عنادها العاطفي على أن تدافع عن موقفها قائلة:

- أنا أقبل بك زوجًا لي.. بوضعك الحالي.. وفي أي وضع كنت.

ابتسم كريم من كلماتها الساذجة وإن أعجبه ما قالته ثم قال بهدوء:

- لا تقلقي... سيتحسن وضعي في الخارج وأعود كما تحلمين.. فقد أجمع الأموال الكافية لمعيشة جيدة وأعود منتصرًا لأفتتح أي مشروع يدرّ عليّ مزيدا من الأموال وأتزوج بكِ وأغلق بهذا المال كل الأفواه المتكلمة.

صمتت هند حالمة باليوم الذي يعود فيه فارسها منتصرًا ثم وفي أوج انفعالاتها وعواطفها الملتهبة اندفعت نحوه فجأة تقبله بحرارة زائدة.. تقبله قبلة أودعت فيها كل ما يموج بداخلها من عواطف متضاربة.. أودعت فيها الحب والرغبة والقلق والخوف.... تقبله قبلة من يخاف في أعماقه بأن تكون هذه القبلة هي القبلة الأخيرة... قبلة الفراق.

أنهت قبلتها ببطء من لا يرغب في انتهائها أبدًا تاركة كريم ثملا بها.

حتى بعد انتهاء قبلتها ظل أثرها على شفتيه طويلًا... مازال يشعر بظلال شفتيها تتحركان بانسيابية مجيبتين على أسئلة شفتيه.. مثلما يحدث حينما تستمع إلى مقطوعة موسيقية تحبها فإذا توقفت فجأة فإن عقلك وقلبك يستكملان اللحن تلقائيًا.

«فقط... لا تتركني في انتظارك طويلًا».

أفاق «كريم العامل» من ثمله على صوتها المتهدج فأجابها بابتسامة مطمئنة:

- لا تخافي.

أومأت هند برأسها وإن أدركت استحالة تنفيذ ما طلبه منها... لا تخافي.. كيف لا تخاف.. هي تخاف من كل ما تعد به هذه الرحلة المشئومة.

تخاف أن يعجبه الحال في الخارج فيستقر بعيدًا عنها.. تخاف أن يتعلق بغيرها فيكتمل استقراره وينساها... تخاف من مصاعب الطريق والسفر أثناء الخروج من حفرة الجحيم هذه كما يسميها...

... والأسوأ من ذلك كله...

... تخاف من الحلم.

ففي أرض العبيد.... . لا مكان للأحلام.

***

«لماذا تستمر في التحديق بي هكذا؟!».

قالتها «ليلى المدرسة» منفعلة محاولة قطع تحديق «عبد 125» بها فقال بهدوء:

- ألن تخبريني عما كان يريد ذلك الضابط أن يحدثك عنه على انفراد.

ارتبكت قائلة:

- لا شيء.. مجرد أسئلة روتينية من رجل أمن.

- أخذك بعيدًا عن مسامعنا جميعًا ليسألك أسئلة روتينية.

- ما هذا؟!... هل تحقق معي؟!.

قالتها بعصبية بعد أن غلبها عنادها المعتاد... لماذا تصر على عدم إبلاغه بحقيقة ما جرى.. هل هو خوف منه.. ألغى عنادها هذا الاحتمال فورًا فهي كما تقول لنفسها دومًا لا تخاف أحدًا...

هي فقط تحتاج بعض الوقت لتفكر... لتتخذ قرارًا... كما أن هذا الشأن يخصها وحدها... أجل يخصها هي فقط... فليس من حقه أن يحقق معها بهذه الطريقة.

«عمومًا.. الموقف لا يحتمل كثيرا من التخمينات كما تعلمين».

قالها «عبد 125» ببرود شديد أشعل شرارة غضبها فانفجرت فيه بحنق.. «ماذا تقصد».. و«بأي حق ترى نفسك أهلًا لأن تحدثني بهذه الطريقة».. استمر صياحها الغاضب إلى أن أفرغت فيه شحنة توترها.

وقف «عبد 125» صامتًا يراقبها ببرود حتى سكتت ثم قال:

- ألن تخبريني إذن بحقيقة ما جرى؟!.

رمقته بنظرة غاضبة ثم أشاحت بوجهها عنه في غيظ مكتوم من طريقة كلامه معها.

ما الذي جرى له.. هذه أول مرة تراه بهذا الغضب وهذا الاستعداد للشجار.. دائمًا كانت هي من تغضب وهي من تتشاجر وهي من تنتظره ليصالحها وتتدلل في تمنعها حتى تأتي اللحظة المناسبة فتتكرم عليه بمسامحته وتقبل بصلحه بعد أن تنفد كل الحيل منه.

- هل تحبينني؟!.

صدمها سؤاله المفاجيء فارتبكت قائلة:

- ماذا؟!

- سمعتِ السؤال.

- ولماذا هذا السؤال الآن؟!.. أنت تعلم حقيقة مشاعري نحوك.

- ولماذا الارتباك.. أجيبي على السؤال.

ضايقها إصراره وطريقته الجافة في السؤال ولكنها قالت:

- أجل.. أنا أحبك.

فوجئت بصوتها يخرج مهزوزًا ومترددًا رغمًا عنها.. لماذا يحدث لها كل هذا.. ولماذا الآن.. لماذا هذا التردد وهي التي كانت قبل ساعة على استعداد أن تُقَبِّلُه بجرأة في أي مكان.

اللعنة على شيطان الاحتمالات.. لماذا يفاجئها القدر عند أول منعطف بذلك الضابط الذي قفز أمامها ليزرع في عقلها بكلمات بسيطة تلك البلبلة ويولد بداخلها ذلك الشك في حقيقة وقوة مشاعرها التي ارتضتها منذ زمن بعيد.

لم يفت «عبد 125» ذلك التردد في صوتها فأظلم وجهه وأطرق في إحباط وألم رهيبين.

إحباط الحالم الذي فشل في تحقيق الحلم الوحيد من ضمن كافة أحلامه الذي اقترب من أرض الواقع ولمسها بأطراف أقدامه.. وألم المحب الذي يتهاوى أمام ناظريه كيان العشق دون أن يملك له سندًا يمنعه من السقوط.

أحزنها ما تسببه له من آلام ولكنها لم تجد في جعبتها من الكلمات ما يمكن أن تخفف بها عنه... لا تستطيع مساعدة نفسها فكيف تساعده!!.

رفع وجهه ببطء وأخذ نفسًا عميقًا ساعده على إخفاء أحزانه واستعادة الملامح الجافة ثم قال ببطء:

- هذه هي النهاية إذن.

أفزعتها جملته فقالت ببلاهة:

- ماذا؟!.

- لا تحاولي خداعي... ذلك الضابط لم يأخذك بعيدًا كي يسألك عن عنوان المتجر الذي ابتعتِ منه طلاء أظافرك... لقد كان يحاول إغواءك.. يضعك في موقف اختيار.. ولهذا لم تخبريني بما حدث.

صمتها التام واحمرار وجهها أكد له صحة كلامه فاستمر قائلًا:

- ليس ما أحزنني هو عرض ذلك الحقير أيًا كان.. ما أحزنني هو أنكِ تفكرين في ذلك العرض.

- لكن....

- وأنا لن أصبر حتى تعقدي المقارنات.. لن أصبر حتى يتم وضعي في كفة الميزان المقابلة لذلك الضابط..

أثار كلامه حنقها وكرهت ضعف موقفها فجمدت وجهها قائلة بجرأة:

- في هذه الحالة أعتقد أنها النهاية فعلًا..

ابتسم بسخرية مريرة استفزتها لإغضابه قائلة:

- من الجيد أنك وفرت عليّ وقت التفكير.. في الواقع... ما كان ينبغي أن أفكر من الأساس.. كان يجب أن أقبل فورًا وأختبر فرصتي مع ذلك الضابط الناجح ذي النفوذ بدلًا من أن أضيع وقتي وعمري مع فاشل عديم الطموح مثلك.

صمت قليلًا محاولًا السيطرة على أعصابه الثائرة وقطب جبينه ثم أولاها ظهره قائلًا:

- حسنًا.. فلتسلكي طريق العاهرات كما ينبغي ويليق بكِ... وإن كنت أنا عديم الطموح....

ونظر لها بطرف عينه مستأنفًا:

- فأنتِ عديمة الشرف.

ثم انصرف عنها تاركًا كلماته الأخيرة تجمد عقلها تمامًا وتعجزها عن النطق والتفكير.. ثم استوعبت كلماته فجأة فتولد بداخلها غضب عارم دفع الدموع من عينيها وهي تصرخ في إثره بصوت لفت أنظار المارة القليلين:

- أيها الحقير.. أيها السافل.. أنا أكرهك.

ثم غلبتها غزارة دموعها فدفنت وجهها في كفيها تبكي بحرقة.

استمرت تبكي لعدة دقائق قبل أن ترفع وجهها قائلة من بين أسنانها ودموعها بغيظ وغلٍّ مكتومين:

- تدعوني أنا بالعاهرة عديمة الشرف... من تحسب نفسك أيها العبد الفاشل... سأريك من أنا.

ثم وفي غمرة غضبها وحنقها أخرجت من حقيبتها كارتًا صغيرًا مستكملة:

- سأريك من أنا.

كـررت كلماتها متأملة الاسـم الدقيق المحفور فـي قلب الكارت... اسم يحمل تهديدًا وأملًا... تهديد «لعبد 125» وأمل لها في حياة أفضل.. اسم..... «عمروا النقيب».

* * *

«في أرض العبيد.. لا تفاؤل.. لا فرحة...

... فقط يأس مطلق.. وشهوات حيوانية تحكمنا».

وليد الصحفي

* * *

كان اليوم مشـهودًا في مبنى قناة «الدنيـا» الإخبارية... لم يتخيل أحد أبـدًا هذا التطور المفاجيء واختـلال الأجواء في القناة بعد حادثة اقتحام المبنـى من قبل قـوات أمن النظام بداعي التفتيـش المفاجيء والتأكد من الالتزام بالقوانين.

كان جميع العاملين يعرفون سبب هذا التفتيش.. أدركوا في أعماقهم أن التفتيـش مـا هـو إلا قنـاع لما ترغـب به قوات أمـن النظـام.. ألا وهو التهديد.

أجـل التهديد... فمن فـي أرض العبيد كلها لم يشـاهد ذلك الهجوم الشـرس الذي شنته «سعاد المراسـلة» على الرئاسة والحكومة من خلال ذلـك التقرير الـذي أعدته وألقته مصحوبًا بحوار مـع رجل مجنون يزعم

الجهـلاء أنه مخلصهم المنتظر وأنه هو الرئيس والوارث الحقيقي لعرش الحكم في دولة نوصير.

الغريب أن ذلك الرجل والذي اصطلح الناس على تسـميته بالسيد.. قـد أثـار ضجة واسـعة وجدلا حاميـا على مسـتوى أرض العبيـد كلها.. وأشـعل النفـوس بمـا كان يرقـد بداخلها منـذ زمن بعيد لكنهم يخشـون الإفصـاح عنـه والاعتـراف به حتـى أمام أنفسـهم خوفًا مـن قبضة الأمن الباطشـة ولإيثارهم السـلامة... ولانشـغالهم في أكل عيشهم المتناقص رويدًا رويدًا حتى اقتصر على الفتات.

عجيب شـعب أرض العبيد... يدركون عمق الظلم الذي يحل بهم.. بل يغرقون في ظلمته كل يوم.. ولكنهم قد عودوا أنفسهم على مر السنين علـى التأقلم مع هذا الظلم ومواكبة نظام حياتهم معه بدلًا من الاعتراض عليه أو رفضه.

أهو الخوف الذي يمنعهم من الاعتراض؟!.. أم رغبتهم في الاستقرار الزائف.. أم هم الناس يحبون كونهم عبيدًا.. وهل من إنسان عاقل يستمتع بحرمانه من الحرية؟!.

ثـم يأتي هذا الرجـل المخبول ليثيـر بكلمات هذيانيـة كل النفوس.. كأنهم أدركوا فجأة انغماس أجسـادهم في مسـتنقع العفن.. تذكروا فجأة أنه ينبغي عليهم أن يتأففوا من تلك القذارة..

تنسيق: علامة تعجب www.ibtesama.com

«كالزانية، تحمل طفلًا في أحشائها تدرك قبل ولادته مباشرة أنه ابن حرام!!».

أطلق «عبيد السائق» جملته مغمضًا عينيه وهز رأسه بحكمة لينهي الجدل الدائر بين السائقين وتحليلاتهم لحقيقة المشهد بعد انصراف قوات أمن النظام من مبنى القناة.

حرك السائقون رؤوسهم باقتناع ثم انفضوا من حول «عبيد السائق»... تركوه مسترخيًا في مقعده الأثير عند مدخل مبنى القناة.

ثم فجأة حدث مالم يتخيله أحد... وكأن الغرابة قد آثرت هذا اليوم أن تقصر كل جهودها على القناة.

زاد الارتباك والاضطراب فجأة مع أصداء صيحات أنثوية غاضبة ترددت داخل المبنى وتحرك العاملون لمعرفة ما يجري...

وقف عبيد وأمسك أحد العاملين من ذراعه ليوقفه ويسأله عن سر ذلك الاضطراب فأجابه بسرعة:

- مدير القناة فصل سعاد المراسلة من العمل.

اتسعت حدقتا عبيد وتدلى فكه في دهشة بالغة فسعاد معروفة بمشاكلها المتعددة في القناة بسبب جرأتها.. لكن لم يدر بخلد أحد قط أن يتم فصلها في يوم من الأيام.. فهي مقربة جدا لمدير القناة.. كما أن لها جمهورا ضخما من المشاهدين والمعجبين الذين ينتظرون تقاريرها الصادمة لذلك ففي ذهابها خسارة للقناة...

تعجب من قدرة مدير القناة على اتخاذ مثل هذا القرار... كان متأكدًا أن هـذا القرار له علاقة بالتفتيش الأمني منذ قليل.. ربما تم تهديد المدير بإغلاق القناة إن لم يتخلص منها.

أطرق عبيد بحزن بعدما صدمه الإدراك المفاجىء بأنه لن يستطيع أن يمتع عينيه برؤية تلك الأفخاذ الدافئة مرة أخرى.

رفع رأسه ثانية عندما وصل الصياح الغاضب واضحًا إلى أذنيه.. رأى سعاد المراسلة وقد ظهرت في مرمى بصره..

كانت كمن قتلوا لها عزيزًا.. في غضبها وصياحها الراعد.

وقفت في منتصف البهو الواسع في مدخل القناة توزع سبابها وصرخاتها على كل من في المبنى... وقد رفعت عقيرتها بالصوت فلم تجد لها منافسًا.

«تطردني أنا يا ابن الكلب»...

«أنا سعاد المراسلة فخر وشرف لأي قناة أيها الحقير».

«سأفضحك في كل مكان أيها السافل... سأخبر الجميع عن الثمن الذي تقاضيته كي أعمل هنا... لم يغلق لك الأمن القناة فسأغلقها أنا يا ابن الكلب».

ثم نظرت فجأة لمن حولها بحدة، وشرر الغضب يتطاير من عينيها....

«أنتم أيها الفشلة مطأطئو الرؤوس تعملون هنا... وأنا يتم طردي؟!.. أنا؟!.... أفضل من في هذا المبنى!!... أنتم أيها الجبناء الحمقى العبيد... كلكم عبيد وليس العاطلون عن العمل فقط هم العَبيد».

«كلكم عَبيد»

قالتها ثم اندفعت كالإعصار خارجة من المبنى مارة بجوار «عِبِيد السائق» معقود اللسان في ذهوله وحسرته وهي تصرخ بجنون:

- سأريكم من أنا ياولاد الكلب.... سأريكم من أنا.

«سأريكم من أنا».

انتفض «محمد الحارس» من مجلسه على رمال الصحراء ونفض ملابسه مسرعًا بعد سماعه تلك الصيحة الغاضبة التي ساهم فراغ الصحراء في ترددها بقوة وميز فيها صوت قائد الحرس.

نظر نحو مصدر الصوت وقد شحب وجهه فأفزعه المشهد... قائد الحرس يتقدم مسرعًا وسط جمهرة من الحراس الذين يحاولون تهدئته وهو يصرخ ويسب بأعلى صوت تمكنت حنجرته من إنتاجه.

أوشك محمد أن يبول في ملابسه عندما أدرك أن قائد الحرس يتقدم ناحيته هو كأنه يقصده.

أخذ يدعو بصوت مرتجف بينما الصياح يخترق أذنيه لينشر الرعب في كل أنحاء جسده.

«سأريكم من أنا.. سأريكم ماذا سأفعل.. أنا قائد حرس ضعيف ومتسيب؟!.. أنا يقال عني هذا الكلام.. أنا يهينني الفهد بنفسه وأسمع مثل هذا الكلام بعد كل تلك الأعوام من الانضباط والإخلاص... كلا والله.. هذا ما لن أسمح به... لن أسمح به أبدًا».

كان قد وصل إلى مكان محمد العاجز عن الحركة فاقترب منه حتى لفحت أنفاسه الثائرة وجهه ثم صرخ فيه فجأة:

- كله بسببك أنت.

ثم اندفع في وجهه بلكمة حملت مقدار غضبه قوة فدارت الدنيا بمحمد وسقط على الأرض ليشبعه قائد الحرس ركلًا.

تأوه محمد تحت وطأة ركلات قائد الحرس فاقد الصواب والتي زادها إيلامًا حذاؤه الثقيل المدبب وغضبه العارم وهو يصرخ بجنون:

- يا وجه المصائب أنت.. أنت يا ابن الزنا تسبب لي الإهانة.. سأقتلك.. سأقتلك... كله من ورائك أنت وهذا المخبول.

ثم كأنما أدرك فجأة وجود شخص آخر يستطيع أن يصب غضبه عليه فصاح في رجاله:

- وأين هو هذا المجنون؟!.

أشار له رجاله نحو موقعه المتعمق في الصحراء خوفًا من غضبه وإشفاقًا على محمد الذي صاح بصوت مبحوح:

- لا.. أرجوك.

أسكته قائد الحرس بركلة قوية في فكه قذفت بالدم من فمه وهو يصيح:

- إخرس أنت خالص.. فحسابك لم يتهِ بعد.

أشار لرجاله قائلًا:

- قيدوه وأحضروه معكم.

اندفع الحراس لتنفيذ الأمر مقيدين محمد النازف المتأوه واقتادوه خلف قائد الحرس الذي اندفع في غمرة جنونه نحو موقع «السيد» حتى وصل اليه.

اقترب حتى وقف أمامه تمامًا متأملًا إياه في غيابه عن العالم حوله وتحديقه في السماء ثم قال بسخرية غاضبة:

- عال والله... أتانا من يحسب نفسه نبيًا.. أتانا من يختل له الاستقرار في بلادنا.. أتدري ما أنت أيها المخبول؟!.

ثم مد يديه وأمسك برأس السيد وأجبره على النظر إليه مستكملًا:

- أتدري ما أنت.. أنت مرض.. أنت فيروس لعين لو تركناه يبقى وينتشر لدمر هذه الأمة بحقده ومرضه وجنونه...

أجل.. أنت لعنة... لعنة ومرض ينبغي القضاء عليهما لنعيش في سلام مرة أخرى.. من هم مثلك لا تلزمهم الحياة.

ثم نظر نحو محمد المقيد قائلًا:

- المرة السابقة ألقيت بجسدك أمام سلاحي ولم أشأ قتله... هل ترى ماذا حدث نتيجة لذلك؟!... أترى ما سببته من قلاقل بغبائك وحمقك... شاهد الجحيم إذن.

صرخ محمد بصوته المتألم:

- لا.... لا.

تجاهل قائد الحرس صرخات محمد والتفت مرة أخرى نحو السيد قائلًا بغضب وقد أخرج سلاحه من غمده وصوبه تجاهه:

- نلتقي في الآخرة... أيها الملعون.

ثم أطلق الرصاصة التي غطت بصوتها على توسلات محمد وصرخاته الجزعة.

أطلق الرصاصة لتستقر في جمجمة السيد فسقط صريعًا من فوره أمام عيني محمد.

تجمد المشهد تمامًا بعد صوت الرصاصة... تثبتت العيون المتسعة على منظر السيد الغارق في دمائه.

السيد الذي حرك النفوس في أرض العبيد... السيد المجنون..

... أجل....

... قد مات السيد.

نظر قائد الحرس بتشفٍّ نحو محمد الذي تهاوت به ساقاه أمام جثة صديقه ثم قال:

- أنت معتقل بتهمة مخالفة الأوامر العسكرية.. وإهمال الحراسة والتقصير في أداء الواجب.

والتفت لرجاله قائلًا:

- خذوه إلى السجن.

لم يستطع محمد الوقوف وقد شَلَّ أطرافه ما شهدته عيناه فأمسك به الحراس من ذراعيه وجروه جرًّا بعيدًا عن جثة السيد...

ابتعد مشهد الجثة عن عينيه المذهولتين... وتمكنت دمعة من الفرار منهما

... دمعة اختلطت بالدماء التي لونت وجهه.... .

... دمعة على السيد.

* * *

- ألا يوجد من يفكر في مدّ يد المساعدة إلينا من الخارج؟!.

- لا تقل هذا... لا نحتاج مساعدة من أغراب.. نحن أقوياء وسنحقق العدل بأنفسنا.

* * *

كان التوتر والإثارة يحتويان عقل وجسد «ليلى المدرسة» فلم يسبق لها أن أقدمت على مثل تلك المغامرات التي تتسم بطابع المراهقة.

تحاول أن تسيطر على اهتزاز ساقيها اللتين تحركتا بعصبية فوق حذاء الكعب العالي... تخطر في ثوبها الأنيق نحو مدخل القصر الفخم الذي احتل مكانًا مميزًا في منطقة مساكن طائفة الوحوش والذي خصصه صاحبه لإقامة الاحتفال.

«ليلى المدرسة ضيفة عمرو النقيب من إدارة أمن النظام».

قالتها لجندي وقف بمدخل القصر ممسكًا بلائحة تحتوي أسماء الضيوف فأومأ برأسه وسمح لها بالدخول.

أخذت شهيقًا عميقًا هدأت به توترها وإن لم تستطع التخلص من الإثارة المسيطرة عليها.

تقدمت وخطت داخل البهو العملاق العامر بضيوف تنوعت أزياؤهم ما بين البزات العسكرية المهيبة وأزياء السهرة الضخمة شديدة الأناقة.

هؤلاء أناس يعرفون كيف يستمتعون بوقتهم...

هذا ما دار بخلدها وهي تبحث بعينيها بين الضيوف عن عمرو حتى لمحته بأناقته المعهودة حتى في بزته العسكرية.

كان يتحدث مع أحد رؤسائه فاقتربت منه حتى دخلت مجال رؤيته فرآها..

ابتسم لها ردًّا على ابتسامتها المرتبكة ثم استأذن بلباقة من محدثه واتجه إليها.

- أنتِ أجمل من في القاعة الليلة.

أعجبها الإطراء فرفعت رأسها بكبرياء وهي تقول:

- أعلم هذا.

ثم أخفضت صوتها وهي تتلفت حولها قائلة وكأنها تخاطب نفسها:

- ولكنني لست أكثرهم ثراءًا.

تعجب عمرو من كلماتها وتفكيرها ثم قرر تغيير الموضوع فقال:

- لماذا تأخرتِ هكذا؟!.

تنهدت قائلة:

- لأصدقك القول كدت أتراجع عن قراري في اللحظة الأخيرة ولا آتي.

ثم قالت كأنها تذكرت أمرًا ولمحة حزن تتسلل إليها:

- صحيح... ماذا حل به؟!.

أدرك عمرو من تقصد بكلامها فقال بثقة:

- لا تشغلي بالك.. رجالي يتكفلون بأمره الآن.

قالها واتسعت ابتسامته..

«ما الذي يفعلونه هنا؟!... أستر يارب».

قالتها عبير جارة الطابق السفلي في المبنى الذي يسكنه «عبد 125» وأسرته.

كانت تلقي نظرات قلقة من نافذة شقتها على الشارع حيث توقفت إحدى سيارات أمن النظام المخيفة أمام المبنى مباشرة وترجل منها جنود توجه أحدهم بالسؤال إلى «مرعي البواب» عن الشقة التي يقطنها «عبد 125».

دق قلبها بخوف حينما سمعت اسم «عبد 125» وأدخلت رأسها بسرعة من النافذة حتى لا يلمحها الجنود وأخذت تركض حتى أدركت باب شقتها ففتحته وانطلقت مهرولة على السلالم حتى وصلت إلى شقة «عبد 125» فأخذت تدق الباب بجنون وهي تلهث بعنف حتى فتحت الباب أم «عبد 125» التي هتفت بدهشة:

- عبير؟!... ماذا حدث؟!.

- ابنك... ابنك.

- ماذا؟!.

- أين ابنك؟!.

- نائم في غرفته.. لماذا؟!.

- قوات أمن النظام هنا ليأخذوه.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قالتها عبير وهي موشكة على البكاء فانتفض جسد أم «عبد 125» وارتج عليها فاقدة القدرة على النطق مما دفع عبير إلى أن تصرخ بها قائلة:

- أسرعي.. أيقظيه واجعليه يهرب.. سأحاول تعطيلهم.

انفلتت أم «عبد 125» إلى الداخل بينما أخذت عبير طريقها نزولًا ووقع أقدام الجنود المقتربين يتضح حتى قابلتهم أمام باب شقتها تمامًا.

رسمت على وجهها ابتسامة وهي تعترض طريقهم:

- ما الذي حدث أيها الشجعان.. لماذا أنتم هنا؟!.

أجابها الجندي المقابل لها بخشونة:

- هذا ليس من شأنك.. تنحي عن الطريق.

- لماذا هذا الجفاء.. أنا أسألكم فقط.

- وأنا قلت لكِ إنه ليس من شأنك.. والآن تنحي عن الطريق لنواصل عملنا.

- كلا.

قالتها «عبير» وقد حلت الشراسة مكان ملامحها الوديعة.

- ماذا؟!.

قالها الجندي بدهشة، فلم يعتد أن يتحدث معه أحد المواطنين بجرأة..

أجابته عبير بحدة:

- لن أبتعد عن طريقكم... لن تقبضوا عليه فهو طيب ولم يفعل شيئًا خاطئًا.

توتر الجنود بينما صاح فيها الجندي المواجه لها:

- من الأفضل لكِ حفاظًا على كرامتك أن تبتعدي عن الطريق.

- كلا... عليكم أن تعبروا فوق...

لم تكمل جملتها إذ صفعها الجندي بقوة شديدة دفعت جسدها ليرتطم بالحائط وهي تصرخ متألمة.

لم يكتفِ الجندي بذلك إذ امتدت يده لتشد شعرها بقوة آلمتها بعنف لتستمر صرخاتها المستغيثة بينما قال هو بقسوة:

- ألم أخبرك أنه من الأفضل لكِ أن تبتعدي عن الطريق.

«عبير!!».

خرجت الصيحة من فم «عبد 125» المذهول الذي لم يتركه النوم بالكامل ولم يفهم شيئًا من أمه الخائفة قبل أن يسمع صرخات عبير المستغيثة فهرول نازلًا ليجد المشهد العجيب أمامه.

اتسعت عينا «عبير» برعب عندما رأته وصرخت قائلة:

- لا... اهرب.. إنهم هنا من أجلك.

خرجت الكلمات من فمها لتفضح هوية «عبد 125» فدفع الجندي المتهجم على عبير بها بعيدًا بخشونة والتفت إلى «عبد 125» الذي لم يكن بعد قد ارتدى درعه المميز وخاطبه بحدة:

- هل أنت العبد رقم 125.

- أجل.. أجل.

خرجت منه الكلمة كإشارة للجنود كي ينقضوا عليه ويكبلوه فصاح بهم:

- ماذا تريدون؟!... أنا لم أفعل شيئًا.

- اخرس.. صدرت لنا الأوامر بإلقاء القبض عليك.

اندهش «عبد 125» ولما كان متأكدًا من براءته فقد قال لهم:

- حسنًا.. حسنًا لا داعي لكل هذا.. سآتي معكم بهدوء ولكن لا تؤذوها أرجوكم.

نظر الجندي إلى عبير وقال بسخرية:

- لست في وضع يتيح لك التفاوض.. أحضروه.

قال الكلمة الأخيرة مخاطبًا الجنود الذين دفعوا «عبد 125» بخشونة كي يتحرك فتحرك نازلًا مارًا أمام عبير التي راقبته بهلع وعين دامعة ووجه ملتهب من أثر الصفعة.

في نفس الوقت.. في بهو قصر فخم ضم احتفال كبار رجال الدولة كان «عمرو النقيب» يتلفت حوله باحثًا عن «ليلى المدرسة» التي اختفت من جانبه حينما انشغل بالحديث مع أحد رؤسائه عن عملية قريبة لمداهمة أحد أوكار الإرهابيين.

كان يبحث بعينيه عنها عندما وصلت إلى أذنيه جلبة وضجة متصاعدة قادمة من خارج البهو الذي يضم الاحتفال فتوجه نحو مصدرها مستطلعًا.

خرج من البهو إلى حديقة القصر ليجد المشهد الغريب.. «سعاد المراسلة» يكبلها أربعة من الجنود وهي تقاومهم بعنف وشراسة لبؤة غاضبة.

صرخت بقوة حينما رأت البزة العسكرية التي يرتديها عمرو:

- يا سفلة يا أولاد الكلب... تأمرون مديري بفصلي من القناة.. سأفضحكم كلكم.. سأفضحكم وأنشر زيفكم.

نظر عمرو إلى الجنود مستفسرًا فقال أحدهم مفسرًا:

- هذه هي سعاد مراسلة قناة الدنيا التي سجلت مع الرجل المجنون... حاولت التسلل إلى الاحتفال بهوية مزيفة ولكننا تعرفنا على شكلها وأدركنا هويتها الحقيقية فحاولت الهرب منّا واقتحام الاحتفال فقبضنا عليها... وجدنا كاميرا صغيرة وجهاز تسجيل في حقيبتها أيضًا.

ابتسم عمرو بثقة وهدوء واقترب منها قائلًا:

- اسـمعيني جيدًا... سأخبرك بمعادلة حياة البشر في أرض العبيد... حياتنا يمكن تمثيلها بمجموعة من النقائض...

قاطعته سعاد صارخة:

- فلتضع معادلتك في مؤخرتك ولتذهب أنت وهي إلى الجحيم..

سأفضحكم.. صدقني سأفضحكم.

غمرت الدهشة وجه عمرو فقد كان هذا أغرب وأوقح رد سمعه على فلسفته في الحياة ثم قال ببطء:

- مؤخرتي أيتها الوقحة؟!... وتفضحينا؟!.

قـال الكلمـة الأخيرة ثـم انفجر فـي الضحـك بطريقة أثارت دهشـة الجميـع ومـن ضمنهم سـعاد قبل أن يتوقـف عن الضحك فجـأة ويقول بحدة:

- عن أي فضائح تتحدثين؟!.. ماذا لديكِ أساسًا؟!....

إذا كان هناك من هو في موضع الفضيحة فهو أنتِ.. أم أنكِ قد نسيتِ سـريعًا مـا اعتدتِ علـى فعله مع مديـر القناة كي تحافظـي على وظيفتك البائسة.

اتسعت عينا سعاد واحتقن وجهها.

«ماذا تريدنا أن نفعل بها يا سيدي؟!... هل نعتقلها؟!».

قالها أحد الجنود فالتفت إليه عمرو قائلًا بهدوء:

- كلا.. لدينا ما يكفي من المشاغل.. وأنا لن أشغل بالي بمراسلة حمقاء.. ألقوها خارج المكان وإذا حاولت الدخول مرة أخرى.. اعتقلوها.

ثم اقترب منها حتى ألصق فمه بأذنها ثم قال:

- فلنَرَ ما لديكِ.. أيتها المراسلة.

ثم استدار عنها وتوجه إلى بهو الاحتفال مرة أخرى تاركًا جنوده يتصرفون معها وقد انعقد لسانها أخيرًا.. وإن كانت كلماتها قد حركت بداخله شعورًا غريبًا.. فقد كانت هذه أول مرة يتطاول عليه أحد.. وبهذه الطريقة!!.

أجل.. هو شعور الإهانة الذي يتحرك بداخله لأول مرة.. وياله من شعور!.

دخل البهو وقد عاوده الانشغال بالبحث عن رفيقة سهرته ليلى... ظل يتلفت حوله حتى لمحها واقفة تتضاحك بدلال مع «سامح بيه» المليونير الشاب وريث إمبراطوريات صناعية ضخمة عن والده «كمال باشا» أحد أقدم كبار رجال الدولة وأكثرهم ثراءًا وصاحب النفوذ الواسع والصديق الشخصي لرئيس الدولة السابق والذي أورث كل ماله ونفوذه إلى ابنه الوحيد.

رغمًا عنه شعر ببعض الغيرة تتسلل إليه فتقدم مسرعًا تجاههما ومد يده محييًا:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

- «سامح بيه»... أخبار سعادتك؟!.

التفت إليه الرجل وصافحه بابتسامة باردة قائلًا بينما احمر وجه ليلى:

- أهلًا عمرو.. كيف حالك؟!.

تجاوز عمرو عن إهمال الرجل للقبه ومد يده ساحبًا ليلى من يدها إليه بحركة ذات دلالة قائلًا:

- أرى أنك قد تعرفت إلى ليلى.

ازداد احمرار وجه ليلى وأطرقت بينما قال «سامح بيه» وابتسامته لا تفارق وجهه:

- أجل.. كنت أخبرها الآن أنها أجمل من في احتفال الليلة.. محظوظ من يحظى بامرأة مثلها.

قال جملته الأخيرة غامزًا بعينه إلى ليلى المدرسة التي لم تتحرَّ كلمة حتى الآن فاحتقن وجه عمرو وقال بغيظ:

- أجل.. أعلم هذا.. أنا من دعوتها للاحتفال.

رد «سامح بيه» قائلًا ببرود:

- حسنًا.. شكرًا لك على هذه الإضافة الجميلة إلى حفلنا المتواضع.

قالها ثم غمز بعينه مرة أخرى إلى ليلى وابتعد عنهما.

التفت عمرو إلى ليلى قائلًا بحنق:

- ما الذي تفعلينه بالضبط؟!.

قالت دون أن تنظر في عينيه:

- وما الذي أفعله؟!.

قال غاضبًا:

- لا تردي على سؤالي بسؤال.

نفضت ليلى يدها من يده وقالت بحنق:

- لا تحدثني بهذه الطريقة... لست أحد جنودك حتى تحدثني هكذا.. أنت لا تمتلكني.

اندهش عمرو من طريقتها في الرد والجمل ذات المعاني التي قالتها وتعجب من تبدل حالها معه بهذه السرعة.

هدأ أعصابه الثائرة وقال:

- حسنًا.. سأخبرك أنا بما تفعلينه... أنتِ تغازلين هذا الرجل.

قالت بغضب:

- كيف تجرؤ؟!.

ثم أردفت بسرعة:

- وأنت تركتني من أجل عملك.. أنت انشغلت بعملك عني... اهتممت بعملك أكثر مني.. وهذا ما لا أريده في حياتي...

- هكذا إذن... أنتِ تبحثين عن الاهتمام فقط... أيتها الحمقاء.. هل تعتقدين أن هذا الثري يهتم بكِ حقًا... هل تظنين أنه يبحث عن زوجة جميلة يعطيها اهتمامه؟!.. أنت لا تدركين طريقة تفكير هذه الطبقة... حقًا أنتِ مجرد طفلة حمقاء تبحث عن الأشياء اللامعة.

- إياك أن تهيننني.. أخبرتك أنك لا تمتلكني.

لم تدرِ ليلى لماذا بعثت كلمات عمرو في ذاكرتها كلمات مشابهة ألقاها على مسامعها «عبد 125»...

سيطر عليها الغضب من تشابه ظنونهما بها... هل هي حقًّا حمقاء متسرعة... كالعادة امتلكها عنادها الدائم ورفض تلك الظنون ودفعها إلى أن تقول بسخرية:

- من الأفضل أن أختبر فرصتي معه ومع غيره إذا اقتضت الظروف.. أنا سأجد الرجل المثالي.. رجلًا ليس بفاشل عديم الطموح.. أو رجلًا يشغله طموحه وعمله عني ويهبط بي إلى المرتبة الثانية في اهتماماته.

ثم ابتعدت عنه قليلًا مستمرة في سخريتها:

- لا تحزن كثيرًا فقد فعلت أنت نفس الشيء مع رجل كنت أقنع نفسي به وبحبه قبل أن تغير أنت مفاهيمي وأفكاري... أنت من جعلني أدرك قيمتي وقيمة جمالي... أنت من صنع هذه الإنسانة الجديدة التي تراها أمامك... فلا تُحزن نفسك كثيرًا.. وانشغل بعملك كما تريد.

ثـم استدارت عنه تاركة إيـاه في ذهولـه وتوجهت بـدلال واثق نحو «سـامح بيـه»... دلال وثقـة يختلفـان تمـام الاختـلاف عن التوتـر الذي أرجف قدميها وهي تدخل هذا المكان الواسع.. هذا العالم الآخر المليء بالفرص والاحتمـالات.. الفرص في حياة أرقى وأجمل... واحتمالات الثراء والهناء اللا متناهي.

ظـل عمرو على وقفته المتجمدة عاجـزًا عن فهم كيف ولماذا تدهور به الحال هكذا فجأة... ظل واقفًا متحيرًا ومندهشًا من ذلك الشعور الذي لم يصبح غريبًا.. الشـعور الذي سـيطر على كل خلية في جسده.. أجل.. هو شـعور الإهانة ذاك الذي يتحرك بداخله ويجتـاح أعماقه للمرة الثانية في نفس اليوم.. بل في نفس الساعة...

.... وياله من شعور!.

* * *

كان «الكبير» سمسار العبيد يتحرك بقلق داخل الكابينة الصغيرة على الحدود والتي ضمت أكثر من ثلاثين من العبيد الطامحين في التحرر من قيود العبودية وتحقيق حياة أفضل وأكثر كرامة في الخارج.

لـم يكـن مردّ قلقـه إلى خوفه مـن حراس الحـدود فهذه ليسـت أول عملية تهريب عبيد يقوم بها وإن كان يفضل تسـميتها «تحرير العبيد» فقد كان يـرى نفسـه بطلًا ومحررًا لبني طائفته بعد حوالي خمسـة عشـر عامًا من اتخاذه سمسرة العبيد مهنة له بعد يأسه وتحطم آماله في التخلص من قيودها بالطرق القانونية.

لم يكن الكثيرون يعلمون سر نجاحه في تلك المهنة، وذلك أنه عقد اتفاقيات قديمة مع مجموعة الحراس والضباط المراقبين لهذه المنطقة من الحدود... اتفاقيات موقعة بالمال وبشرط ذهبي يثير أعصابه دائمًا.. شرط أن يسلمهم بين الحين والآخر مجموعة من العبيد الهاربين على طبق من فضة...

يبلغهم بالمكان ويدعهم يقومون بعملهم فيُقبَض على من يُقبَض عليه من العبيد ويُقتل من يُقتل... ويظهر الأمر في النهاية كفشل محتمل لعملية صعبة فلا ضرر يقع على سمعة الكبير وفي نفس الوقت يظهر الضباط بمظهر جيد أمام رؤسائهم وأمام الصحافة كقوة ضاربة تقوم بواجبها وتمتلك خط الحدود في قبضتها.

كان الكبير يكره هذا الشرط... يؤلمه بشدة أن يسبب الضرر لأبناء طائفته المساكين الباحثين عن لقمة العيش... يؤلمه ضميره بكلمة الخائن التي تتردد بقوة مؤذية في عقله كلما جاءت لحظة تنفيذ هذا الشرط... لكن ماذا بيده ليفعله؟!...

فبغير تلك الاتفاقيات يتعرض هو نفسه لخطر القبض عليه.. أو تتدمر سمعته ويفشل في مهنته فيعود إلى وضعه القديم كعبد بلا قيمة في صفوف العبيد... فهو على الأقل يضمن لنفسه ولأبنائه معيشة مناسبة وفرصًا أفضل لمستقبلهم مع تعدد علاقاته ووساطاته مع سادة المجتمع.

كان هذا هو منبع قلقه وعصبيته في ذلك الوقت.. فالليلة يجب عليه تجديد تنفيذ هذا الشرط.. يجب عليه أن يخرج في صمت وبدون إثارة

أي شكوك ويهرب بعيدًا... بعيدًا.. ويدع القوة المحاصرة للكابينة تقوم بعملها.

يتحرك بهدوء بين الأجساد المتكومة في توتر وصمت تحلم بالمستقبل... عيونهم المتعلقة به في امتنان وأمل تلسعه وتحرق أعصابه.

يتوقف عند مدخل الكابينة... يجيل النظر فيهم.. يالالمساكين.. تستقر عيناه على ذلك الفتى الضخم.. يسمونه «كريم العامل».. مسكين سيئ الحظ كغيره من العبيد... و..

يقشعر بدنه فجأة عندما يلاحظ الطريقة التي يحدق بها كريم فيه... عيناه مثبتتان على وجهه بقوة... يكاد يلمح طيف الغضب والصرامة يجول فيهما..

لماذا يحدق بتلك الطريقة؟!... هل أدرك طبيعة الموقف؟!... اللعنة..

تمر لحظات متوترة قبل أن يبتسم كريم ابتسامة خفيفة ويومئ برأسه... على الرغم من الارتياح الذي غمر «الكبير» لأن كريم لم يكتشف ما يحدث... إلا أن ذلك الارتياح ما لبث أن تلاشى وحلت مكانه كلمة «الخائن» المعتادة تتردد في عقله مصحوبة بألم غير مسبوق.

هؤلاء العبيد وضعوا ثقتهم الكاملة به وأوكلوه بمهمة تهريبهم... ودفعوا مقابلًا ماديًا كبيرًا.. وها هو ذا يبيعهم إلى حماة الحدود!!.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

يبيع مستقبلهم.. من أجل مستقبله هو... وعلى الرغم من هذا.. فهو ثمن يستعد لدفعه آلاف المرات على أن يضمن لنفسه ولأبنائه الأفضل.

خرج من الكابينة بهدوء كأنما ليستنشق بعض الهواء النقي ثم ابتعد بحذر عنها.. ابتعد بخطى مسرعة حتى وصل إلى دائرة الحصار المضروب.. الحصار المهيأ للتقدم عند الإشارة للقضاء على مستقبل من لا مستقبل لهم.

تقدم بخطوات متعثرة نحو الضابط المسئول محييًا بارتباك أمام نظرات الضابط الساخرة:

- عز بيه.

اتسعت ابتسامة «عز النقيب» الساخرة وهو يقول:

- يا أهلًا بالكبير.. القمامة في مكانها؟!.

أثار حنقه وصف العبيد بالقمامة ولكنه آثر السلامة فقال:

- أجل.

ثم أضاف في رجاء أقرب إلى التوسل:

- طلب بسيط يا عز بيه.

رد عز بنفاد صبر:

- ماذا تريد؟!.

ابتلع «الكبير» ريقه بصوت مسموع وقد عادت إلى ذهنه نظرة كريم المؤلمة ثم قال:

- لو أمكن سيادتك.... لو أمكن فقط عدم استخدام الرصاص هذه المرة.. يعني.. لا ضرورة للقتل فهم لن يتمكنوا من الهرب في كل الأحوال.

حدق فيه عز بصرامة قائلًا:

- هل ستخبرني ما الضروري وما ينبغي فعله!!.

تعثر الكبير في كلماته متراجعًا:

- ليس هذا ما قصدته سيادتك... أعني.. هؤلاء العبيد مساكين وحياتهم مستحيلة.. أنا أرجو منك فقط أن تشفق على حالهم يا عز بيه.

قال جملته الأخيرة وقد تكرمش وجهه فانفلت عز في الضحك قائلًا:

- أنت تخاف عليهم وتشفق لحالهم الآن.. وماذا عمن سبقوهم؟!.. لم الشفقة المفاجئة الآن؟!.. سأخبرك شيئًا.. الموت في حالة هؤلاء الحثالة هو مصير أفضل مما ينتظرهم في المعتقل.. انصرف أنت الآن ودعنا نتكفل بالأمر بطريقتنا.

لملم الكبير كرامته المبعثرة وهرول مبتعدًا مثقلًا بضميره وأحزانه بينما التفت عز نحو جنوده صارخًا فيهم بحماس:

www.ibtesama.com

- دعوكم من ترهات هذا الأحمق.. بعد حادثة ذلك الرجل المجنون على الحدود الشرقية ينبغي علينا أن نثبت أنفسنا وقوتنا مرة أخرى.. ينبغي أن نريهم أننا مازلنا هنا ومازلنا أشداء نحكم الحدود بقبضة من حديد.. حتى لا تظن القمامة أن قبضتنا تراخت ونحن لنا سمعة نحافظ عليها.. دعكم من النظام المعتاد.. لا اعتقالات اليوم فالمعتقلات بها ما يكفي.. كما أن الطريقة المثلى للتخلص من القمامة هي حرقها وإزالتها من الوجود.

ثم قال وهو يشير نحو الكابينة المكتظة بالأجساد:

- وهذه القمامة ستتم إزالتها من الوجود الليلة.

قالها باستمتاع حقيقي وشهوة الدماء تملأ عروقه وجنونه يلمع في عينيه.

في نفس الوقت في الكابينة الغارقة في عزلتها بدأ العبيد يتساءلون عن سر اختفاء الكبير الذي طال... تساءلت العيون والأفواه المطمورة في عدم إدراكها للمصير المنتظر.. بينما ظل كريم على هدوئه ومراقبته لمن حوله وعقله ممتلىء بالأفكار.. فبعد القبض على صديقه «عبد 125» تلاشى كل أمل لديه في تحسن الأوضاع وامتلأ صدره بالغضب والنقمة على كل ما حوله ومن حوله...

أخذ قراره بالرحيل... بالهرب إلى عالم أفضل من عالم حقير لم يعد به ما يربطه سواها.. هند.. تلك الحسناء العذبة التي امتلكت مفاتيحه

كلها.. فراقك صعب يا هند ولكني سأتحمل.. سأصبر حتى أعود رجلًا أفضل وربما آخذك معي ونرحل من هذا المكان الملعون سويًّا فنتخلص منه ومن ذكرياته نهائيًا.. اصبري يا هند.. ولسوف أعود من أجلك.. صدقيني سوف أعود.

أفاق من أفكاره على ارتباك العبيد من حوله.. هناك حركة غير طبيعية في المكان..

فجأة صرخ أحدهم برعب أن الحراس يحاصرون المكان فانتفض الجميع في فزع.. أجل.. لقد أحس بذلك.. أحس بخيانة ذلك الحقير الكبير ورآها مرسومة على وجهه لكنه فضل وأد شكوكه.. اللعنة.. ما العمل؟!.

فجأة بدأ إطلاق النار على الكابينة فتدافع الجميع صارخين محاولين الهرب من الكابينة.. الرصاص الثقيل يخترق جدران الكابينة المهترئة الضعيفة.

انكفأت أجساد ميتة وتعثرت فوقها أجساد هاربة مستغيثة برحمة من الله... بالكاد تمكن كريم بجسده الضخم من الخروج من الكابينة فصدم عينيه المشهد المرعب للحراس المهاجمين بتطويق لا يسمح بالفرار.

صرخ متألمًا عندما أصابت قدمه رصاصة قاصدة فانكفأ على وجهه متألمًا... ظل على حاله لدقائق مغلق العينين ينتظر الموت.. لا يسعفه عقله بالتفكير في أي شيء... لم يمر أمامه شريط ذكرياته كما كان يظن.. فقط هدوء سيطر عليه وانتظار للنهاية.

فتح عينيه برفق متعجبًا من تأخر الموت ومستغربًا السكون الذي ساد الموقف.. وجد نفسه محاصرًا بين أجساد هامدة انحبست في صدورها الصرخات مع الرصاص القاتل وتحررت منها الأرواح باكية حظها التعس.. فلا حياةً وجدت ولا ميتةً قيمة نالت.

رفع وجهه لأعلى ببطء فطالعته فوهة مسدس مرعبة تقف خلفها ابتسامة ظافرة لعز النقيب.

قال كريم بوهن:

- لماذا؟!

رد عليه النقيب بتشفٍّ:

- لأنكم قمامة.

تجمع الغضب في صدر كريم وخرج في صيحة واحدة:

- سأقتلكم جم....

أسكتته رصاصة صائبة من مسدس النقيب...

رصاصة حملت لصاحبها انتصارًا بلا انتصار وأنهت مأساة عبد عاش ومات غرقًا في مستنقعات الظلم العفن.

رصاصة لم تهتم بأحلام من استقرت بداخله.. بذكرياته.. بطموحه.. بألمه وأحزانه...

رصاصة أنهت انتظار فتاة جميلة تنتظر عودة حبيبها منتصرًا في معركة الحياة..

وربما أمدت ذلك الانتظار...

... إلى الأبد!.

* * *

زنزانة مظلمة تلك التي اقتادوا «عبد 125» إليها.. تجلت قضبانها أمام عينيه لتؤكد حقيقة حاول عقله تجاهلها منذ تم إلقاء القبض عليه.. حقيقة أنه سيدخل المعتقل لأول مرة وهو المنضبط المخلص للقانون طيلة حياته...

حقيقة أنه مسجون وبلا سبب واضح.. غير واضح بالنسبة إليه على الأقل، إذ كان يبدو من همسات الجنود وغمزاتهم الجانبية أنهم يعلمون.. يعلمون ولا ينوون إخباره.. وعليه أن يصمت.. أو يتعرض للضرب المبرح.

دفع به الجنود داخل الزنزانة... ذلك الظلام اللعين الذي لم تعتده عيناه بعد.. لكنه لدهشته ظلام دافىء.. ربما بسبب ضيق الزنزانة الواضح.. أخذت عيناه تعتادان الظلام تدريجيا.. ساعدت على ذلك شذرات الضوء الباهت القادم من الممر الخارجي ليبتلعها ظلام الزنزانة.. فكأنما صممت الزنزانة لتكون مظلمة طوال الوقت.. ولكأن حوائطها السميكة قد نقعت في ظلام الشر سنوات طويلة لتصبح على هذا الحال.

اقشعر بدنه فجأة حينما اكتشف وجود أشخاص آخرين في الزنزانة.. ثلاثة أشخاص تحديدًا.. استنفر عضلاته تحسبًا للمشاكل المنتظرة وقد عادت إلى ذاكرته حكايات المعتقلين عن الترحيب الخاص جدًّا الذي يتلقاه المسجون الجديد والتي أيدتها أفلام وروايات السجون التي جعلت جلده يقشعر في السابق من فكرة دخول المعتقل...

يجب عليه ألا يخاف الآن ويواجه الأمر الواقع... فليستعد للدفاع عن نفسه وحسب.

انتبه إلى صوت التمتمة الهذيانية التي يرددها الرجل المتهاوي بجوار الحائط على يمينه.. أنصت قليلًا ليستمع إليها...

«قتلوه»....

«قتلوا السيد»....

«قتلوا صديقي».....

«قتلوه»....

السيد؟!... لماذا يبدو هذا الاسم مألوفًا.. أجال «عبد 125» نظره في الرجلين الآخرين.. أحدهما يجلس مرتكنًا إلى الحائط على يساره ويبدو من اتجاه وميل رأسه أنه يحدق فيه بشدة محاولًا تبين كنه القادم الجديد... أما الرجل الأخير فقد دفن رأسه بين فخذيه بلا أي اهتمام بالقادم الجديد أو بهذيان الرجل المتهاوي.

«هيه... أنت».

قالها الرجل المحدق فتحفز «عبد 125» واستنفر عضلاته مرة أخرى... وكأنما استشعر ذلك الرجل قلقه فقال مطمئنًا:

- لا تقلق.. لسنا من مسببي المشاكل.

لم يرد «عبد 125» وإن كانت كلمات الرجل قد بثت فيه بعض الطمأنينة.

- ما اسمك؟!.

سأله الرجل بإصرار فرد «عبد 125» بصوت خافت:

- عبد 125.

- آه.. أنت واحد من العبيد إذن.. ما تهمتك؟!.

أجاب «عبد 125» بحيرة وكأنه يحدث نفسه:

- لا أدري.. صدقني.

ضحك الرجل ضحكة خافتة ثم قال بود:

- أصدقك.. هذا طبيعي في بلدكم هذا... أنا نفسي لا أدري ما تهمتي.. لم أنت واقف هكذا؟!... تعال اجلس بجانبي.

تقدم «عبد 125» بحذر وجلس بجوار الرجل قبل أن ينتبه إلى نقطة ما فسأل الرجل بغتة:

- بلدكم؟!... أنت لست من هنا؟!.

- أجل لست من بلدكم.. أنا «عالي» بالمناسبة.. تشرفت بمعرفتك.

- عالي؟!... ما هذا الاسم الغريب؟!.

ضحك «عالي» ضحكته الودودة مرة أخرى ثم قال:

- أجل أنا أدرك هذا جيدًا.. كل من عرفتهم في حياتي أجمعوا على هذا.. لكنه اسمي وأنا أعتز به على كل حال.. كما أنني لم يتسنَّ لي لقاء والديَّ لأسألهما عن سبب اختيار ذلك الاسم.

أدرك «عبد 125» ما يقصده فغمغم معتذرًا:

- آه.. أنا آسف.

- لا داعي للأسف.. فأنا لم أرهما أساسًا لأحزن على غيابهما.. لدرجة أنني في كثير من الأحيان أشعر أن الطبيعة هي من لفظتني للحياة.. نظرة فلسفية أنا أعلم.. لكن أعتقد أن ذلك حال كل من جاء للدنيا بلا أبوين.

أعجب «عبد 125» بكلمات «عالي» التي تحمل دلالة على عمق التفكير وكأنما نسي فجأة مرارة الحبس وتحمس لسماع قصته كلها فسأله:

- ولكن.. ما الذي جاء بك إلى أرض العبيد؟!.

- هذه قصة طويلة ياصديقي.

- أعتقد أن الوقت هو كل ما نملك الآن.

قال «عبد 125» بلهفة التقطها «عالي» فابتسم بهدوء مدركًا أنه ليس لديه ما يخسره إذا حكى وملاحظًا انتباه الرجل الصامت أيضًا إذ رفع رأسه ببطء وتزحزح قليلًا ناحيتهما.

أخذ «عالي» نفسًا عميقًا وشرد ببصره وشبح ابتسامة يظهر على جانب فمه.. ثم بدأ بالسرد:

- من العسير على من نشأ في ملجأ للأيتام مثلي أن ينعم بحياة طبيعية... أو يشعر بالاطمئنان والاستقرار في أي لحظة في حياته.. دائمًا هناك ذلك الخوف من المستقبل.. الحذر في كل خطوة للأمام.. الخوف من العواقب.. والعقاب.

ذلك الملجأ البائس في دولة حيارى الذي أدركت عيناي الحياة في فنائه مغمورًا في صفوف من الأيتام لا يجمع بينهم سوى البؤس المحفور على الملامح وحقيقة أنهم وحدهم في هذه الدنيا.

إدراك هذه الحقيقة في حد ذاته كفيل بتحطيم النفس وتدمير الحياة.. أثناء نشأتي هناك.. التقطت أذناي تلك الكلمات.. تلك الإشاعة التي كانوا يحجبونها عني ويتهامسون بها بإستمرار كلما مررت بهم.

إشاعة أنني سليل عائلة عريقة حكمت العالم العربي يومًا ما..

إشاعة أنني عظيم الشأن، المنسي وسط الأيتام....

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كانوا يتحدثون عن جدي التائه في الصحراء يبحث عن ملكه الضائع...

جدي الذي وضعني في ذلك المكان ثم انصرف في سعيه..

إشاعة سخيفة تجاهلتها أول الأمر.. لكنني وجدت نفسي أميل إلى تصديقها بعد ذلك.. لا أدري السبب تحديدًا.. ربما هو الإحساس بأنني لست وحيدًا في هذا العالم.. أو شعور بالتفوق والأفضلية عمن يحيطون بي.. أو ربما كان مجرد هروب من واقع سيئ إلى حلم أفضل وأعظم...

ثم عاد الواقع بقوة ليبتلع ذلك الحلم عندما حانت لحظة خروجي من الملجأ.. خرجت من الملجأ كغيري ممن خرجوا معي.. عبيدا فقراء.. فاقدين لذواتهم.. مستنكرين تلك الصفة الوقحة التي حلت محل أسمائهم التي ولدوا بها وألفوها...

ظللت لسنوات متنقلًا من وظيفة حقيرة إلى أخرى أحقر منها.. أكسب ما يكفي لإبقائي على قيد الحياة التي أريد التخلص منها..

أعيش وسط الكتب المستعملة ممزقة الأغلفة والأوراق التي أحصل عليها بأبخس الأسعار.. حتى جاء ذلك الحدث.. عندما وقعت يدي على ذلك الكتاب..

كان اسمه «الحَكَم» من تأليف كاتب اسمه «ياسر الكاتب»..

كان يتحدث فيه عن سيكولوجية الحاكم الظالم والظلم الواقع على شعبه.

فـي حياة كل إنسـان علي وجـه البسـيطة.. لا بد من ذلـك الحدث.. حـدث قد يأتي في صورة شـخص أو موقف أو حتـى كلمة واحدة.. بعد ذلك الحدث تتغير حياة الإنسان تمامًا وتتفكك قواعده السابقة ويستبدل بها قواعد جديدة لحياة جديدة.. وقد كان الحدث الذي غير حياتي.. هو ذلك الكتاب.

* * *

توقـف «ياسـر الكاتـب» عن القـراءة عند تلـك الجملـة وانتفض من مقعده في ذهول شديد.. أخذ يدور في الحجرة بعصبية وانفعال جارف.. معقول؟!

«عالي» يعتبر أحد قادة تلك الانتفاضة التي حدثت في أرض العبيد.. وهـو يقول إن كتابـه هو الذي أغضب كافة المسـئولين فـي دولة حيارى وأدى إلـى تدهور علاقاته معهم، هو الكتـاب الذي غير حياته ودفعه إلى تلك الخطوة.

أمن المعقول أن يكون هو أحد مسببي اشتعال تلك الشرارة الثورية.. بـل قـد يكـون المسـبب الرئيسـي لها فـي هـذه الحالـة.. فهو مـن كتب الكتاب.

تصاعـدت بداخلـه موجـات من الانفعـال والفخر والحمـاس فأخذ يصيح بصوت عالٍ مُنتشٍ:

«أجل.. هذا ما كنت أتمناه طيلة حياتي.. أن أؤثر في حياة الناس.. أن أغير.. أن أصبح عظيمًا.. وعلامة في التاريخ.. فلتفرحي يا وردة في قبرك فزوجك قد حقق مبتغاه».

أنهى صياحه العالي وهو يرتجف من فرط الانفعال ثم عاد سريعًا إلى مكتبه وجلس على مقعده في حماس شديد..

وعاد إلى قراءة أوراق الشاب وليد الصحفي.. وإلى الكتابة!.

* * *

«بعد أن قرأت ذلك الكتاب تغيرت حياتي وأفكاري بالكامل.. وأخذت على نفسي عهدًا وقرارًا أن أستكمل مسيرة أجدادي وأسترجع شرف عائلتي.. قررت أن أكون أنا ذلك الحدث الذي يغير حياة الناس والشعوب إلى الأفضل.. إلى العدل...

لم أفكر في مصاعب وأخطار ومستحيلات ذلك القرار الذي اتخذته.. ولكنني قررت الالتزام به وتنفيذه حتى النهاية.. وبذلك يصبح لحياتي الفارغة معنى..

ذكر ذلك الكاتب في كتابه أن مأساة الظلم والعبيد قد بدأت من هنا.. من دولة نوصير التي أخذت المسمى الأول.. «أرض العبيد».

تعبت كثيرًا حتى جمعت ما يكفي لسفري إلى أرض العبيد باعتباري سائحًا.. ثم بدأت المرحلة التالية من رحلتي.. مرحلة التحدث والإقناع..

قلة من الناس استمعوا لما لديّ وأيدوني.. والأغلبية هربوا مني وآثروا السلامة و(المشي جنب الحيط) على حد قولهم..

اكتشفت الثغرات العديدة في تلك المرحلة... ثغرات تتمثل في الخوف والضعف البشري وهو ما لم أحسب له حسابًا.. فقررت الانتقال إلى المرحلة التالية..

قررت التحدث مع أحد كبار المسئولين في أرض العبيد ومحاولة إقناعه.. استقر رأيي على التحدث مع أخطر مسئول في الدولة.. مع الفهد نفسه.. قائد القطاع الأمني بأكمله.. خطوة حمقاء أعلم ذلك.. لكنني كنت أعلم أيضًا أنني لو تمكنت من إقناعه بكثير من الحظ.. عندها أكون قد قطعت شوطًا كبيرًا في رحلتي واقتربت من تحقيق غايتي.. للأسف فإن ذلك لم يتم لأن حراسه منعوني من لقائه ما لم يكن عندي سبب أكثر من مقنع..

ولما تشجعت وأخبرتهم بالسبب ارتابوا في أمري وظنوا بي الخبل والجنون وألقوا بي في المعتقل.. حسنًا... لم يحدث أي شيء آخر ولم يجد جديد في رحلتي حتى التقيتك اليوم».

ساد الصمت تمامًا بعد انتهاء «عالي» من سرد حكايته الغريبة.. حتى هذيان الرجل المتهاوي تلاشى بداخل موجات الصمت.

ثم همس «عبد 125» برفق كأنما يحدث نفسه:

- «نحن العبيد.. نحن من نشرب لعنة الفقر صبًّا في كئوسه الحجرية القذرة».

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

- ماذا؟!.

قالها «عالي» مندهشًا فاستدرك «عبد 125» قائلًا:

- لا شيء.. فقط تذكرت مقولة كان دائمًا ما يرددها على مسامعي عم أمين.

- عم أمين؟!.

- أجل.. عم أمين.. البطل عم أمين.

اندفع «عبد 125» في الكلام فجأة وقد عاد إلى ذهنه كلام عم أمين:

- أتعرف يا عالي.. عم أمين ظل طوال حياته وحتى هذه اللحظة ساخطًا على قانون العبيد.. كرهه من صغره.. هو قاريء مثلك هكذا... وكلامك هذا ذكرني بكلامه معي.

كان دائمًا يحدثني عن شخص اسمه «كارل ماركس» يعتبره بطله الشخصي وقدوته في الحياة.

من أشهر ما كتب ماركس هذا هو بيان الحزب الشيوعي الذي تحدث فيه عن نشأة الطبقة المسماة بالبروليتاريا.

البروليتاريا هؤلاء يا صديقي هم عبيد الأجر.. الأغلبية التي تبيع جهدها العضلي والفكري للأقلية البرجوازية التي تمتلك كل شيء مقابل الحصول على ما يسد جوعهم..

صمت «عبد 125» قليلًا ليسترد أنفاسه قبل أن يقول بهدوء:

- وقد كان عم أمين دائمًا ما يردد الجملة التي سمعتني أقولها وعندما أسأله عنها ينظر إليّ بدهشة السارح ويقول برفق.. بروليتاريا جديدة أيها البطل.. بروليتاريا أسوأ من البروليتاريا.

ردد «عالي» الكلمة آليًا بينما تدور في ذهنه كلمات «عم أمين»:

- بروليتاريا...

- حتى الآن لا يمكنني فهم المعنى الكامل للكلمة لكنني أشعر بقوتها في أعماقي كلما رددتها...

قال «عالي» بانفعال:

- نحن لسنا بروليتاريا يا صديقي.. البروليتاريا أفضل منا بمراحل.. نحن نعيش برهبة السلطة المطلقة... بالسخرة... بمنطق السيد والعبد.

بمجرد أن انتشرت كلمة «السيد» في هواء الزنزانة حتى انتفض الرجل المتهاوي من رقدته قائلًا فجأة وبصوت عالٍ:

- السيد.

نظر كلٌّ من «عبد 125» و«عالي» باتجاهه رغم عدم مقدرتهما على تحديد ملامح وجهه في الظلام.

«السيد»

قالها مرة أخرى ثم تقدم ناحية «عالي» زاحفًا على ركبتيه.. قبل أن ينهار جسده مرة أخرى أمام «عالي» وقال بصوت ضعيف:

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

- ذلك الرجل الذي كنت تتحدث عنه.. جدك.. ماذا كان اسمه؟!.

قال «عالي» بتوتر:

- لم أتمكن من معرفة اسمه كما لم أتمكن من معرفة اسم والدي.

صاح الرجل بحماس مفاجىء:

- لكنني أعرفه.. أجل.. أجل.. اسمه «السيد».. اسم غريب كاسمك بالضبط ويبحث عن ملكه الضائع كما تقول..

.. أجل.. كان صديقي.

ثم أضاف فجأة بصوت منتحب:

- كان صديقي لكنهم قتلوه.. الكلاب قتلوه.

للمرة الثانية يسود الصمت تلك الزنزانة الضيقة مع هذه المعلومات المفاجئة.. حتى «عالي» نفسه ارتج عليه وفقد النطق وامتلكه الذهول في قبضته.

ثم قال «عالي» بصوت متحشرج ولكنه يحمل هدوءًا غريبًا:

- إذن فالقصة حقيقية.

ثم أضاف بابتسامة يعلم أن الرجل لن يراها:

- إذن فقد قابلت جدي.. أخبرني عنه.. ما اسمك أولًا؟!.

قال الرجل وقد استعاد حماسه:

- «محمد الحارس» أحد حراس الحدود الشرقية... أجل كنت أعرف جدك وقد كان صديقي.. كان رجلًا عظيمًا يحمل حلمًا.. لكن لم يصدقه أحد.. ظنوه مجنونًا ومخبولًا.. وحدي أنا صدقته.. أجل أنا فقط من اقترب منه ورأى حلمه وآمن به.

لكنهم قتلوه.. قتلوه بسبب اسمه!!.. قتلوا السيد صديقي.

صمت «عالي» لحظات قبل أن ينفعل قائلًا:

- لماذا نسكت على هذا الظلم المجحف إذن... لماذا لا نتماسك سويًا ونغير أقدارنا ونرسم مستقبلًا أفضل.. لماذ نترك الكذب يصبح واقعًا والنفاق حياة.

صاح الرجل الصامت فجأة:

- هذا هو قدرنا أيها الحالم.. فلتقبل به في صمت ولا تزعجنا.

اندفع «عبد 125» قائلًا متجاهلًا كلام الرجل الصامت وقد اختل اتزان مشاعره مع كل ما سمعه من «عالي» و«محمد الحارس»:

- أنا معك يا عالي.. فلنغير أقدارنا.

- وأنا أيضًا... من أجل صديقي.

قالها محمد بصوته الضعيف.

- أنتم حالمون.. بل واهمون.. ستثيرون الاضطرابات ويختل استقرار هذه الأمة.

كـرر الرجـل الصامت فلـم يعره أحد اهتمامًا بل لم يشـغلوا أنفسـهم بالالتفات إليه أصلًا..

قال «عالي» وقد عاد الحلم إلى نفسه ليهزم واقعه مرة أخرى:

- رائـع.. لـن نبقى هنـا طويلًا علـى كل حـال.. فلا تُهـم قوية ضدنا تمكنهـم من اعتقالنـا لفترة طويلة... فلنخرج من هنا.. ولنشـعل شـرارة العدل سويًا...

.. ولنشعلها كي تبقى ولا تفنى...

.. ولنشعلها كي تحرق أرض العبيد...

... وكي يخرج العدل من بين الرماد.

* * *

«ماضٍ بلا عيوب كبشـر بلا أخطاء.. كلاهما مسـتحيل... ولتعلم أن ماضيًا لم ترده.. يصنع مستقبلًا لم تنتظره ولكن في يدك تغييره.. وهذا تلخيص حياة العبيد».

عالي

«من سجلات الثورة»

* * *

«لن أقول لماذا يا رب؟!... لن أقولها لأني أعلم أن الله يعاقبنا بسبب قذارتنا.. تلك القذارة التي طفحت من وجوه كل البشر في أرض الدناسة هذه.... أجل يعاقبنا جميعًا.. ويعاقبني أنا معهم... لأنني منهم».

كان ذلك الهاجس هو ما يسيطر على فكر هند الحزينة بعد سماعها خبر مقتل «كريم العامل» أثناء هروبه من الجحيم....

كريم.. الرجل الذي امتلك قلبها واحتل فكرها... الرجل الوحيد الذي شعرت معه بالأمان في أرض العبيد وفي العالم كله... الرجل الذي أحست أنه عائلتها الوحيدة والحقيقية... فقيرًا وقليل الحظ كان.. لكنه كان رجلًا وسط آلاف المخنثين.. رجلًا حقيقيًا.

صرخت كثيرًا وبكت كثيرًا... حطمت كل ما وصلت إليه يداها.. فكرت في الانتحار واقتربت من تنفيذه... لكن كل ذلك لم يشفِ ولو ذرة من غليلها... لم يهدىء من مقتها وغضبها.. ولم يُنْهِ حزنها.

والآن أصبحت حياتها مزيجا من الغضب والحزن.. والخوف.. الخوف من تيه الحاضر وظلام المستقبل.

تختبىء تحت غطائها الصوفي.. تلملم أطرافه وتحكمها حول حدود جسدها... ذلك الغطاء الذي تختبىء تحته في ليالي الشتاء الباردة وحتى في أيام الصيف الحارة!!.

فقط تختلق الطرق لإحداث تيار من الهواء البارد في غرفتها ثم تجري لتختبىء تحته.. ربما يرجع هذا لشعورها تحته بالأمان الذي افتقدته قبل ظهور كريم في حياتها وتفتقده الآن بعد غيابه منها فتحاول البحث عنه يائسة تحت غطاء لا حول له ولا قوة.

أو ربما حرمانها من الدفء الذكوري هو ما يدفعها إلى البحث عن بديل غير متكافىء تحت ذلك الغطاء الثقيل.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

نحن لا نشعر بفاجعة فقدان من نحب إلا عند اشتداد حاجتنا إليهم.. أو تذكر وافتقاد ذلك الفعل الذي كان يميزهم عن غيرهم.. كتلك المكالمة التليفونية التي كان يطمئنك بها جدك العجوز قبل دخول الامتحان.. أو تلك الوجبة الشهية التي كانت تعدها أمك خصيصًا لأجلك... أو تلك النكتة المضحكة التي كان يسرق بها صديقك المفضل ابتسامتك وينتشلك من قلب همومك.. كرقصة قلب واختلاجة شعور يمنحهما لك الحب في لحظة صفاء وبهمسة واحدة.. «أحبك»....

عندها فقط... ندرك حجم خسارتنا.

تنتفض من تحت غطائها وتنزعه عنها هربًا من تلك الأفكار والذكريات التي تزيد حالها سوءًا..

تقف أمام مرآتها.. تود لو تحطمها.. تنظر لانعكاسها قليلًا ثم تتجرد من ملابسها ببطء... تقف لتتأمل جسدها العاري في المرآة... ذلك الجسد الناضج الذي لطالما أعجبت به وقدسته واعتنت به.. تمر بيديها على منابت ثدييها وتطرق مفكرة في حزن...

ما الفائدة من الاهتمام بهذا الجسد الجميل إذا لم تقطفه يدا الرجل الذي يستحقه... ما فائدة بشرتها الناعمة إذا لم يتحسسها ويقبلها حبيبها.. وما فائدة شفتيها إن لم تعانقا نظيرتيهما.

ألا فلعنة على من قتله.. وألف لعنة على نظام غاشم غبي يتسلى بقتل من لا حيلة لهم... وألف ألف لعنة على موت حصده بلا تمهل.

يحتشد الغضب في صدرها مرة أخرى فتغير اتجاه أفكارها هربًا منه.. تفكر في ذلك الحماس الثوري الغريب الذي سيطر على «عبد 125» منذ خروجه من المعتقل حتى أنها أحست أن ذلك الحماس قد طغى على حزنه على مقتل صديقه فخرج باهتًا فاترًا ولو أنها لا تعرفه لقالت إنه لم يهتم ولم يحزن.. لكنها تعرفه جيدًا وتعرف مدى حبه لصديقه.

بعد ذلك بعدة أيام طلب منها المشاركة في وقفة اعتراضية على النظام الحاكم أطلقوا عليها لقب «بداية انتفاضة».

أعجبها الاسم وحرك العرض ثورتها المقموعة.. لكنها كانت قد استقرت على قرار حسبته أفضل.. قرار يعبر عن غضبها ويأسها من أرض العبيد وضيقها بحياتهم القذرة.. قرار يشعل الدنيا وينبه الناس إلى الحقيقة التي يتعامون عنها.

الليلة ميعاد التنفيذ.. قبل انتفاضة «عبد 125» ومن معه بيوم واحد..

«فلنَرَ من منا سيشعل حرائق أكبر يا عبد».

الليلة تنتقم لرفيق دربها المظلوم... وتنتقم من حياتها البغيضة.

فلتترك «العبد 125» رسالة فقط كي يفهم ماذا حدث وكيف حدث.

* * *

في تمام منتصف الليل... وقفت هند أمام مبنى الرئاسة في مركز العاصمة.. انتبه لها الحراس لكنها لم تعرهم اهتمامًا.

تقدمت خطوات أخرى للأمام وقد فاحت من جسدها المبتل بالكيروسين رائحته النفاذة... توقفت عندما لمحت التهديد في أعين الحراس.

أخرجت علبة السجائر من جيبها وألقت واحدة في فمها... نظرت إلى القداحة الفاخرة ذات النقوش الأثرية الراقدة بين أصابعها.. هدية كريم إليها.. لم يعترض أبدًا على التدخين رغم قلقه على صحتها!!.... كريم الذي قتلوه.. سحقوه كما الصراصير.

رمت نظرة أخيرة على الحراس وقد غامت رؤيتها من الغضب.. وصرخت قائلة وهي تندفع نحوهم:

- فلتحترقوا مع أسيادكم... وليحترق الموت معكم.

ثم أشعلت قداحتها...

وأشعلت معها حرائق الانتفاضة...

وتصاعدت ألسنة اللهب الثائرة....

ومعها تصاعدت صرخات هند المشتعلة....

صرخات محملة بالألم....

.. والغضب.

* * *

«في أرض العبيد.. لا نهايات سعيدة... وحده الحزن... يخيم على الأشياء».

وليد الصحفي

* * *

«لماذا يا هند؟!... لماذا؟!».

قالها «عبد 125» هامسًا في حزن حقيقي وإحباط وشيك... «أنا لا أفعل ذلك من أجله فقط.. أنا أفعل ذلك من أجل فكرة ستشتعل بموتي.. فكرة لن تموت... فكرة الحرية».

بهذه الكلمات أنهت هند خطابها الذي تركته في انتظار «عبد 125» قبل أن تقوم بخطوتها الحمقاء وتنتحر ... ومتى؟!.. قبل يوم واحد من المظاهرة التي اتفقوا على القيام بها أمام مبنى الرئاسة...

والآن الوضع متأزم جدًا.. فبخطوتها هذه قام الأمن بتعزيز الحماية أمام المبنى وامتلأ المكان بكل الرتب العسكرية وتم منع الصحفيين والمراسلين من التسجيل والتصوير...

لكن فات الأوان على التراجع والانسحاب.. فقد تجمع أمام المبنى ما لا يقل عن ثلاثمائة شخص في انتظار وصول «عالي» و«عبد 125» لتنفيذ ما اتفقوا عليه.. والتراجع الآن يعني الهزيمة الساحقة لأن الناس سيفقدون الثقة فيهم وفي مبادرتهم وحلمهم بالحرية.

«من أجل صديقي الذي مات ظلمًا... من أجل صديقتي التي انتحرت قهرًا.. من أجل كل العبيد الذين لا يملكون حق الكلمة... من أجل أجيال ولدت وماتت في قيودها.. من أجلهم لن نتراجع».

هكذا صاح «عبد 125» وهو يخترق صفوف المتزاحمين حتى واجه مباشرة الحاجز الأمني العملاق أمام المبنى... تفاعل الناس مع صيحاته الغاضبة واستبد بهم الحماس وبدأت الهتافات تتردد.

رفعوا «عالي» على الأكتاف بينما ظل «عبد 125» على الأرض صارخًا في وجه الجنود المواجهين لهم.

من موقعه هذا تملك «عالي» شعور بالفخر الشديد.. وسيطر عليه الإحساس باقتراب تحقيق الحلم الذي سخر حياته لأجله.

كان يهتف مع من يهتفون.. ويراقب «عبد 125» من موقعه العالي بابتسامة عريضة.. أجل.. هذا ما كان ينتظره ويتمناه.. والفضل يرجع «لعبد 125»... فهو من تمكن من إقناع كل من التفوا حولهم بالمبادرة والانتفاضة.. أقنعهم بأن العدل ليس إشاعة.. وأن دولة الظلم ساعة.. وقد قام بذلك في وقت قصير جدًا...

لمحه في أحد الأيام يبكي بحرقة شديدة فسأله عما به.. فلم يجبه واكتفى بمسح دموعه واستأنف عمله الخارق مرة أخرى.. في البداية ظن أنها ضغوط العمل المتواصل وشعوره باستحالة الحلم وإحساسه بصلابة أرض الواقع.

ثم علم بعد ذلك أن بكاءه كان على صديق له قتله حراس الحدود... قتلوه أثناء محاولته الهرب مع أحد سماسرة العبيد.

فجأة ساد الارتباك صفوف المتظاهرين واختفت الهتافات الغاضبة وحلت محلها صرخات الاستغاثة.. انتبه «عالي» من خواطره وتلفت حوله في دهشة وراعه ما رأى... وهبط به من التحليق في سماوات العزيمة والطموح إلى الاحتراق في جحيم اليأس والخوف.

اندفع الجنود بعد تلقيهم إشارة معينة.. فاخترقوا صفوف المتظاهرين ملوحين بهراواتهم الغليظة يمينًا ويسارًا دون تمييز أو تحديد لمكان الإصابة.

تعالت الصرخات أكثر فأكثر... وتناثرت الدماء واختل تنظيم الصفوف مع تدافع الناس واختل معه توازن عالي فسقط من فوق الأكتاف على ظهره فصرخ متألمًا وارتفعت يداه لتحمي وجهه من المتدافعين الراكضين الباحثين عن مهرب من هذا البطش الغاشم.. لم يهتم به أحد أو يحاول مساعدته.. كلٌّ لنفسه وسط هذه المعمعة...

وحده «عبد 125» لمحه بطرف عينه وهو يسقط من فوق الأكتاف واندفع راكضًا باحثًا عنه حتى وصل إليه.. مال عليه ومد يده ليساعده على النهوض قبل أن يصيح «عالي» فجأة:

- انتبه.

www.ibtesama.com

لم تنقذ تلك الصيحة «عبد 125» من الهراوة التي سقطت على ظهره بقوة لتحفر في ظهره شقًّا كسيف من النار ألقاه أرضًا صارخًا من عنف الألم..

رفع الجندي هراوته واستعد للانقضاض بها عليه مرة أخرى.

«توقف».

خرجت تلك الصيحة لتجمد يد الجندي في الهواء وتحرك رأسا «عبد 125» و«عالي» تجاه مصدر الصوت.

انتفض جسد «عبد 125» عند رؤيته لذلك الآمر.. واختلطت معالم وجهه بين الذهول والألم...

تقدم «عمرو النقيب» بهدوء من الجسدين الراقدين ثم أشار للجندي بالانصراف والتفت إليهما مرة أخرى وعلى وجهه ابتسامة غريبة قائلًا:

- أنت من عشاق المشاكل فعلًا كما توقعت.

- .....

- لن تأخذا راحتيكما في الرقاد هكذا.. انهضا.

قالها بصوت آمر فقام «عبد 125» و«عالي» متأوهين

- أتحبان الإهانة أم ماذا؟!.

لم يتحرَّ أيٌّ منهما ردًّا فقال عمرو:

- لماذا تفعلان هذا؟!.

قال «عبد 125» بصوت متألم:

- لماذا تفعلون أنتم هذا؟!.

صمت عمرو وعقله يموج بالأسئلة ويلقيه في دوامة من الحيرة!!

من صاحب الحق؟!... من الأصح؟!...

من يستحق الهلاك!!.

زفر بقوة كأن ما يحدث يضغط بشدة على أعصابه... ثم قال من بين أسنانه ليلقي الموضوع برمته خلف ظهره أو يرجيء التفكير فيه على الأقل:

- اذهبا.

- ماذا؟!.

قالها «عبد 125» غير مصدق!!.

- اذهبا من هنا قبل أن أغير رأيي.

انتهز «عالي» الفرصة وأمسك «عبد 125» من يده وأخذ يجذبه بعيدًا عن عمرو الذي أولاهما ظهره وتظاهر بعدم رؤيتهما.

«أيها العبد».

قالها عمرو فجأة دون أن ينظر إليهما فالتفت إليه «عبد 125» منتظرًا سماع ما لديه.

أدار عمرو وجهه نصف استدارة ونظر إليه بطرف عينه قائلًا:

- الآن فقط يا صديقي... الآن فقط

... اختلت المعادلة.

* * *

«الوضع هكذا لا يبشر بخير.. يجب أن نعود لخطتنا الأصلية ونتحدث مع أحد المسئولين ونقنعه.. مازلت أثق أن نتيجة المعركة في يد المختفي وراء الستار... في يد الفهد... وإقناعه مهمتك ياصديقي».

عالي

«من سجلات الثورة»

* * *

توتر مخيف ذلك الذي سيطر على «عبد 125» وهو ينتظر لقاءه المرتقب مع الفهد قائد القطاع الأمني بأرض العبيد وأحد أخطر رجال الدولة.

المرحلة الأسهل كانت تخطي الحاجز الأمني الذي يحرس الفهد.. وقد تم ذلك بالاستعانة بعمرو النقيب الذي لجأ إليه «عبد 125» ليساعدهم في تلك الخطوة...

كانت مفاهيم عمرو وفلسفته عن الحياة في أرض العبيد قد شابها بعض التغيير بعد ما حدث في ذلك الاحتفال المشئوم واستقر ذهنه على

إجابات جديدة للأسئلة التي طرحها عقله يوم المظاهرة...

أما «عبد 125» فلم يعترض على اللجوء إليه بعد موقفه معهم يوم المظاهرة، وبالفعل لم يجد عمرو ما يمنعه من مساعدتهم على أن يقتصر دوره على إعطائه تصريحًا بدخول مبنى أمن النظام وتجاوز حرس الفهد... بعد ذلك يصبح «عبد 125» بمفرده تمامًا.

وافق «عبد 125» على ذلك الشرط وها هو ذا يجلس مرتبكًا وخائفًا في غرفة مدير مكتب الفهد يحاول تحضير ما سوف يقوله.. يجهز كلماته بدقة لأن أي خطأ أو نفور من قبل الفهد سيجد معه «عبد 125» نفسه معتقلًا مرة أخرى وربما ما هو أسوأ.

الإشاعات والأقوال المتناثرة عن الفهد عديدة نظرًا لغموضه الشديد.. ولا يوجد شخص في أرض العبيد لم يسمع بتلك الإشاعات.. فبالإضافة لوجهه الذي تم تعديله ليشبه وجه الفهد كما هو متعارف عليه بين طائفة الوحوش وعصبيته الشديدة وسرعة غضبه وهو ما شهد به كل من تعامل معه أو رآه.

كانت هناك تلك الإشاعة الغريبة التي تعدد تأويلها... إشاعة متعلقة بيده اليسرى!!... كان يضع يده اليسرى في جيب معطفه باستمرار.. لم يره أحد على غير هذا الحال.. دائمًا يده اليسرى مختبئة في جيب معطفه.. هناك من قال إن يده اليسرى تمسك بسلاح مخبأ في جيب معطفه في حالة تعرضه لهجوم مفاجىء.... وهي عادة اكتسبها بحكم

حذره الشديد وعمله السابق في سلاح المخابرات.

وهناك من قال إن يده اليسرى غير موجودة من الأصل... أمر بقطعها الرئيس السابق لأرض العبيد والد الرئيس الحالي عقابًا للفهد لأنه ارتكب خطأ شنيعًا في عمله ترتبت عليه نتائج خطيرة... ولذلك فهو يتعمد إخفاء عيبه دائمًا لأنه يراه عارًا عليه ونقطة سوداء في تاريخه الحافل... حتى لو ركّب طرفًا صناعيًا فإن الناس ستلاحظه ويلاحقه العار والفضيحة.

يعتقد «عبد 125» أن «عالي» يميل لهذا التأويل لأن ذلك يضمن وجود كراهية مسبقة من طرف الفهد تجاه الرئيس السابق وبالتبعية تجاه الرئيس الحالي، ولذلك اعتقد في سهولة إقناعه وانحيازه لصفهم.

زفر «عبد 125» طاردًا تلك الأفكار ثم نظر نحو مدير المكتب الذي أشار له بيده علامة على أنه يمكنه الدخول ومقابلة الفهد... قام «عبد 125» من مقعده بركبتين مرتجفتين ورفع يده داعيًا الله بالستر والتوفيق ثم خطا نحو الباب وفتحه ثم.....

.....

.....

من الآن فصاعدًا.... لسنا عبيدًا!!!

****

انتفض «ياسر الكاتب» من مقعده وقد احمرت أذناه من الغضب وارتعشت أطرافه من الانفعال صائحًا:

- ماذا؟!... يا أولاد الزنا!!!.

اشتد انفعاله وسيطر عليه غضبه فأزاح بيده كل ما كان على المكتب ليسقط على الأرض محدثًا دويا شديدًا وسقط معهم الإطار الذي يحمي صورة زوجته وردة فتشقق زجاجه بصوت مسموع.

- أين باقي الأحداث؟!... ماذا حدث؟!.

تلك الصفحات التي تفصل بين بداية ذروة الحدث ونهاية الانتفاضة.. هناك من قام بتمزيقها وتعمد وجود بقايا الأجزاء الجانبية من الصفحات الممزقة ليراها ياسر ويعلم أن هناك من أخفى الحقيقة... حقيقة ما حدث في أرض العبيد.

ماذا حدث في مكتب الفهد؟!.. هل وافق على الانضمام لصفوف الثوار؟!.. وكيف تمت الانتفاضة الحقيقية التي انتهت بتحرير أرض العبيد من ذل العبودية ونظامها الظالم.. وما مصير «عبد 125» و«عالي».

أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا كعادته كلما انفعل أو غضب... فكأنما تلك هي وسيلته في تخفيف الضغط على أعصابه وتهدئة نفسه والبحث عن حل... ثم لمحت عيناه شيئًا جعله يتجمد مكانه.. ذلك الظرف الأسود الغريب!!.. ظرف أسود اللون!!... من أين جاء.. يبدو أنه قد خرج من بين أوراق ملف المحاضر الأمنية عندما وقعت على الأرض

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مع ما وقع من على المكتب... تلك المحاضر التي لم يفكر في فتحها أو الاطلاع عليها منذ وصلت، عالمًا أن ما بها ليس إلا أكاذيب أمنية...

انحنى والتقط الظرف.. كان خفيف الوزن وصغير الحجم وإن كان لونه مخيفًا وغير مألوف.. فتح الظرف وأخرج الورقة الوحيدة الموجودة بداخله وبدأ في القراءة.

«علمنا منذ البداية أنك لن تلتزم بما اتفقنا عليه.. لذا وكاحتياط أخير قمنا بتمزيق الصفحات التي تضم الجزء الأخير والأهم في تسجيلات المشاغب وليد الصحفي... فلتعتبر هذا هو التحذير الأخير وفرصتك الوحيدة في تصحيح ما كتبته في كتاب الحَكَم... التزم بما اتفقنا عليه... تُفتح لك أبواب النعيم... خالفه تندم.. مع تحياتي».

أحمد اللواء

ملحوظة: طبعًا أنت تتساءل الآن بما أنني قد قرأت تلك المذكرات لمَ لم أمزق الجزء الخاص بموت زوجتك وردة... والإجابة على هذا هي أنني أريدك أن تتعظ مما حدث لزوجتك وتدرك المصير الذي ينتظرك إذا حاولت العبث أو مخالفة الاتفاق.. أنت تمتلك كل الخيوط الآن.. وأنت من بيده تحديد مصير اللعبة!.

التهمت عينا ياسر السطور القليلة سريعًا وبداخله شرارة من الغضب تتزايد قوتها وانتشارها مع كل سطر ينتهي منه حتى تحولت إلى حرائق ضخمة أعمت بصيرته وأدخلته في حالة من الجنون وصل إليها مرة واحدة في حياته وقت أن سمع بوفاة زوجته.

أيهددني أنا؟!.. أنا «ياسر الكاتب» فخر هذا الشعب وصوته العالي.. أنا الذي يتشرف أمثاله بمعرفتي.. ذلك المتعجرف اللقيط.. من يحسب نفسه مقبّل أرجل رؤسائه هذا كي يهددني بتلك الطريقة الوقحة.. وماذا عن الكتاب الذي تعبت في كتابته على مدار عام كامل لم أخرج فيه من منزلي إلا لشراء احتياجاتي!!.. هل يذهب كل هذا المجهود سدى؟!..

وما موقفي أمام قرائي إذا خرج الكتاب ناقصًا بهذه الصورة البائسة.. فليحترق هو والاتفاق في الجحيم.. لم يحترمني فلن أحترمه... وسيدفع ثمن هذه الحركة غاليًا.

مزق الورقة والظرف الأسود وألقاها بعيدًا فتناثرت شذرات الورق في الهواء وظلت معلقة به قليلًا حتى استقرت على الأرض.

تحرك نحو مكتبه داهسًا بقدمه مُزَق الورق ولملم تسجيلات وليد الصحفي وأوراقه التي يكتب فيها ووضعها على المكتب.. ثم انحنى مرة أخرى بعين دامعة ممسكًا بصورة زوجته وأخرجها من الإطار مشروخ الزجاج.

قبّل الصورة بدفء دامع هامسًا:

- أنا آسف.. سامحيني لم أقصد.

وضع الصورة بجانبه على المكتب ثم جلس عازمًا على الانتقام.

.. والثأر.

* * *

خاتمة المؤلف

أعزائي القراء المحترمين.. أعتذر لكم وبشدة عن عدم اكتمال هذا العمل.. ولغياب اللحظات الحاسمة عنكم..

أعتذر عن الوضع البائس والموقف السيئ الذي وضعني فيه رؤساؤكم الذين أعلم قدر كراهيتكم لهم.. رؤساء استقر في باطن عقولهم الرجعية مبدأ أن ما لم تعرفه لن يضرك.. ترسخ بداخلهم حتى أصبح طبعًا.

رؤساء ابتدعوا كذبة الاستقرار الوهمي وكانوا أول من صدقها... رؤساء تخلصوا ممن عارض وأسكتوا من تكلم.. رؤساء ظنوا أن جنتهم مستمرة إلى يوم الدين وما بعد يوم الدين.. واعتقدوا أن إخفاء الحقيقة هو طريقهم إلى ذلك.. رؤساء رؤوسهم فارغة وإن ظنوا أن ما بها حكمة خلابة تعلو على مقادير فهمكم...

هؤلاء الرؤساء هم من اعتقدوا أن بإمكانهم إجباري على إخفاء الحقيقة عنكم فأهبط معهم في مدارك أسفل السافلين..

المذكرات التي نقلت عنها التفاصيل الرئيسية في الكتاب ممزقة عند هذا الموضع.. مزقوها كي لا أعلم الحقيقة فأخبركم بها... لكنكم

تعلمـون الحقيقة.. ألا وهي انتصار ثوار أرض العبيد وتخلصهم من قيود العبودية.

يخافون على أنفسـهم من تكرار ذات المشهد.. من ثورتكم عليهم.. مـن تمردكم على العبودية.. ولكني سـأحاول قصـارى جهدي أن أحبط مخططاتهم وأن أجدد بداخلكم الأمل في الحرية.

بعد موضع الأوراق الممزقة وجدت جملة واحدة مكتوبة:

«من الآن فصاعدًا... لسنا عبيدًا».

تليهـا بعض الجمل يوضح من خلالها وليد الصحفي الشـاب اللامع كيـف قـام بتجميع تلـك المذكرات وكيـف التقى بمعظم أبطـال الكتاب للاستماع لأقوالهم وذكرياتهم عن الحدث وما قبل الحدث.. وإن كانت معظـم التفاصيل قـد حصل عليها عن طريـق أخيه بطـل الانتفاضة «عبد 125» والذي كان العامل المشترك الأقوى بين كل الأبطال.

وقد استعنت بخيالي في أحداث كثيرة في هذا الكتاب لملء الفراغات التـي تعثـرت بهـا أثناء قراءتـي لتلك المذكـرات ولإضافة الحبكة وسـد الفجـوات التي قد تلقـي بالقارئ في قاع من الحيرة والتسـاؤل.. وبذلك تتكون في أذهانكم صورة أقرب ما تكون إلى الوضوح.

بهذا العمل أعزائي القراء أختتم حياتي الأدبية... وأودعكم على خير وأمل.. خير في جديد قريب.. وأمل في عدل أقرب.

ولتكن آخر كلماتي لكم هي:

«عندما تفقد الحلم.. تفقد ذاتك..

لأن الحلم هو ما يجبرك على التطلع إلى الأمام».

ياسر الكاتب

«تمت»

ظلام المستقبل

«الأشد حمقًا من الأحمق.. هو الحالم...

لأن الحالم واهم.... وأحمق!!».

أحمد اللواء

* * *

الماء المثلج الذي ألقي على وجهه جعله ينتفض متأوهًا وقد عاد إلى وعيه... عيناه غامت أمامهما الرؤية.. جسده ينضح بالألم من كل مكان.... رأسه ثقيلة جداً على كتفيه.. ثقلها مؤلم!!.... لسانه لا يقوى على الحركة.. الكلام مؤلم!!...

يغمض عينيه ويفتحهما عدة مرات محاولًا التركيز.. يجهد عقله لتذكر ما حدث... تعود إلى ذهنه صور مشوشة عن أصوات تكسير وضربات وصرخات..

تتضح الرؤية أمام عينيه تدريجيًا.. يرى عدة أشباح تحيط به وأمام وجهه مباشرة ابتسامة متشفية لشبح ظافر يحدق به باستمتاع وفي يده دورق الماء المثلج الذي ضرب به وجهه منذ قليل.

«أهـلًا بـك في معتقـل «الجزيرة».. يشـرفنا وجودك معنـا.. نرجو أن تقضي وقتًا ممتعًا في الاستجمام والتنزه بيننا».

قالها الشبح المواجه له بسخرية لاذعة.. حاول تحريك يده فتحركت بيسر.. تعجب من أنهم لم يقيدوه إلى مقعده المعدني.. هل يستخفون به إلى هذا الحد!!.

أولاه الشبح ظهره ثم خاطب باقي الأشباح قائلًا:

- هـذا هو «ياسـر الكاتب» أيها السـادة.. احرصوا علـى راحته التامة أثناء إقامته معنا في منتجعنا البديع.

دفعـة أخرى من الماء المثلج تسـقط على رأسـه مباشـرة من الخلف بمجـرد انتهاء الشـبح من الحديث.... ينسـاب الماء علـى ظهره العاري ضاربًـا فـي عظامه قرقعة من الصقيع جعلته يتـأوه بصوت عالٍ هذه المرة أخرج الضحكات من أفواه الأشباح المستمتعين.

تزداد الرؤية وضوحًا أمام عيني ياسر.

كان يجلس في غرفة واسـعة جدًّا لا يرى حدودها... وتركزت إضاءة تلك الغرفة على البقعة الوسـطى منها والتي يجلس هو في منتصفها على مقعده المعدني تحيطه مجموعة من جنود المعتقل في زيهم المميز.

أما الشـبح السـاخر فقد كانت ملابسه العسكرية وشاراته العديدة التي يحملها تدل على خطورة منصبه.

«ماذا تريدون مني؟!».

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

قالهـا بصوت ضعيـف للغاية فانفجر الرجل الخطيـر في الضحك ثم قال بهدوء وهو يقترب بوجهه منه:

- الباشا الكبير زعلان منك.

- ماذا فعلت لكم؟!.

- أنت تعلم جيدًا ماذا فعلت.. وقد حاولنا إكرامًا لمكانتك أن نحذرك أكثـر من مرة من نهاية الطريق الذي تسـلكه.. لكنك لم تصغِ.. ولم تتعظ مما حدث لزوجتك الخائنة.

انتفض ياسر وصرخ غاضبًا:

- لا تأتِ على ذكرها أيها الحقير.

إنهالت الصفعة على وجهه لتسكته عن الكلام وقد احتقن وجهه قبل أن يقول الرجل الخطير:

- أنـا حقير؟!.. أيهـا اللقيط يازوج العاهـرة... زوجتك كانت عاهرة المعتقل كله.

- اخرس.

قالها ياسر وقد بث الغضب بداخله يقظة وقوة.

مـال الرجـل نحوه وأمسـك جانبـي وجهه بكفيـه وقربـه ناحيته حتى لفحت أنفاسه وجه ياسر وهو يقول بحنق:

- لـن يقـوم حثالـة مثلك بإعطائـي الأوامر.. أنـا ضرغـام العقيد أيها الكلب.

سقط ياسـر في بحر من الذهول وتدافعت الذكريات في ذهنه بسرعة ثم قال هامسًا:

- أنت؟!

- أنا ماذا؟!.

- أنت ضرغام؟!... أنت من قتلها؟!... وردة.

جزَّ ضرغام على أسنانه قائلًا:

- هي من انتحرت تلك الخائنة.. أنا لم أقتلها.

- أنت من أجبرها على ذلك.

فقد ضرغام أعصابه وصاح قائلًا:

- قلت لك لم أمسسها.. زوجتك كانت خائنة وعاهرة... أتسمعني؟!.. عاهرة.... . فكيف تتوقع أن تنتهي حياة العاهرة.

- قلت لك اخرااااس.

عندمـا تدفع شـخصا إلـى حافة هوة الجنـون وتضغط عليـه كي يقفز بداخل تلك الهوة فلا تلومنّ إلا نفسـك... وضرغام لم ينتبه إلى خطورة أقواله وتأثيرها على نفس ياسر الغاضبة اليائسة من الحياة.

لـم ينتبـه إلى حرية ياسـر وقدرتـه على الحركـة... لم ينتبـه إلى قربه الشـديد منه... لـم ينتبه إلى دمـاء الجنـون المحتقنة بداخـل عينيه... لم ينتبه... ودفع الثمن غاليًا.

بعد أن صرخ ياسر صرخته المجنونة تحرك وبدون سابق إنذار منتهزًا اقتـراب وجه ضرغام منه وقبض بأسـنانه على جانـب عنقه بقوة ضاعفها الجنون عدة مرات...

نذَّت عن ضرغام صرخة ضعيفة وهو يحاول التخلص منه واندفع باقي الجنود منقضين على ياسر ضربًا محاولين انتزاعه بعيدًا عن قائدهم.

لـم يكن لضرباتهـم المؤلمة الكفيلة بتكسـير العظام أدنـى تأثير على جنـون ياسـر.. بـل على العكـس ضاعفت مـن قوة تشـبث أسـنانه بعنق ضرغـام الصارخ حتى تفجرت خطوط من الدماء من عنقه وتهاوت قوته فسقط أرضًا وسـقط فوقه ياسر غير عابئ بمحاولات الجنود مستميتًا في فعلته إلى أقصى حد..

ثـم وكأنما قد قـرر أن هذا غير كاف لانتقامه، فحـرر عنق ضرغام من أسنانه وقد عادت إلى ذهنة صورة قديمة كان قد سجلها في كتابه فامتدت يداه إلى رأس ضرغام فاقد القوة متحشرج الصوت.

أمسـك ياسـر برأس ضرغام بكلتا يديه وأخذ يرفعه ثـم يهوي به بقوة على الأرض... تشـبع بجنون الدم وأخذ يكـرر ذات الفعل بهياج متزايد بعدما أدرك أن جسـده يوشـك على التهاوي تحت وطأة ضربات الجنود وأن نقطة فقدان الوعي تقترب منه بسرعة كبيرة.

تفجرت الدماء من مؤخرة رأس ضرغام وأنفه وفمه مع كل مرة يضرب فيها ياسر رأسه بالأرض... اختنقت دائرة الرؤية أمام عينيه.. واختفت صرخات استغاثته.. ثم أسلم روحه ببطء عنيد إلى خالقه كي يتولى حسابه..

عندها فقط سمح ياسر الكاتب لجسده بالانهيار.. وتكوم بجانب ضرغام سابحًا في دمائه...

ابتسم بإرهاق وهو يهمس بظفر:

- ما هذا إلا العدل!!.

ثم فقد وعيه تاركًا للجنود حرية التصرف معه... فقد وعيه مدركًا أنه أيًا تكون عواقب فعلته فإنه لن يندم على فعلها قط.. بل وسيكررها إذا إقتضي الأمر.

عندها انتبه الجنود بذهول إلى أن أسلحتهم معلقة بأحزمتهم منذ البداية.. وأنه كان بإمكانهم تجنب المأساة بالكامل والتخلص من هذا الجنون برصاصة واحدة.

.. أجل.. كان بإمكانهم إنقاذ قائدهم... لكنها المفاجأة هي ما أفقدتهم قدرتهم على القيام بالفعل الصائب.

أو ربما هو القدر الذي خطَّط لموت ضرغام في ذات الحجرة التي عذب فيها ضحاياه واستمتع بتردد صرخاتهم بين جدرانها..

.. ربما هو القَدَر..... . والعدل!.

* * *

«فلتفرحي ياوردة في قبرك..... .

..... فزوجك قد ثأر لكِ».

ياسر الكاتب

* * *

أفاق «ياسر الكاتب» وحده هذه المرة... غرفة غريبة الشكل لم يتمكن من تحديد ملامحها بدقة بسبب الظلام.. يداه تستشعران ثقل القيود الحديدية التي تكبلهما خلف ظهره إلى مقعده.

«من كاتب إلى قاتل.. ياله من تحول غريب»...

انتفض جسده وأخذ يتلفت حوله باحثًا عن مصدر الصوت.. لحظات وتقدم أحمد اللواء ودخل دائرة الضوء المحيطة بياسر الكاتب.

جلس على مقعد مريح مواجه له وأخذ ينظر إليه بهدوء قبل أن يقول ببطء:

- لقد خالفتَ اتفاقنا إذن كما توقعت.. ولم تكتفِ بذلك بل وألحقت بنا الإهانة في خاتمة كتابك.

ثم صمت قليلًا قبل أن يستأنف:

- أحمق أنت لتعتقد أن مسودات كتابك لن تمر علينا قبل نشره.. حاولت أن أساعدك كثيرًا ووقفت في صفك أمام رؤسائي لكنك في النهاية من ترغب بالذل وتتمناه.. حسنًا.. أحب أن أبشرك أن مسودات كتابك قد احترقت بالكامل وتم تفتيش شقتك للتأكد من عدم وجود نسخ أخرى.

فهل أنت سعيد الآن بما صنعت بنفسك؟!.

صاح ياسر منفعلًا:

- اقتلني.. اذبحني.. في كل الأحوال أنت تخلد أسطورتي.. قد تمحو جسدي عن هذا العالم.. لكنك بالتأكيد لن تستطيع أن تمحو روحي.. فمهما فعلت فسوف تبقى عالقة في هذا العالم.. كامنة بين أسطر كلماتي.. يفوح عبقها من كل جملة خلقها سن قلمي.. قالتها وردة زوجتي قديمًا..

الأدباء لا يموتون... الأدباء أساطير.

أخذ اللواءيضحك بهستيرية بعد سماعه جملة ياسر الأخيرة.. ثم قال بصعوبة من بين ضحكاته:

- حسنًا أيها الأسطورة... أنا لن أمنحك التصريح بالموت الآن.. أنت باقٍ معنا قليلًا هنا.. ولكن هذا الموقف قد أعاد إلى ذهني قصة طريفة سأخبرك بها...

أتـدري.. كان هناك تلك القطة اللطيفة التي كانـت كثيرًا ما تتودد إليّ لأعطيها ما يتبقى معي من طعام في طريقي من أو إلى منزلي.. وقد أحببت لطفهـا كثيرًا وتعلقت بها إلى الحد الـذي جعلني أقدم لها الطعام كل يوم وأهتم بالتنويع فيه وفي قيمته الغذائية.. لم أفكر في أخذها للمنزل بالطبع لأن زوجتـي تكره القطط فاكتفيت بعلاقتي القريبة البعيدة بها.. حتى جاء ذلـك اليـوم الذي شـاهدتها فيه تتودد إلـى مجموعة مـن الغرباء لتحصل علـى مـا معهم مـن طعام... ربمـا تتندر على مدى سـخافتي وسـذاجتي آنـذاك ولكننـي كنت قـد صدمت من سـلوكها لأنه لا يجوز لهـا أن تقوم بمثل ذلك الفعل بعد كل ما قدمته لأجلها.

أتعـرف ماذا فعلت أيهـا الكاتب؟!.. لقد قتلتها.. أجـل.. قتلتها حتى لا تعود إلى مثل ذلك الفعل.. قتلتها ثم واريت جسدها التراب وأنا أذرف الدموع.. ذرفت الدموع لأني أحببتها.. وقتلتها لأنها خانتني.

طـوال فتـرة معرفـة ياسـر بأحمد لم يـدرك مـدى جنونـه إلا في هذه اللحظة.. قتل قطة لأنها أكلت من أيدي آخرين؟!..

سـاد صمت متوتر بعد تلك الحكاية ظل خلاله ياسـر يحدق في وجه أحمد بدهشة بالغة.. وخوف!!.

فجأة قال أحمد:

- والآن.. وبسـبب همجية تصرفاتك.. أنت فـي قبضتنا الآن بصورة قانونيـة تمامًا.. أنت الآن قاتل ولا يحـق لك المطالبة بمعاملتك كمعتقل سياسي... طبعًا عندما وضعتُ ضرغام عن قصد في طريقك بعد قراءتك

لكيفية موت زوجتك.... لم أكن أعتقد أنك ستتمكن من قتله.. كنت أظن أن الأمر سينتهي بالاعتداء عليه فقط وبعدها يمكننا أن نصنع لك مزيدًا من التهم... ولذلك تركنا يدك حرة... وطلبت منه استفزازك... على كل حال فإن ضرغام كان ورقة محترقة منذ زمن بعيد بعد أن فاحت رائحة قذاراته وأصبح حديث الإعلام... ولذلك... فإن مقتله لم يكن أمرًا سيئًا..

الآن يحق لنا أن نفعل بك ما نشاء... ولكن هذا ليس وقته الآن.. فمازال أمامنا كثير من الوقت لاحقًا لنستمتع فيه سويا.. أما الآن.

صفق بيديه بقوة دخل على أثرها أحد الجنود الغرفة وسلم أحمد مجموعة من الأوراق ثم خرج قبل أن يقول أحمد:

- طبعًا أنت انعزلت عن العالم كله أثناء كتابتك لكتابك هذا... وما غاب عن علمك هو أن مزيدا من التطورات في مجرى الأحداث قد حل في أرض العبيد أثناء انعزالك هذا.

أول هذه التطورات هو سيطرة طائفة الحمير على الحكم في أرض العبيد وامتلاكهم جميع مجريات الأمور في أيديهم.

وما بين يدي الآن هو مجموعة من التقارير التي قام برفعها أحد الحمير إلى كبير الحمير.. لا تسألني عن كيفية حصولنا عليها فنحن لنا طرقنا.. وبالإضافة لذلك يبدو أن حكامهم الجدد هؤلاء أضعف كثيرًا من سابقيهم.

عنـد قراءتي لتلـك التقارير اكتشـفت عددًا من المصادفـات المذهلة التي يندر حدوثها... سأدعك تطلع على تلك المصادفات بنفسك!!.

والآن.. سـأنزع عنك أصفادك كي تتمكن من قراءتها وتستشـعر خيبة أملك ويأسك من أحلامك العقيمة التي أوردتها في كتابك.

أحـذرك من القيام بأي تصرف أهوج ففـي أركان الغرفة الأربعة يقف أربعـة مـن رجالي مسـتعدين لإطـلاق الرصاص عليـك عنـد أول بادرة للعنف.

إقتـرب منـه أحمد ومد يديـه لفك قيوده ثـم وضـع الأوراق بين يديه وأولاه ظهره بثقة مبتعدًا حتى جلس على مقعده المريح.

فض ياسر الأوراق بلهفة.. وبدأ في القراءة.

* * *

تقارير السجين الرابع

-1-

أقرئك السلام يا كبيرنا المبجل...

أبـدأ تقريرى بالاعتذار عن الخطأ الـذي ارتكبته والذي أودى بي إلى السجن قبل أن تتفضل سيادتكم بإخراجي من ذلك المكان...

ولكنه كان خيرًا حسبته شرًّا سيدي.. إذ بوجودي فـي ذلك المكان كنت شـاهدًا علـى مولد أخطر حدث في أرض العبيـد... ألا وهو حدث الانتفاضة المزعومة..

كنـت السـجين الرابـع مـع ثلاثـة استقروا على الثـورة.. لـم يعلموا بانتمائي إلى طائفة الحمير وقتها فقد أبقيت ذلك سرا... حاولت إثناءهم عن قرارهم الأحمق ولكنهم مضوا في غيهم بلا أي ذرة من التفكير.

مضـوا فـي طريق الفتـن.. مضوا في طريـق إهلاكنا وقـرروا الخروج على الحاكم.

كانوا ثلاثة سـيدي من بدأوا تلك الفتنة... عبد من العبيد الوسـطى.. وعميل أجنبي.. وحارس خائن.

وقـد ارتأيت إبلاغكم بما حدث لعلك تجد فـي تلك المعلومة ما قد يفيد أو قد تبلغ بها رئيس دولتنا العظيم فيتصرف معهم.

رهن إشارتك سيدي المبجل في أي وقت.

عبدك المخلص

* * *

-2-

أقرئك السلام أيها السيد العظيم

مرحى لنا ولدولتنا العظيمة بعد سقوط أقنعة النظام الغاشم.. لولا حكمتك سيدي ما كنا قد وصلنا إلى هذه النقطة.. لولا مشاركتنا في الانتفاضة ما تم للشعب ما أراد فشكرًا لك سيدي على قراراتك الحكيمة.

لكنني أرى حال الشعب الآن بعد سقوط الدولة.. انتشر الرعب والفزع بين المواطنين الآمنين... أرى تزايد الإضرابات والاضطرابات وأشعر باقتراب المنحدر المظلم.. فما العمل؟!.

هذه الدولة تحتاجك سيدي المبجل وتنتظر حكمتك... وصل إلى علمي أن في ذهن سيادتكم خطة عبقرية لتولي مقاليد الحكم في البلاد.

أرجو من سيادتكم إشراكي بهذه الخطة ولتحتسب روحي فداء لك ولطائفتنا القوية سيدي.

رهن إشارتك في أي وقت.

عبدك المخلص

***

-3-

أقرئك السلام أيها الرئيس الأحكم

الله أكبر.. الله أكبر... الله أكبر

ها قد كتب لنا النصر في معركتنا المباركة سيدي..

لا أستطيع وصف سعادتي وفرحتي عندما سمعت بتوليك إدارة البلاد بعد أن أوشكت على الغرق في مستنقعات الظلام.

أنت تستحقها سيدي الرئيس وبجدارة..

أعجبني خبر إلغاء اسم طائفتنا واستبدالها باسم «طائفة الحكام»

وياله من اسم مناسب لنا.. أعجبني أيضًا اختيارك لاسمك الجديد سيدي:

.. «حكيم الزمان».. حقًّا اسم له دلالة وينطبق على سيادتكم..

سمعت عن عدد من الطوائف الجديدة التي تأسست في بلادنا.. أبرزها تلك الطائفة العجيبة التي تطلق على نفسها اسم «طائفة العدالة».. غريب أمرهم.. يقولون إن غرضهم التركيز على تحقيق مبادىء الثورة.. أولم تتحقق بالفعل؟!... ألم تستقر البلاد؟!.. ألم يجلس على عرشها

الحاكم الكفؤ الذي سيقودنا خارج النفق المظلم؟!... أعلم أن سيادتك تعلم بكل ذلك ولكني أبلغك بما أرى وأسمع وحسب.

رهن إشارتك في كل وقت.

عبدك المخلص

***

-4-

أقرئك السلام أيها الرئيس الأحكم

اسمح لي بأن أثني على حكمتك ودهائك الشديد...

ذلك الخائن المسمَّى «عالي» الذي مضى في غيه أكثر من اللازم كان لا بد من عقابه في النهاية.

رغم أن الشعب لم يدرك حقيقة نواياه السيئة إلا أنك استطعت بحكمتك أن تراها من خلال أفعاله.. قد تعجبت منذ زمن من تلك الخطوة التي قام فيها بتأسيس ضريح لذلك الرجل المجنون الذي يدعونه «السيد» والذي يدعي «عالي» أنه جده والوريث الحقيقي للعرش....

لكن الآن أرى ما رأيته سيادتك منذ زمن بعيد... لقد كان يحاول استمالتهم ليقفوا في صفه ويلتفوا حوله فيقودهم إلى طريق الهلاك لتحقيق أغراضه المثيرة للريبة.

ولك أن تتخيل مدى غضبي وثورتي عندما سمعت بخطبته الوقحة التي طالب فيها بتولي إدارة البلاد وصرح بأننا لسنا الحكام الشرعيين لها وأننا قد خدعنا الشعب.

هـل يصدق نفسـه ذلك الأحمـق؟!.. لكنني الآن قـد ارتحت بعد أن أمرت سـيادتكم بتنفيذ الحكم عليه بالإعدام بقطـع الرأس بتهمة الخيانة العظمى!

وسيلة إعدام قوية ترهب كل من يفكر في الخيانة مرة أخرى.

لك أن تتصور فرحة الشعب عندما تم تنفيذ الحكم..

عندما هوت الفأس...

وسقطت الرأس....

وتناثرت الدماء...

وتطايرت صيحات التهليل في السماء...

أجل.. كان الشعب فرحًا بإعدام «عالي»

ذلك المأفون المجنون الذي هدد استقرار بلادنا بشغبه الدائم.

ألا فحمدًا لله على وجودك رئيسًا لنا سيدي.

رهن إشارتك في كل وقت

عبدك المخلص

* * *

-5-

أقرئك السلام أيها الرئيس الأعظم

هـذا هـو تقريري الأخيـر الذي أرفعـه إليك قبل سـفري إلـى أوروبا للاسـتجمام والاسـترخاء لبعـض الوقـت بعـد هـذا المجهود والسـعي المرهق!!.

أسـعدني كثيرًا أمرك المباشر إليّ بتقصي ومتابعة من تبقى من الخونة الثلاثـة وتحديـد أماكن تواجدهـم... أمـا الحارس الأحمـق محمد فقد علمـت أنـه قد هـرب عبر الحـدود إلى إحدى الـدول العربيـة المجاورة مصطحبًا معه زوجته وطفله... وقد ذهبت إلى تلك المراسـلة سعاد التي أسسـت قناة أسـمتها «قناة الثورة» تهدف بها إلـى تقصي فضائح وجرائم كبار رجال الدولة والضباط.. خصوصًا رجال العهد السابق.... .

ذهبـت إليها لعلمي أنها كانت على صلـة بذلك الحارس في وقت ما فربما تعرف مكانه الآن...

أمرتها بالإفصاح عن مكانه أمرًا مباشـرًا فثـارت في وجهي وطردتني مـن مكتبهـا تلك اللقيطـة... يبدو أنهـا لا تعلم من هم أسـيادها الجدد..

لذلك أشكو إليك منها لعلك تسمع لشكواي سيدي المبجَّل وتنتقم منها تلك الوقحة قبل أن تظن بنفسها القدرة وتتطاول علينا مرة أخرى.

أما العبد الخائن الذي لا أعرف اسمه الحقيقي فسأكتفي باستخدام اسم العبودية الخاص به «عبد 125».. قد حاولت قصارى جهدي أن أحدد مكانه وأتقصى أخباره من كل من عرفوه.. لكنهم جميعًا لا يعلمون حقًّا أين هو.. لقد اختفى تمامًا بعد إعدام الخائن «عالي».

تناثرت بعض الإشاعات عنه، فمن الناس من يعتقد بمقتله على يد جماعتنا المسلحة ولكن هذا غير وارد وإلا لكنت قد علمت.. ومنهم من يعتقد أنه معتقل لدينا ولكن هذا غير صحيح.

أما الإشاعة الأقوى والتي كثر عدد المؤمنين بها فهي أنه يختبىء في الجبال مختفيًا عن الأنظار.. جامعًا حوله الأنصار والمؤيدين كي يقوم بثورة ثانية يحقق بها العدل الذي يحلم به..

أي عدل ذاك؟!...

وهل هناك عدل أكثر من هذا؟!... وهل هناك رئيس أعدل أو أحكم منكم سيدي المبجل؟!... ياللمجنون الواهم....

لكن هذا ما ننتظره ونتوقعه من كل خائن.. وأنا أثق ثقة عمياء في حكمة سيادتكم وقدرتكم على تحديد مكانه بدقة ثم القبض عليه والحكم عليه بالإعدام.

وبذلك ينتهي الشر المحدق بدولتنا العظمى... دولة الحكام العظمى.

رهن إشارتكم في كل وقت..

النصر لدولتنا العظمى...

والأمل في حلمنا أن يتحقق....

عبدكم المخلص

* * *

انتهى «ياسر الكاتب» من قراءة التقارير بعيون محمرة ودمعة غيظ تتلألأ على وجنته.

كان «أحمد اللواء» يراقبه بابتسامة جمعت ما بين التشفي والسخرية قبل أن يقول:

- ما رأيك؟!

رفع ياسر عينيه المحمرتين ونظر في وجه أحمد قبل أن يهمس:

- لماذا؟!

- لماذا ماذا؟!.

- لماذا كتب علينا الذل في بلادنا؟!

اتسعت ابتسامة أحمد كأنما قد حقق انتقامه المنشود قبل أن يقوم من مجلسه قائلًا:

- حسنًا.. أنا لا أملك الإجابة على هذه الأسئلة.. والآن دوري هنا قد انتهى.. سأتركك مع هؤلاء السادة المحترمين كي تستمتعوا قليلًا!!.

قام من مقعده وتوجه ناحية باب الغرفة وفتحه... ثم التفت إلى ياسر قائلًا:

- آه.. صحيح.. نسيت أن أخبرك.. لقد تم رسميا حظرك من القيام بوظيفة الكتابة وتم حظر أعمالك كلها... أنت موقوف عن الكتابة، لذلك فلم يعد اسمك «ياسر الكاتب»..

من الآن فصاعدًا أنت عبد... عبد قاتل.... .

..... عبد أحقر من العبيد.

* * *

«عذاب الكاتب الأكبر هو حرمانه من قلمه.. وقد قمتم بهذا بالفعل.. لذلك لا فائدة ترجى ستحصلون عليها من تعذيبكم لجسدي.... . .... . فإن روحي قد ماتت».

ياسر الكاتب

* * *

«هل كتبت الحقيقة من أجل أن يتم تشويهها وتشويهي معها؟!... ألم يكن من الأفضل أن أكذب أنا منذ البداية؟!...

وهل الثورة فكرة حقًّا؟!... وإن كانت فكرة كما يقولون... فكيف تُقتل الفكرة؟!.. ».

كان هذا ما يفكر فيه «ياسر الكاتب» في ركن زنزانته المظلمة.. وقد أدمى جسده التعذيب وأفقده إحساسه بما حوله وتركه منعزلًا في ممرات الذهول.

وفي مكان آخر بعيد جدًّا... في بلد مازالت معروفة باسم «أرض العبيد»... في منطقة مقابر الصدقة بالعاصمة.. كان هناك قبر فقير يرقد بداخله شخص عظيم.. شخص حرك الثورة في نفوس ملت من ركود أصحابها... شخص ألقوا على كتفيه كل أحمالهم... وغضبوا عليه لانهياره تحت كل تلك الأثقال... شخص فرحوا بمجيئه كما فرحوا بمقتله... وصدقوا خيانته...

وعلى ذلك القبر يستند شاهد حجري كتبت عليه كلمة واحدة:

«عالي»

وبأسفل تلك الكلمة صُنِعَت شخبطة متعجلة مجهولة المصدر رسمت عبارات باهتة تكاد لا تُرى.

عبارات تقول:

«الثورة ليست مقصورة على أشخاص... الثورة فكرة...

ووحده من يحمل الفكرة... يتمكن من رؤية الحقيقة....

... وإحداث التغيير».

تمت

تلك الأخطاء الصغيرة التي لا يدرك مرتكبوها أنهم يغيرون بها مجرى التاريخ ... يعيدون رسم خريطة المستقبل ... وأنى لهم أن يعرفوا والحاضر بالنسبة لهم هو خط النهاية المتباعد باستمرار.

"في أرض العبيد لا نهايات سعيدة . . وحده الحزن يخيم على الأشياء".

***

نص أدبي محترم لكاتب موهوب ، صاحب فكر وأسلوب راق متميز ، لديه ما يقوله عن أفكار فولتير وجورج أورويل بطريقة جديدة تمامًا ستدهش القارئ ، ويحسب للدار المصرية اللبنانية أنها أقدمت على نشر هذا العمل المختلف ، وهي مزية تتفرد بها باعتبارها مؤسسة ثقافية في المقام الأول.

الروائي أشرف العشماوي

***

أسعدني الحظ أن خصني عبد الرحمن خضاري بقراءة "بروليتاريا" وهي بعد مسودة فوجدتني منغمسا في عمل إبداعي متكامل ينبض بموهبة كاتبه. لعل الأصعب دائما في الرواية أن يخلق المؤلف عالمًا خاصًا به بعيدًا عن عالمنا وواقعنا، وقد قبل عبد الرحمن خضاري هذا التحدي فتفوق بوضوح ليضع قدميه واثقتين على طريق الإبداع الأدبي الذي هو أهل له بقدراته السردية المتميزة.

الروائي هشام الخشن

عبد الرحمن خضاري... طالب بكلية الطب وروائي مصري ...من مواليد عام 1993.. صدرت له رواية "ريحان" عام 2014 .

مجلة الابتسامة

الدار المصرية اللبنانية